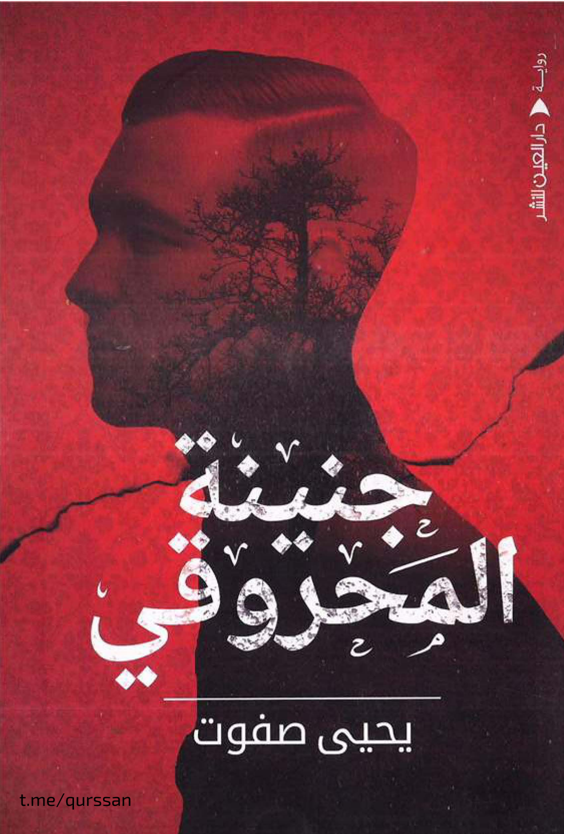
رواية
دار العين للنشر
جنينة
المخروقي
يحيى صفوت
t.me/qurssan

جنينة المحروقي

(رواية)

يحيى صفوت

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٨٤٩٩ / ٢٠١٩
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 574 - 2

t.me/qurssan

جنينة المحروقى

روايـة

يحيي صفوت

دار العين للنشر

t.me/qurssan

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

صفوت، يحيى

جنينة المحروقي: رواية/ يحيى صفوت.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٥٧٤ ٢

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٨٤٩٩ / ٢٠١٩

t.me/qurssan

عندما تصبح أكثر العقوبات قسوة هو أن تتذكر

t.me/qurssan

t.me/qurssan

كنت أظن إني لو نسيت، لو رميت كل شيء وراء ظهري، أكون قد نجوت.

لكني أتساءل...

هل كنت أخدع نفسي طوال هذه السنين؟

هل كان كل هذا لا فرار منه؟

أعلم إني الآن سجين داخل أبعاد لا نهائية، فما يحد الأماكن هنا هي جدران لا يمكنك تصورها. بالرغم من هذا فصوت أفكاري وهي تصدي بين الجوانب المصمتة يكاد يصيبني بالصمم.

الأعجب من هذا، رغم تلك الأبعاد اللانهائية، فإنه لا يوجد مخرج. وقبل أن تتساءل دعني أجيبك: هذا يعني أنه لا يوجد مدخل أيضًا، ليس كما نعرفه.

أعلم أن أول سؤال جاء ببالك هو كيف دخلت هذا المكان الكابوسي؟ وكيف سأخرج منه؟

t.me/qurssan

لكنك سوف تندهش عندما تعلم أن هذا هو الجزء السهل في المعضلة.

أسهل مما تتخيل.

ليس هذا هو المخيف في الأمر.

لا الظلمة ولا الوحشة ولا البرد القارص ولا حتى حالتي التي لن أصفها لك كي لا أصدمك.

ما يؤرقني حقًا وجعل شعري يشيب لحظة دخولي هنا هم من حولي.

يقفون كتماثيل رمادية متهالكة وكفوفهم تغطّي أعينهم خوفًا منه.

دعني أروي إليك ما حدث أولًا.

حتى يعي عقلك ما يرتعد منه من لا قلب لهم.

t.me/qurssan

1

تيقنت يوم وصولي القاهرة أني قد استنفذت جميع وسائل الإقناع مع زوجتي. فهي قد هيأت نفسها على تمضية بقية حياتها في الخليج ولم يعد لديها أي رغبة في الوقوف على أرض مصر مرة أخرى.

ومن يلومها وقد رأت الرفاهية والمعاملة الراقية التي يحلم بها أي إنسان، ناهيك عن أنها لم يعد لديها ما يربطها ببلدها بعد وفاة والديها خلال السنوات الماضية. لها عذرها، فهي لم تقضِ في مصر من حياتها ما يكفي لخلق هذا الرابط السرمدي غير المفهوم بين هذا البلد وقاطنيه.

لكنَّ وضعي مختلف. فحتى الأسبوع الماضي كان لدي أم في الستين من عمرها تركتها وحدها كي ألحق شيء من الدنيا.

t.me/qurssan

حين أسترجع شريط الخمسة عشر سنة الماضية أسأل نفسي كيف فعلتها؟ كيف تركتها طوال تلك الأعوام دون زيارة واحدة؟ أتذكر إصرارها ألا أنزل مصر لزيارتها لكن هل كنت أقنع نفسي بهذا؟

ربما كان كل هدفها هو ألا ترهقني ماديًا أو معنويًا أو بدنيًا. كان يجب أن أصرّ أنا الآخر وأفاجئها بزيارتي. والآن وقد جاءني خبر وفاتها علمت أن الفرصة الذهبية قد ضاعت مني وظهرت الأشياء على حقيقتها. انهارت تلك الصورة التي وضعتها على جدار حياتي الزائفة وتبينت الثمن الفاحش الذي دفعته سعيًا وراء أحلامي... هل كانت أحلامي فعلًا أم هي أشياء رسمها لي آخرون؟

سألتني (نهى) بعد أن سئمت النظر خارج نافذة سيارة الأجرة:

- نفسي أعرف ليه مننزلش في فندق أو شقة مفروشة؟

واضعًا في الاعتبار أننا قد تحدثنا في هذه النقطة مرارًا رددت عليها بصبر:

- معلش. كلها أسبوعين ونرجع تاني.

نفخت بغضب ليحتقن وجهها المربع وعدّلت وضع غطاء شعرها الخليجي بعصبية. عاودت النظر عبر النافذة وقد زاد الجو الغائم من سوء موقفي.

- يخربيت الكآبة. أنا مش فاهمة إيه اللي نزّلني معاك مصر.

t.me/qurssan

لقد تحدثنا أيضًا في تلك النقطة أكثر من مرة منهم مرتين على الأقل منذ ركوبنا التاكسي. نظرت للسائق فوجدته يرمقني في المرآه وعلى وجهه ابتسامة أثارت حفيظتي.

«ابن اللذينَ بيشمت فيّا»، قلت في سريرتي.

– حمد لله على السلامة يا فندم.

قالها للمرة العاشرة. كنت أعلم أن ضخامتي ولوني الأسمر يوحيان أني ثري عربي لكنه كان مُلحّ بطريقة مستفزة.

– فاضلنا كتير يا ريّس؟؟

تعمدت سؤاله بعنف وبلهجة مصرية خالصة فمسح ابتسامته سريعًا ولحس شاربه الكث بشفتيه السفلي ثم رد:

– معلش يا باشا. يوم الحد بالليل دايمًا زحمة كده. دقيقتين ونوصل.

قالها وأنحني فجأة ليتفادى ميكروباص مجنون فخرجت من (نهى) صرخة تحولت إلى عويل حين وقعت عجلة السيارة في بالوعة عميقة. تأوهت وأمسكت بطنها المتنفخة من أثر الحمل ثم نظرت إليَّ شزرًا كما لو كنت أنا من يقود السيارة.

كما قلت: لقد استنفذت جميع أعذاري مع زوجتي.

***

t.me/qurssan

بالطبع امتدت الدقيقتين إلى عشرين أمضتهم (نهى) في تأفف واعتراض أدخلا السعادة على قلب السائق السخيف.

- أرجو إنك تكون مبسوط.

قلت له من بين أسناني. تركت عينيه المرآه ونظر أمامه قائلًا بأدب مبالغ فيه:

- وصلنا يا فندم. حمد لله على السلامة يا فندم.

كنت على وشك التلفظ بكلمة قبيحة لكنه انحنى بالسيارة ليدخل شارع أعرفه جيدًا.

استقبلتني بنايات ثمانينية منها الذي ما زال محتفظًا بنظافته ومنها المُهْمَل كأنه صار مهجورًا. عمارات عشرة متشابهات ذوات خمس طوابق أحفظهم طابق طابق. يتوسط المربع السكني حديقة صغيرة مهملة لا يُرى من محتواها شيئًا بسبب النباتات التي تغطي سورها الحديدي والحشائش العملاقة التي ملأت محتواها.

تظهر في منتصف الحديقة شجرة بلوط هائلة تمتد فروعها خارج السور حتى تكاد تتحسس العمارات العشرة بأطرافها. على البوابة التي تواجه مدخل المربع توجد لافتة مكتوب عليها (جنينة مربع 10).

لم يكن هذا الاسم الذي أتذكر تلك الحديقة به فقد كان لها اسم آخر. نعم، لقد عُرِفَت في الحيّ بأكمله باسم جنينة (المحروقي). وهذا نسبة إلى الغفير

t.me/qurssan

الذي كان يحرس المنطقة من قبل أن ترتفع هذه المباني حول الحديقة.

هجمت عليَّ ذكرياتي بشراسة لدرجة أني توهمت أني سمعت صوت (أحمد) جاري صغير الحجم ذو العوينات السميكة وهو يناديني من شرفته. على الفور نظرت إلى بنايته لأجد شقته في الدور الرابع مهجورة كما تشي حالة شرفتها ونوافذها.

حوَّلت نظري للعمارة المجاورة لها، للطابق الأرضي بالتحديد، وحدقت في القضبان الحديدية التي تحمي النافذة الزجاجية العريضة. هناك كان يسكن التوأمان (نزار) و(عُديّ)، الثنائي البدين اللذان كانا لا يكفّان عن مناكفة بعضهما وازعاج والديهما.

وهذه العمارة عن يميني... إنها عمارة (رضوى). وما أدراك من هي (رضوى)؟ الحسناء البيضاء ذات الشعر الذهبي والعيون الخضراء.

أيقظني السائق من رحلة الذكريات تلك حين توقف عند مدخل المربع السكني الوحيد وسألني:

- حمد لله على السلامة يا فندم. أنهي عمارة سيادتك؟

أشرت إلى رابع بناية على يسار المدخل وأقنعت نفسي أن لم أسمعه يقول «حمد لله على السلامة» للمرة الألف.

رميت زوجتي بنظرة خاطفة فوجدتها فاغرة فمها غير مصدقة ما تراه. توقعت ما ستقوله لذا فقد أسرعت قائلًا:

t.me/qurssan

- ذكريات طفولتي كلها هنا يا (نهى). المنطقة دي كلها عارفاني. صحابي اللي كانوا...

قطع السائق كلامي حين صاح:

- سلامو عليكو.

نظرت لمن يخاطبه فوجدت رجل ضخم الجثة في جلباب فلاحي. أشيب الشعر ذو وجه دائري قوي يزينه شارب رمادي رفيع. كنّا قد سلكنا الاتجاه الأيسر من الحديقة لنجده أمامنا يشير للسائق كي يقف. هيئته لا يمكنك الخطأ فيها، هو بواب إحدى العمارات بكل تأكيد.

- إيه ده؟ ده بوكس ده ولّا إيه؟

تساءل سائق التاكسي ثم أنزل زجاج نافذته ليتحدث مع البواب.

صدمتني رائحة عجيبة، كأنها مزيج من بخور قوي ومسك نفّاذ، رائحة تعبئ المكان كله. تصورت أن هناك محل عطارة في مكان ما وتجاهلت الأمر.

نظرت أنا و(نهى) إلى ما بعد الحديقة لنجد بوكس الشرطة الأزرق وبجانبه سيارة نجدة حديثة عند البناية التي تقابل مدخل المربع السكني، بجوار عمارتي تمامًا.

- ممنوع الدخول هنا يا جدع إنت.

t.me/qurssan

قال البواب الستيني الأسمر بعدائية.

رد السائق مشيرًا إليَّ:

- اهدى بس يا ريس. أنا معايا الأستاذ (كريم) ساكن هنا.

انحني البواب لينظر إليَّ مما مكنني من رؤية ملامحه جيدًا.

- عَم (محروس). إزيك؟ أنا (كريم السيوفي). فاكرني؟

حدّق البواب في وجهي لثوان ثم أتى بتعبير عجيب. امتعضت ملامحه وارتعشت خلجاته كأنه يمنع نفسه من إظهار مشاعره.

- أستاااذ (كريم)؟ إزيك يا أستاااذ. اتفضل معلش.

قالها بلهجة فلاحي مَطّ فيها حرف الألف في كلمة « أستاااذ » ثم انتصب واقفًا وابتعد عن طريقنا.

- بوليس يا (كريم)؟؟

قالتها (نهى) وهي على وشك البكاء.

لم يعد لدي ما أقوله فنحن هنا وليس بإمكاني فعل شيء. لذا تركتها ترطن ونزلت من السيارة فور وقوفها بجانب بيتي القديم.

انضممت إلى السائق عند مؤخرة السيارة كي نُنزِل الحقائب وعيوننا على ما يحدث أمام العمارة المجاورة.

t.me/qurssan

يقف عند مدخل العمارة الواسع المظلل بالأغصان المتشابكة مجموعة من العساكر وأمناء الشرطة وعلى وجوههم مزيج متباين من ردود الفعل. منهم من يعلو وجهه أعتى آيات الضجر ومنهم من هو مستمتع بما يحدث وعلى وجهه ابتسامة بلهاء ومنهم من يدخن السجائر بشراهة وكل اهتمامه منصبٌ على الموقف العجيب أمامه.

في وسط هذا الحشد يقف ضابط شاب قمحي اللون متوسط الطول ذو وجه مربع وبنية رياضية. يقف أمامه رجل شرق آسيوي لا يتعدى أربعين عامًا. يتكلم الرجل بلغة بلاده ويشيح بيديه في عصبية بينما يبدو على الضابط ومن معه إنهم لا يفهمون ما يقوله.

من إيماءاته وإشاراته استنتجت أن ما يقوله له علاقة بتلك السيدة الآسيوية المحجبة التي تقف في شرفة بالطابق الثاني محتضنة طفلتها. رغم أن المساء قد بدأ في فرض سطوته لكني استطعت تمييز حمرة وجهها من أثر البكاء. الطفلة الصغيرة نفسها كانت شاخصة البصر وفي يدها دمية صفراء بينما تحك رقبتها بأظافر يدها الأخرى بعنف.

عبر بجانبي (محروس) بقامته التي تناهز طولي -أي ما يزيد عن المائة وتسعون سنتيمترًا- قائلًا:

- البقية في حياتك يا أستاااذ. حضرتك جاي تقعد ولا زيارة سريعة؟

لم تعجبني كلمة «أستاااذ» هذه، ليس فقط بسبب طريقته في مَدّ حرف

t.me/qurssan

الألف لكنها كانت كلمة مستفزّة. التفتّ إليه وكنت على وشك الرد بسخافة على تطفُّله لكن (نهى) تدخلت قائلة:

- زيارة سريعة جدًا.

تنهدت وسألته وأنا أرفع حقيبتي فوق كتفي:

- إيه اللي بيحصل يا (محروس)؟

- مافيش يا أستاااذ. دول عالم صينين مهابيل.

- حمد لله على السلامة يا فندم.

التفت لسائق التاكسي وكنت على وشك سؤاله: «إنت ليه كده؟» لكني أخرجت مائتين جنيه وأعطيته إياهم.

- شكرًا يا باشا. حمد لله على السلامة. حمد لله على السلامة.

«غور بقى» قلتها في ذهني وابتسمت له ملوحًا.

تسمّر (محروس) ورمق السائق الذي تراجع بسيارته خارجًا من المربع السكني بنظرة ذئبية شرهة. يبدو إنه لمح الورقة المالية التي أعطيتها إياه فتردد لحظة قبل أن تتغلب عليه شخصية البواب.

- عنّك يا أستاااذ.

قالها ومد يده ليرفع الحقائب ويسبقني إلى مدخل بيتي.

t.me/qurssan

تبعته لكن ليس دون نظرة أخيرة على الموقف البوليسي المثير. سمعت صياح الرجل الآسيوي مرة أخرى قبل أن يتنهد الضابط الشاب ويهز رأسه قائلًا:

– ما هو أنا مش بتكلم صيني يا عَم إنت. ويعدين في الليلة السودة دي؟

قال الأمين الذي يقف وراءه:

– خلاص يا باشا يلا بينا. إحنا عملنا اللي علينا والراجل شكله مش عايز حاجة أصلًا. عمّال بيشوّح وعايزنا نمشي. مش هنشيل هَمّ الأجانب كمان.

التفت إليه الضابط وحدّق فيه بقوة قائلًا:

– إحنا مش هنمشي من غير ما نفهم اللي بيحصل.

– ده مش صيني على فكرة. هتفت بصوت مسموع.

خيّم السكون على المكان والتفت جميع من في مدخل العمارة وأولئك الذين يتابعون المشهد من حولنا إليَّ.

– أومّال بيتكلم إيه؟ سألني الضابط باهتمام.

– الراجل ده من ماليزيا. أصلي بعرف أميّزهم بسبب شغلي في الخليج.

– طب تعرف بيقول إيه؟

t.me/qurssan

- في الحقيقة لأ. لازم تطلبوا مترجم.

زفر الضابط ورجع الإحباط إلى ملامحه.

- طيب أشكرك.

ترددت في أن أذهب إليه وأخبره أني أستطيع تفسير بعض ما يقوله لكنني آثرت عدم التدخل. قبل أن أدخل عمارتي رمقت الرجل الآسيوي فوجدته ينظر إليّ هو الآخر. ربما سمعني وأنا أذكر «ماليزيا» لكن لم يرقني ما رأيته في عينيه.

حسنًا فعلت، قلت لنفسي، فليس من الحكمة أن أكسب عداوة جيراني من أول لقاء، خصوصًا مع رجل يريد من الشرطة أن ترحل دون أن تسمع ما تريد زوجته أن تقول.

***

مليئًا بالشجن، تأملت بناياتي نافذة نافذة. اعتصر قلبي يد قاسية حين وقع بصري على شرفة منزلي. تذكرت أمي وهي تلوح لي مبتسمة وأبي يجلس خلفها على الأريكة في وقار.

أخذت نفسًا عميقًا ثم عبرت المدخل المُضاء بمصدر ضوء بائس. يختبئ المصباح في بيت نور مليء بالمصابيح النافقة والأسلاك المتشابكة. ألقيت نظرة خاطفة على الشقة الوحيدة فوجدت خطابات وورق دعاية وجرائد متراكمة مما يوحي بخلوها من السكان. رغم أني تركت بيتي هذا منذ أكثر

t.me/qurssan

من خمسة عشر عامًا لكني ما زلت أتذكر أستاذ (سينوت) وحرمه دكتورة (كارولين)، سكان هذه الشقة.

انهالت الذكريات عليَّ فجأة حتى كدت أجزم أني رأيت نفسي وأنا أتزحلق على الدرابزين نزولًا. صعدت السلم القديم درجة درجة وأنا أتنفس رائحة طفولتي وشبابي. تأملت في الحوائط الرمادية المتربة وتحسست النتوءات والحفائر المميزة لهذه الحقبة الزمنية والتي تشبه خلايا سرطانية تحت المجهر. كانت موضة عجيبة.

وصلت للطابق الأول حيث كان يسكن صديقيّ (عمرو) و(أمجد). تذكرت يوم اختفيا بين ليلة وضحاها وسافرا إلى الولايات المتحدة دون سابق إنذار. مثلهما فعل أصدقائي (أحمد) و(نزار) و(عُدَيّ). حتى (رضوى) هجرت بيتها على حين غفلة من الجميع. كان لهذه الأحداث أكبر الأثر على تكوين شخصيتي حيث تعودت على تقبّل «النذالة» من صغري وهي الوصف الوحيد الذي وجدته ملائمًا لتركهم إياي دون وداع.

كدت أطلق زفيرًا حارقًا لكن بدلًا من هذا سمعته.

اخترقت أذني تنهيدة عالية لا تخرج إلا من صدر مكلوم يحترق ألمًا وحسرة.

تجمدت في مكاني والتصقت يدي بدرابزين السلم وأنا أحاول تحديد مصدرها. درت بعيني في محيطي ثم استدرت لأنظر خلفي لكني لم أر أحدًا ولم أسمع خطوات أقدام. نظرت لشقة (عمرو) و(أمجد) فرأيت أمامها تلًا

t.me/qurssan

من الخطابات والجرائد كدليل صارخ على خلوها منذ سنين.

مططت شفتيّ وتجاهلت الأمر، فذكرياتي الهائلة هي ما تلاعبني بالتأكيد. نظرت فوقي لأقرأ ما رأيته مكتوب على باطن السلم:

(1994 أحلى صيف)

ابتسمت وأخذت نفسًا عميقًا لعلّي التقط رائحة تعيد إليّ ذكرياتي. أكملت صعودي حتى وصلت إلى الطابق الثاني فاستقبلني (محروس) بابتسامة طفل أنهى واجبه الدراسي.

- كله تمام يا أستااااذ.

- شاطر يا (محروس). قصدي شكرًا يا (محروس).

قلتها ومددت يدي في جيبي. لا أدري لماذا أوحى لي شيطاني باستفزازه فأخرجت يدي ومدتها فارغة لأصافحه.

كدت أنفجر ضحكًا وأنا أرى ابتسامته قد ذابت فجأة وانهارت ملامحه دفعة واحدة كأنها تعرضت لجاذبية مفاجئة وهو يتحسس يدي الفارغة.

- الـ..العفو.

قالها وسحب يده وانصرف وهو يلعن غباءه وتساهله.

-استني خد.

t.me/qurssan

ناديته وأعطيته مبلغًا كان في يدي الأخرى فأنا حتمًا سأحتاجه خلال الأسبوعين القادمين.

تهللت أساريره وفقدت الجاذبية تأثيرها على ملامحه لترتسم على وجهه اللحيم قاسي الملامح ابتسامة عريضة أظهرت صفين من الأسنان السوداء كشواهد قبور.

- تؤمر بحاجة تانية يا ابن الغاليين؟

- لا يا (محروس) شكرًا. حنشوف محتاجين إيه وأقولك.

- خدّامك يا أستاااذ. رقمي مع المدام. تصبحوا على خير.

لكنه توقف فجأة واستدار إليَّ فسألته:

- خير يا (محروس).

- خير يا أستاااذ. بس حبّيت أجولك إن الجمعة اللي جاية هنغسل خزّانات الميّه. ومش هيبجي فيه ميّه ليلة السبت. معلش حاجة ماسخة أنا عارف بس لازمن تتعمل كل شهر علشان الخزّانات جديمة جوي.

- طب وهنقعد ليلة كاملة من غير ميّه؟

هز كتفه ورد:

- ما هو أنا بجول لجنابك علشان لو هتجعدوا ليوم الجمعة تروحوم حتة تانية اليومين دول وترجعوا السبت.

t.me/qurssan

- ماشي يا (محروس). شكرًا.

- العفو يا أستاااذ. يعني هتبيّتوا برة ليلة السبت؟

- هنشوف يا (محروس).

يا ساتر!!

أغلقت باب الشقة وراءه بعنف والتفتّ إلى (نهى) التي وقفت في الصالة تتأمل الأثاث المغطى بالملاءات البيضاء ويدها على بطنها.

- مالك يا (نهى)؟

سألتها باهتمام بعد أن رأيت تعبير الألم على وجهها.

- ماليش. مغصة عادية ممكن من ريحة البخور الغريبة دي. المهم دلوقتي الشقة. ده شغل كتير قوي. هم ليه عاملين في العفش كده؟ مش مامتك متوفية من أسبوع بس؟

- معرفش. بصّي. خدي دش وأنا هجهّز أوضة النوم. بكرة نجيب مرات (محروس) وكام واحدة من العمارات اللي حوالين الجنينة ونظبّط البيت.

هزت رأسها مستسلمة وقالت:

- ماشي.

ثم اتجهت للحمام وتركتني للّحظة التي انتظرتها طويلًا. وقفت على

t.me/qurssan

أعتاب الصالة الواسعة وتذكرت أوقات صنعت مني من أنا.

رفعت بعض الملاءات وتأملت في أثاث المنزل. مررت بيدي فوق تفاصيل الكراسي الخشبية المتراصة حول طاولة السفرة العتيقة وربّتّ على أكتاف الكراسي المُبَطنَّة بالقطن لتفاجئني بهالة من الأتربة تنفستها عن طيب خاطر.

تعجبت من كمّ الأتربة فوالدتي كما قالت (نهى) كانت تعيش هنا منذ أقل من أسبوع. وأوراق الشجر تلك، كيف تراكمت بهذه الكثرة؟ إن البيت يبدو كأن عاصفة قد هبت بداخله.

لكن لا يهم. فهي شقتي التي نشأت فيها واشتد عودي.

يا إلهي. أكاد أشتم رائحة والدي وهو جالس على هذا الكرسي يقرأ سورة الكهف يوم الجمعة.

وهناك، على هذه الأريكة المريحة كانت أمي تجلس وهي تستمع إلى أغاني فايزة أحمد وفريد الأطرش من هذا المذياع القديم. أمامها جريدة اليوم تقرأ فيها صفحة عبد الوهاب مطاوع وهي تحتسي الشاي بالحليب، إدمانها الأزلي.

تقدمت لأنظر من النافذة العريضة التي كانت شرفة في يوم من الأيام وتأملت في المربع السكني الذي أظلم مع قدوم الليل.

انتبهت إلى البناية المجاورة حيث يقف الرجل الماليزي في شرفته في

t.me/qurssan

الطابق الأول. الغريب في المشهد الذي رأيته الآن أنه يلوّح بيده ويتكلم بحدّة مع...

... مع من؟

لا أرى أحد معه في الشرفة ولا في الشارع.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

2

في الصباح تركت (نهى) تجهّز الشقة وأعطيت لنفسي مهلة حتى آخر النهار لأقضي بعض المهام. فتلك كانت مهلة كافية جدًا لتُنَظِّم زوجتي مكان معيشتنا الذي سنقضي فيه الأسبوعين التاليين.

تعجبت كثيرًا حين علمت إنه لا يوجد بواب غير (محروس) في خدمة العشر عمائر المحيطة بالحديقة. والمعلومة الأعجب أن حجم الإشغال للشقق لا يتعدى العشرة بالمائة. البقية الباقية مغلق ومهمل كالقبر.

أول شيء كان يجب أن أفعله هو الذهاب لقبر أمي. أذكر أن مدافن العائلة كانت في الفيوم لذا فقد طلبت سيارة عن طريق أحد تطبيقيّ المواصلات الشهيرين وانطلقت إلى هناك.

t.me/qurssan

لكني اكتشفت خطئي عند وصولي المقابر فلم يكن لدي أية فكرة عن مكان المدفن بالتحديد. أمضيت ما يقرب من ساعة وأنا أتجول بين المقابر دون فائدة. حتى سكان المقابر، أولئك الذين يظهرون من العدم حين تأتي جنازة ويلتصقون بك كالغراء حتى تنفض، لم يعرض أحد منهم المساعدة. لم يكن لدي إلا أن أتصل بالمحامي (عبد اللطيف).

لكني فوجئت به هو الآخر غير قادر على تحديد المدفن الذي استقر به جثمان أمي. لذا فقد قررت تأجيل زيارة المدفن حتى أعلم مكانه بالضبط.

بعد قضاء مهام أخرى ضرورية مررت بالأستاذ (عبد اللطيف) محامي العائلة في مكتبه بالتجمع الخامس للبدء في إجراءات التِّرِكَة.

الحقيقة أن استقبال الرجل كان دافئًا بحق فهو صديق للعائلة أكثر منه محاميها.

جلست أمام الرجل المرح القصير ذو الابتسامة العريضة والجسد المكتظ نتناقش في الإجراءات المطلوبة. مرورًا بالفواتير والتوكيلات وأرقام الحسابات إلى صناديق البريد وعقود الملكية.

بعد الانتهاء من تلك التفاصيل المعقدة سألته عن ملابسات الوفاة.

- الوفاة تمت بالليل. البواب بيقول إن مراته دخلت الصبح لقت الحاجّة على الكنبة اللي في البلكونة اللي متقفّلة بالألوميتال. وفاة طبيعية - سكتة قلبية - يعني ماتعذبتش. الجيران بلّغوني بعد دكتور الصحة ما جه وكتب

t.me/qurssan

تقريره. الدكتور (عادل) جاركم كان موجود هو كمان.

– معرفش مين (عادل) ده. الكلام ده قبل ما تبلّغني بيوم واحد بس، مش كده؟

– مظبوط. لو ماتعرفوش يبقي الدكتور (عادل) ده غالبًا واحد من المستأجرين الجدد. والحقيقة هو اللي تطوع وقام بالواجب. من غيره الإجراءات مكانش ممكن تتم لأنه زي ما إنت عارف كان لازم قريب من الدرجة الأولى أو التانية يكون موجود. إنما الوفاة والدفنة تموا بسرعة. ده أنا حتى ملحقتش أشوفها وأودعها قبل الدفنة.

تنهّدت وهزّزت رأسي متأثرًا.

– كان نفسي أشوفها أنا كمان قبل ما...

لم أستطع أن أنهي جملتي واختنقت الكلمات في حلقي.

– يا بني الأعمار بيدي الله وإنت كنت بتعمل الواجب برده ما قصّرتش.

– بعمل الواجب إيه يا متر؟ ده أنا هتشوي في جهنم على الإهمال والأنانية بتوعي.

– ليه يا (كريم) يا بني بس؟ استغفر الله. ده أنا بضرب بيك المثل في بر الوالدين.

تجهّم وجهي وقلت محتدًا:

t.me/qurssan

- إنت بتتريق يا أستاذ (عبد اللطيف)؟؟؟

- ليه يا بني لا سمح الله؟ رد (عبد اللطيف) وقد فوجئ بموقفي، هو اللي كنت بتعمله ده قليل؟

- بعمل إيه يا متر؟؟؟ ده أنا مثال للعقوق. في حد يهمل والدته كده؟

- الله؟ ده كفاية زيارتك ليها كل شوية. ده مافيش مرة أكلمها إلا لما تحكيلي قد إيه إنت مش محسسها إنك في بلد وهي في بلد.

قطبت حاجبيّ وجف حلقي وتلعثمت قائلًا:

- زيارتي ليها؟ ده أنا آخر مرة شفتها فيها كانت من خمستاشر سنة. أي نعم هي كانت بتحلّفني إني ما أنزلش مصر بس أنا زي ما أكون ما صدقت.

ضحك (عبد اللطيف) ثم عقّب:

- ماتبالغش كده يا (كريم) يا بني. دي آخر زيارة ليك كانت على ما أذكر من شهر.

انتفضت من جلستي وضربت على المكتب بكفي صائحًا:

- شهر إيه يا جدع إنت؟؟؟

ثم مددت يدي في جيبي بعصبية بالغة وأخرجت جواز سفري للمحامي

t.me/qurssan

المصعوق. لابد أن مشهد رجل داكن البشرة ضخم الحجم مثلي وهو يهجم عليه كان مخيفًا فقد انكمش في مقعده وجحظت عيناه وأنا أريه جواز السفر هاتفًا:

- أهه. بصّ. الفيزا والتأشيرات كلها أهي. أنا ما طلعتش من البلد اللي أنا فيها من سنة كام؟ أهه. من ألفين وخمسة. إزّاي بقي جيتلها من شهر؟!! هه؟ إزّاي؟؟؟

***

رغم الأقسام الغليظة والتأكيدات القاطعة التي انهالت عليّ من أستاذ (عبد اللطيف) أن هذا ما أخبرته به أمي لكننا توصلنا في نهاية الأمر، بعد أن تأكد إني لم أطأ أرض المحروسة منذ خمسة عشر عامًا، أن أمي قد مسّها شيء من الخَرَف في أواخر أيامها.

في النهاية غادرت مكتبه بعد أن اجتاحني شعور غير مريح.

تلافيًا لثورة (نهى) قررت الإسراع في إنهاء الإجراءات حتى نعود للخليج في أقرب وقت. مررت في طريق عودتي بشركتي الكهرباء والغاز كي أسوّي الحسابات المتعلقة التي بلغني بها أستاذ (عبد اللطيف). استغرقت ما يزيد على ثلاث ساعات ثم عاودت مسيرتي باتجاه البيت.

أنزلني سائق التاكسي أمام المربع السكني وأكملت طريقي مشيًا. دخلت عبر المنفذ القصير بين العمارتين المطلّين على الشارع الرئيسي لتستقبلني جنينة

t.me/qurssan

(المحروقي) بسورها المغطى بأفرع اللبلاب ومحتواها المستور خلفه.

هل كانت هكذا دائمًا؟

الغريب أني لم أتذكر من تلك الحديقة إلا اسمها. كلما تجولت في ملفات ذاكرتي لا أجد عنها شيئًا. أتصفح صور طفولتي في خيالي ولحظات لهوي ولعبي في الشارع وعندما أصل إلى هذا السور أجد... لا شيء، فقط مكعب مصمت من الفراغ. و(المحروقي) نفسه، أشهر غفير بالمنطقة وأقلهم ظهورًا، لا أتذكر الكثير عنه.

اتجهت إلى بنايتي ونظرت إلى السيارة الوحيدة الرابضة أمامها. كيف لم أرى هذه السيارة الرياضية الأنيقة من قبل؟ إذًا ليست العمارة فارغة من السكان تمامًا.

مررت بـ(محروس) الذي اتخذ من جراج عمارة تتوسط العشر عمارات منزلًا له ولأسرته الكبيرة. كان يقف وفي يده كيس بلاستيكي أسود كبير أمام الجراج. بصحبته ثلاث نسوة في جلابيب سوداء يملأن الكيس بأشياء لم أتمكن من تحديد هويتها. بعد أن انتهين أغلق الكيس وتوجه إلى رصيف الحديقة. ألقى عبر السور نظرة خاطفة من بين الأغصان المتشابكة ثم بدأ في المشي حول الحديقة والكيس يترنّح في يده.

وقفت النسوة يراقبنه كأنهن يشاهدن حدث مثير قبل أن يضعن كفوف أياديهن على صدورهم وعلت وجوههن تعبير بالحسرة واللوعة لا محل له من الإعراب.

t.me/qurssan

- (محروس)!!

جفل وأخفى يده الممسكة بالكيس خلف ظهره ثم التفت بسرعة إليهن وزجرهن كي يدخلن الجراج. استدار بعدها ليستقبلني قائلًا وهو يمد «الألف» في كلمة «أستاذ» بطريقته المعهودة:

- إزيك يا أستاااذ؟ أؤمر.

- بتعمل إيه؟

- بعمل إيه في إيه يا أستاااذ؟

قالها وهو يتلفت حوله بدون فهم.

- خلاص مش مهم. عايز أسألك عن حاجة. هي والدتي كان فيه حد بيزورها وأنا مسافر؟

- هه؟

كان تعبير وجهه يكفي.

إبيضّ وجه الفلاح الصلب وتلعثم حتى تيقنت إنه يخفي شيئًا. لا يهم ما قاله بالضبط فَرَدّ فعله الأوَّلي يشي بأن كل ما سينطق به كذب.

- مش عارف يا أستاااذ والله. أصلي ما بحشرش نفسي في خصوصيات السكان. بس سؤال معلهش، هو جنابك هتباتوا برة ليلة السبت علشان غسيل الخزانات؟

t.me/qurssan

- لأ فعلًا مش بتدخل في خصوصيات السكان. ماشي يا (محروس)، سلام.

استدرت مغادرًا دون أن أجيبه وقد أضمرت شيئًا.

أنا لم أولد بالأمس يا (محروس).

***

- (كريم)!!

انتبهت لهذا النداء في اللحظة التي اتجهت لعمارتي. التفتّ لأجد سيدة سمراء بدينة تبدو في العقد السابع من عمرها تستند على سيارة ربع نقل رابضة بجانب الحديقة. في يدها كيس أسود شبيه بما كان يمسكه (محروس) الذي تركته يرطن خلفي. لم أعط للأمر اهتمامًا كبيرًا لأن كيس المخلفات هذا هو أكثر الأشياء شيوعًا على كوكب الأرض. أخرَجَت يدها اليسرى من الكيس ووضعته خلف ظهرها ثم أشارت إليّ لأذهب إليها ففعلت.

- إيه يا (كريم) يابني، مش ناوي تعدي تسلم عليّا؟

تأملت في وجهها ذو الملامح الأفريقية: الأنف الكبير والفك العريض. ثم تذكرتها. كيف أنسى تلك العيون الجاحظة خلف العوينات السميكة وهذا الشعر الغارق في الحناء.

- طنط (سوسن)؟

ابتسمَت وهزَّت رأسها مؤكدة بينما اتسعت عينيها حتى شعرت أنها

t.me/qurssan

سوف تترك مقلتيها وتطفو كبالون الهليوم.

- برافو يا (كريم)، افتكرتني. كده متجيش تسلم عليّا لغاية دلوقتي؟

- معلش يا طنط. الدنيا ملخبطة شوية.

- ملخبطة؟

قالتها بنبرة غريبة أقرب إلى التهكم، ثم قالت:

- معلش. عمومًا البقية في حياتك يا بني. أمك دي، قصدي (ثرية) حبيبتي الله يرحمها، كانت أعز صحباتي.

أنهت جملتها بأن أطلقت تنهيدة عالية وطويلة.

قطبت حاجبيّ الكثين وهرشت في لغدي الغليظ متعجبًا لكنها لم تترك لي الفرصة حيث أردَفَت:

- طب ده حتى هي كانت واخدة مني كام ايشارب كده.

حاولت ألا أظهر شعوري بالقرف وأنا أقول بعد أن فهمت ما تهدف إليه:

- آه. حاضر. هعدي على حضرتك بالايشاربات لو لاقيناهم وتشوفي حاجتك فيهم.

- مش القصد. بس عمومًا تنوّر. قولي، إنت قاعد قد إيه؟

t.me/qurssan

قالت بعد أن أعطتني نظره طويلة لم أفهمها.

- لسه معرفش. عن إذن حضرتك.

اتجهت لمنزلي لاعنًا في سري تطفُّل جيراني المزعج لكني كنت أشعر بعينيها تخترقان جمجمتي.

***

استقبلتني (نهى) بوجهٍ مكفهر، وهي عادة جديدة اكتسبتها منذ رجوعنا.

- خلصت مشاويرك؟

انحنيت لأقبّل بطنها المنتفخة وداعبت ابنتي المحبوسة داخلها رغم اعتراض كرشي الفخيم على هذا الوضع الجمبازي. كنت مصمم إنها فتاة رغم إننا فضلنا عدم الكشف بالسونار. حتى تقرير الطبيب المتابع تجاهلناه وفضلنا انتظار المفاجأة.

- لسه. المواضيع مش هتخلص بسرعة. إدعي بس إننا نلحق نخلصها في الأسبوعين دول.

- بقولك إيه يا (كريم)!! ردت بعصبية ثم أردفت:

أنا مش عايزة الولد يتولد في مصر. مش بعد كل ده وما يخدش غير الجنسية المصري.

وضعت المفاتيح على الوحدة الأنيقة الرابضة في مدخل الممر المؤدي

t.me/qurssan

إلى غرف النوم وقلت:

- لسه شهر على ميعادك يا (نهى). ماتخافيش. وبعدين هي بنت م ش ولد، أو توأم، سيان بالنسبالي.

قلتها مازحًا ثم لفت انتباهي شيئًا.

- إيه ده؟ إنتي لقيتي نسخة المفاتيح التانية؟

- لأ دي لقيتها تحت ممسحة الجزم بره الشقة. تخيّل إنها كانت تحتيها المدة دي كلها؟

ابتسمت والتفت لها قائلًا:

- يااااه. دي كانت عادة أهلي. يسيبوا المفتاح تحت الممسحة علشان مرات البواب تجيب الفطار الصبح ومستلزمات البيت. ولما يخرجوا يسيبوهولي علشان لما أرجع من المدرسة.. ذكريات.

- طب الذكريات دي بقى هتخلينا نغيَّر مفاتيح الشقة كلها. ممكن لو نازل النهاردة تجيب كالون جديد؟

- عنيًّا.

قلتها بدون أي نية لتنفيذ الوعد. دول هم أسبوعين.

***

t.me/qurssan

بعد الغداء جلسنا في الشرفة التي جعل منها والدي غرفة لطيفة بنافذة بانوراما واسعة. فتحت الزجاج كي أسمح للهواء المنعش بالدخول.

- اتعرفتي على جيرانا؟

سألت زوجتي وأنا أرتشف من كوب الشاي بالحليب بعد أن جلست بجوارها على الأريكة.

- جيران مين؟ دا المربع ده كله مافيهوش ست سبع تمن شقق هم اللي ساكنين. أول مرة أشوف صحرا في وسط البلد.

ضحكت من تعبيرها فابتسمت هي الأخرى حتى توردت وجنتيها البارزتين وقالت:

- من إمتى الشاي بلبن؟

- والله دي كانت عادة أمي. ضميري مأنبني قوي يا (نهى).

- الندم مالوش لازمة يا (كريم). إدعيلها أحسن.

تمتمت بدعاء لأمي فخفضت صوتها وربتت على كتفي.

- تعيش وتفتكر يا حبيبي.

ثم همت بقول شيئًا ما لكنها أمسكت بطنها وتقلّصت ملامحها.

- إيه، لسه الوجع الغريب ده عندك؟

ابتسمت وتركت بطنها كي تطمئنني قائلة:

t.me/qurssan

- الأوجاع ما بتنتهيش في الحمل وبعدين دي بشاير السفرية الجميلة بتاعتك. مش رجعت مصر لازم الوجع يزيد. بقولك إيه ما تركزش معايا.

توقفنا عن الحديث لنتأمل الاحتفال القائم في العمارة المجاورة في بيت (محروس). كانت الزاوية التي ننظر منها تسمح برؤية الممر المؤدي للجراج من فوق سور العمارة.

- دول قالعين اللبس الأسود. غريبة دي.

علّقت (نهى) على النسوة.

نظرت لما تشير إليه فوجدت أفراد عائلة (محروس) الكبيرة منهمكون في الأحاديث والمزاح، على غير عادتهم الكئيبة، بينما تدور بينهم الحلوى وأكواب الشاي الداكن وعصير الورد.

نهضت مرة أخرى لأستند على سور الشرفة من أجل زاوية رؤية أفضل لكنهم توقفوا عن الحديث والتفتوا إليَّ. هززت كتفي بلا مبالاة وعدت لأجلس مكاني وسمعت بعدها باب الجراج يغلق بعنف. نظرت هناك فلمحت طرف شخص يقفز من فوق سور الممر المؤدي للجراج ويختفي في ظلمة حديقة العمارة المجاورة لهم. صدحت الزغاريد العالية بين أنحاء المربع فابتسمت لـ(نهى).

- إيه المناسبة فكرك؟

لم تنتظر ردي وأشارت لشخص يترجل في الشارع قائلة:

t.me/qurssan

- إستنّى بُصّ، ده الراجل بتاع ماليزيا أهوه.

ذهبت لأطفئ نور الشرفة بسرعة وعدت للجلوس بجوار زوجتي. طفقنا نراقبه بفضول وهو يمد الخطى لمنزله.

- شكله عادي.

قلتها وأنا أمط شفتي.

- أومّال كنت فاكره عامل إزّاي؟

رويت لها ما شاهدته أمس وما أن فعلت حتى أحسست بخطئي.

- كمان مجانين؟ قالت (نهى) وقد انقلب حالها فجأة، أنا عايزة أمشي من هنا يا (كريم). مش مرتاحة في المكان ده. قلبي مقبوض.

- يا بنتي الأسبوعين دول هيعدوا هوا. وبعدين قلبك يتقبض وإحنا في الهدوء والروقان ده. الفيو ده والنبي ولّا العمارات اللي عاملة زي المكعبات اللي في الخليج؟

- فيو إيه؟؟ دي الجنينة اللي أودّامنا دي هي اللي جايبالي الكآبة كلها. بص والنبي. دي جنينة دي؟ ده لو واحد عايز يقتل قتيل ويخبيه فيها ولا حد هيحس. والنبي إنت شايف إيه اللي جوه؟ ده غير جيرانا اللي بتقول عليهم دول. زي ما يكونوا جمّعوا كل الناس العجيبة في البلد وحطّوهم في حتة واحدة. بس والنبي خليني ساكتة.

نهضت بعد كلامها هذا وتركتني مع إحساس قوي أني فتحت على

t.me/qurssan

نفسي فتحة لن أستطيع سدها فتنهّدت وقلت بصوت عالي:

- ماهم جيراننا بس؟

لم تجبيني حينها ولكني علمت بعد ذلك مدى صحة مقولتها تلك. لكن ليس هذا ما كان يشغل بالي في تلك اللحظة بل ذلك الوهج الخافت الذي لمع لثوانٍ قليلة ثم اختفى.

تتساءل ما المثير في هذا؟

المثير إنه سطع من جنينة (المحروقي)... من منتصفها بالضبط.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

3

دعني أنا أخبرك عن جيراني. في المجمل يشغل السكان ثلاثة عشرة شقة حول المربع ويتفقون جميعًا على الخصوصية المبالغ فيها. وقد قررت أن أقتحم تلك الخصوصية علّهم يساعدوني في كشف الستار عما حدث في الفترة التي سبقت وفاة والدتي.

في اليوم التالي لم يكن لدي ما يشغلني إلا بعض المهام والمأموريات البسيطة. بسيطة فى ظاهرها بالطبع لأنها في الواقع أصعب من مهام هرقل الاثنا عشر. فى النهاية لم أجد نفسي قد حققت تقدمًا ملحوظًا في إجراءات الإرث. بالتالي فضلت عدم التواجد حول (نهى) كي لا تسألني عن الفترة الباقية لنا فى مصر للمرة الألف.

t.me/qurssan

سؤال بسيط ظل يؤرقني طيلة اليوم:

«كيف لم أشعر بشيء غير طبيعي في مكالمات أمي التليفونية لو كانت قد أصيبت بشيء من خرف الشيخوخة؟!»

***

عند عودتي وقفت أمام الحديقة محاولًا اختراق الستار الطبيعي الذي يحيط بها دون جدوى. لذا فقد تخليت سريعًا عن سعيي وراء معرفة حقيقة الوهج الذي رأيته الليلة السابقة وتوجهت لزيارة أهم قاطني المربع.

كان الدكتور (عادل)، أستاذ الباطنة المتقاعد، ممن لا يتركون منزلهم إلا نادرًا، لذا فقد اضطررت أن أذهب إليه في شقته. وهو شيء ليس سيء لهذه الدرجة وهذا لسبب ستعرفه حالًا. دكتور (عادل) لم يكن من قاطني هذا المربع السكني قبل رحيلي لذا فقد كانت أول مرة أتعرف عليه.

هو أرمل ستّيني ذو بنية ضخمة، ظهرٌ محنيّ ورأس كبير. بدت لي أصوله تركية أو شيء من هذا القبيل فوجهه الحليق ذو الحاجب الكث كان أبيض تشوبه الحمرة.

فتح لي الباب بابتسامة عريضة وكأنه كان ينتظرني.

- أهلًا أهلًا. قالها بترحاب. (كريم) مش كده؟

- أيوة يا دكتور. سلامو عليكو.

t.me/qurssan

أشار لي بالدخول فتنحنحت ودلفت شقته.

استقبلتني تلك الرائحة التي تشبه مزيج من المسك والبخور وأنا أجول بصري في بيت تتراص فيه الانتيكات واللوحات كأنه متحف صغير. قليل الإضاءة هو معتمد على نور النهار الذي تكاد تلمسه بيدك بسبب الغبار العالق في الجو.

- البقاء لله يا بني.

- الدوام لله يا دكتور.

ذهبنا لنجلس في الصالة التي تنتهي بالشرفة حيث تركني ليحضر القهوة رغم إصراري على عدم ضرورة ذلك. سمعته من المطبخ يقول:

- انتظرت إنك تجيلي أول ما وصلت بس يظهر انشغلت.

رفعت صوتي بالرد:

- فعلًا. الإجراءات هنا مش سهلة خالص. بس أديني جيت. لازم أشكرك على تعبك ساعة الوفاة.

سمعت صوت تقليب القهوة في الكنكة فنظرت للردهة الصغيرة متعجبًا. كيف يرى في هذه الإضاءة الضعيفة؟

- عمومًا يا أهلًا بيك في أي وقت. هتقعد قد إيه؟

- أسبوعين.

t.me/qurssan

لم يرد وتوقف عن تقليب القهوة.

- في حاجة يا دكتور؟

بدأ يقلّب القهوة من جديد وقال:

- لا مافيش. ناوي تزور والدتك؟

- إن شاء الله بكرة أو بعده بالكتير.

عاد إلى الصالة بصينية حديدية قيّمة وفنجانين نحاس عليهم نقوشات عربية مبهرة. لم أقاوم الرائحة الذكية فمددت يدي للفنجان قبل أن يضع حمله على الطاولة. تمنيت أن تفرض رائحة القهوة سطوتها لكن رائحة البخور اللعينة كانت أقوى.

- رأيي تخليها الجمعة. الدنيا هتبقى فاضية وممكن تبات في الفيوم وترجع السبت.

أخذت رشفة باستمتاع ونظرت إلى وجهه المبتسم دائمًا. وضعت الفنجان ودخلت مباشرة في الموضوع.

- هفكّر. بس ممكن أسألك يا دكتور تشخيصك كان إيه لسبب الوفاة؟

دون أن يتخلّى عن ابتسامته رد قائلًا:

- سكتة قلبية. يعني ما اتعذبتش الحمد لله. واكتشفناها تاني يوم.

t.me/qurssan

- طلعتوا تصريح الدفن بسهولة؟

- طبعًا. أنا كنت معاهم خطوة بخطوة.

أخذت رشفة أخرى من تلك القهوة الرائعة ونظرت بعيدًا متفاديًا تلك الإبتسامة اللعينة.

- هو كان فيه حد بيزور والدتي في أواخر أيامها؟

كأنه كان منتظرًا هذا السؤال فجاءت إجابته في صورة سؤال مضاد:

- هو إنتوا كان ليكو قرايب علاقتكم بيهم قوية؟

بُهِتّ من الرد السريع والعجيب.

- محدّش من النوع اللي ممكن يزورنا. أنا قصدي حد تاني. مش لازم يكون قريبنا. حد شب...

قاطعني الرجل قائلًا:

- حد شبهك؟

ثم ضحك واستطرد:

- أصلي أنا سمعت كلام أستاذ (عبد اللطيف) المحامي ويؤسفني أقولك يا (كريم) يا بني إنها أعراض زهايمر أو بمعني آخر: كِبَر سنّ. غالبًا، وما تضايقش من اللي هقوله ده، غالبًا من كتر ما كانت عايزة تشوفك كان بتهيألها إنك بتزورها. وده من رحمة ربنا.

t.me/qurssan

أخذت نفسًا عميقًا. وقد تضارب لدي الشعور بالألم مما سمعته وشعور آخر... بالحيرة.

لفت انتباهي العلبة الخشبيّة المميّزة للعبة الطاولة الشهيرة. كانت مفتوحة والقطع منتشرة بها كأنها مباراة لم تنتهي.

- حضرتك بتلعب طاولة؟

قلتها وأنا أضع الفنجان على الصينية شاكرًا إياه.

لم يرد على الفور فنظرت إليه لأجده محدقًا في اللعبة. للحظة اختفت ابتسامته وأطلق تنهيدة حارقة طويلة، طويلة للغاية، لكنه استرد ابتسامته بسرعة والتفت إليَّ.

- أيوه.

قالها ومد يده ليأخذ الصينية ثم نهض متجهًا إلى المطبخ.

- في حد بيجي يلعب مع حضرتك؟

اختفي في ظلمات منزله وتناهى إلى سمعي صوت الصينية وهي تُلقي بعنف في الحوض.

- دكتور؟

...

طاخ.

انتفضت من جلستي حين سمعت صوت باب يغلق. تحركت لأنظر في الردهة القصيرة التي تؤدي إلى المطبخ والحمام وغرف النوم.

- دكتور؟؟ ناديت مرة أخرى وللمرة الثانية لم يأتني رد.

دققت النظر في الممر ضعيف الإضاءة فوجدت باب غرفة النوم الرئيسيّة مغلق.

إيه الهبل ده؟ هو سابني ونام ولّا إيه؟

ناديته مرة ثالثة لكنه لم يرد أيضًا.

شيئًا ما أثار قلقي في محيطي. ربما كانت الإضاءة التي تتراقص مع الغبار العالق في الجو أو تلك الرائحة النفّاذة التي أصبحت لا أطيقها. ومن الممكن أن يكون السبب هو غرابة تصرفات هذا الشخص.

لذا ففي تلك اللحظة كنت قد اكتفيت من الدكتور (عادل) واستدرت مغادرًا دون أن أنتظر معرفة ما حدث له.

***

سبب آخر لاختياري الدكتور (عادل) كأول جار أتواصل معه هو إنه يقطن فوق شقة (رضوى). أعلم إنها خاوية تمامًا لكني مُنّيت نفسي بالمرور عليها منذ عودتي. في طريقي للنزول وقفت أمامها وتحسست بابها

t.me/qurssan

وأغمضت عيني. تخيلت وجهها الأبيض الشبيه بوجه زبيدة ثروت وهي تزيح خصلة بنيّة اللون من فوق عينيها الخضراوتين وشعرت...

... ما هذا؟

هناك شيئًا تحت ممسحة القدم.

انحنيت لأرفعها فوجدت مفتاح قديم. شكلها كانت عادة المنطقة كلها، قلت لنفسى. نظرت للباب وخطر لي أن أجربه. لكني سمعت من يتنحنح خلفي.

التفتّ لأجد مجموعة صغيرة مكونة من رجل أربعيني في زي رياضي وامرأة ثلاثينية ومعهم شاب مراهق. المرأة متشحة بالسواد وعلى وجهها آثار بكاء والرجل عابس الوجه. أما الشاب فقد بدا عليه التوتر وشعرت أنه لم يراني من الأساس. عينيه كانت ملتصقة بباب الشقة التي تواجه شقة (رضوى).

وضعت المفتاح في جيبي وألقيت السلام لكني لم أتلق ردًا. فقط نظرات مرتابة من الرجل ونشيج مكتوم من المرأة.

تابع الرجل نزولي السلم حتى اختفيت عن أنظاره ثم أتاني صوت مفتاح تلاه صوت باب الشقة يُفتَح.

بعدها سمعتهم يتنهدون.

t.me/qurssan

تنهيدة طويلة للغاية.

هززت كتفي ومضيت في طريقي نزولًا فيكفيني ما رأيت من عجائب في عمارة الدكتور (عادل).

***

في طريقي عائدًا لمنزلي انتبهت للحركة الزائدة في بيت (محروس). لمحت علب من الورق المقوى وصواني نحاسية وأكواب زجاجية، حتمًا بقايا احتفال اليوم السابق. ثم رأيت (محروس) نفسه يخرج من الجراج وطرف جلبابه بين أسنانه. توقف ليتحدث مع شخص في سيارة فرنسية قديمة وهو يلوّح بعصبية. اقتربت منهما واستطعت التقاط بعض الكلمات استنتجت منها أن هذا الرجل سمسار لديه مستأجر لإحدى الشقق. بدا لي أيضًا أن (محروس) حانق عليه لسبب ما.

لانت ملامح البواب دفعة واحدة حين رآني أشير إليه كي يأتي. قال شيئًا للسمسار وتابعه هو يغادر ثم أقبل عليَّ.

- خير يا أستاااذ؟

- ما بلاش «أستاذ» دي والنبي.

- ليه يا أستاااذ؟ أومال أناديك بإيه؟

- خلاص مش مهم. قولي، هو الدكتور (عادل) عايش لوحده؟ ولا فيه حد بيزوره؟

t.me/qurssan

- هه؟

- هه إيه يا جدع إنت؟ مش إنت الحارس هنا؟ ده إنت كنت هتاكلنا أول مرة لما شفتنا. مش عارف عايش لوحده ولّا لأ؟

لم يأت بأي تعبير يوحي بأنه على استعداد لتشغيل تلك البالونة التي تحتل مكان رأسه.

- طيب ممكن تقولي إيه اللي حصل في المنطقة. مالها بقت فاضية كده؟ فين السكان اللي كانوا عايشين فيها زمان أو حتى ورثتهم؟ وليه مابشفش حد بيجي يزور السكان الجُدُد؟

- هه؟؟؟

لم أعد أرى هذا مسليًا بل بدأت أشعر أنه يصطنع الغباء. لذا كان نفاذ صبري واضحًا في سؤالي الثالث.

- طيب بلاش دي. مين اللي جم دلوقتي في الدور اللي تحت دكتور (عادل)؟ دول ولا معاهم شنط ولا شكلهم جايين من السفر. مش قلتلي إن الشقق دي كلها مش ساكنة؟

- هه؟؟؟؟؟

حسنًا. فليذهبوا جميعًا للجحيم.

t.me/qurssan

4

بعد الغروب كانت الآلام التى هاجمت (نهى) قد توقفت لهذا قررت تمضية بعض الوقت معها بعيدًا عن جنينة (المحروقي) ومن يقطن حولها.

في طريقنا خارج المربع السكني حيث سنستقل سيارة أجرة قابلنا عائلة أخرى من الجيران. تأملت الرجل المسنّ ضئيل الحجم طويل الوجه ولاحظت مشيته العسكرية: ظهره وكتفيه متخشّبان كأنه نسى الشماعة في قميصه الأبيض. تمشي بجواره بحذا سور الحديقة امرأة تضاهيه في السن والطول ترتدي باروكة شعر شقراء.

- أستاذ (سامي) ومدام (ماتيلدا). همست (نهى).

هززت رأسي متفهمًا قبل أن يلفت انتباهي كيس أسود تحمله المرأة

t.me/qurssan

وتضع يدها بداخله كأنها تمسك شيئًا ما.

- مش الموقف ده إتكرر كتير شوية ولا إيه؟

- موقف إيه؟

- ما تشغليش بالك. تعالي نوقف تاكسي.

توقفنا عند مدخل الممر الصغير المؤدي إلى الشارع الرئيسي وانتظرنا مرور سيارة أجرة. أخذنا نراقب الزوجين المسنين باستمتاع وهم يتريضون حول الحديقة. تبادلنا أنا و(نهى) نظرات كأننا نمني أنفسنا بعلاقة مديدة مثل تلك التي نراها أمامنا.

كنت قد استوقفت سيارة أجرة فساعدت (نهى) لتجلس في الخلف وجلست أنا في الأمام. تحركت بنا السيارة وبدأت (نهى) تتحدث عن (سامي) و(ماتيلدا) فنظرت خلفي للمربع لأرى سيارة إسعاف قديمة تدخله.

لا يهم هذا.

فقد كانت (ماتيلدا) هي محط اهتمامي.

بعد أن اختفى الكيس الأسود من يدها.

***

t.me/qurssan

قمنا بزيارة خال (نهى) في الجيزة ثم ذهبنا بعدها لمشاهدة فيلم في السينما. لم يكن هناك داعي للعجلة لذا فقد أخذنا وقتنا في الرجوع للبيت.

كانت الساعة قد تعدت الثالثة فجرًا حين رجعنا قواعدنا سالمين. أنزلنا سائق التاكسي على مدخل الممر الصغير المؤدي للمربع السكني ثم ترجلنا المسافة الصغيرة الباقية وقد نجحت الساعات القليلة السابقة في تبديد الغمامة التي لاحت فوقنا.

لكن ما أن التفتنا للممر الذي يصل المربع بالشارع الرئيسي حتى استقبلنا نهيق مزعج. أمامنا كان أحد باعة الفول الجائلين يعاني كي يجعل حماره يدخل المربع لكن الأخير كان أكثر عنادًا من ذباب المقابر.

راقبت (نهى) المشهد باسمة لكن في حقيقة الأمر المشهد كان بالنسبة لي محيرًا أكثر منه مضحكًا. فالحمار لم يكن عنيدًا، بل أحسست أنه كان خائفًا. رميت (نهى) بنظرة خاطفة وأمسكت يدها لأحثها على الخطى قبل أن تلاحظ ما لاحظته أنا. فالحمار الذي ينهق بتلك القوة له تفسير مخيف عند المصريين.

مررنا بجواره وتبادلنا الضحكات المكتومة ثم دخلنا المربع. تشابكت أيدينا وأعيننا في عناق اشتقنا إليه إلى أن جاء من ينغّص علينا سعادتنا.

عند انحرافنا يسار الحديقة ورأينا منزلنا حتى وجدنا الشرطة مرة أخرى.

تجهّم وجه (نهى) ومسكت بطنها حين وقع نظرها على البوكس

t.me/qurssan

والأنوار الحمراء والزرقاء المميزة التي تتراقص على الأبنية. سألتها وأنا أنحني عليها:

- إيه الوجع رجع تاني؟

- أيوة. هو البوليس جه تاني ليه؟

تركت يدها وقلت:

- إستنّي بس. اطلعي إنتي وأنا هشوف إيه اللي بيحصل وأقولك.

أطاعتني لكن ليس قبل أن ترمقني بنظرة بها قدر لا بأس به من الحنق والألم. حسنًا لقد راح مجهودي سُدى. يا خسارة الخروجة.

التفتّ للتجمهر فوجدت نفس الوجوه التي رأيتها من قبل: عساكر وأمناء شرطة منتشرون حول عمارة العائلة الماليزية.

كدت أن أفقد اهتمامي بالحدث المتكرر وأصعد خلف زوجتي لولا أني لاحظت اختلافًا جوهريًا عن الواقعة السابقة.

مبدئيًا الأب كان في حالة يرثى لها، بعد أن كان في المرة السابقة عدائي ورافض لوجود الشرطة. كان تائهًا وعينيه داميتين، جاحظتين، كأن به مسّ. أما زوجته فكانت حالتها أسوأ. جلست على الرصيف شاردة البصر وقد نحتت دموعها الجافة في وجهها.

اقتربت أكثر فوجدت الضابط الشاب يستند إلى سيارة النجدة وهو

t.me/qurssan

يملي أمين شرطة تفاصيل البلاغ. أمامه يقف (محروس) في جلبابه الداكن وصبره النافذ.

الضابط:

- يعني مش هنفهم إيه اللي بيحصل يا (محروس)؟ ما تقول أي حاجة يا جدع انت.

- والله زي ما سيادتك شايف. ولا حد فاهم منهم حاجة. أنا زيِّي زي جنابك. صحيت على صويت الولية الصينية دهيًا وطلعت لجيت جوزها ماسكها. زي ما تكون عايزة تهرب ولّا حاجة.

- طيب ما تعرفش مين اللي ممكن يكون قَدِّم البلاغ؟ واضح إنه مش الأب.

هز (محروس) رأسه نافيًا.

- أنا بقول الراجل بيعمل فيهم حاجة.

قالها أمين الشرطة البدين وهو يرمق الأب في شك. نظرت مجددًا إلى الرجل الماليزي متعجبًا من هذا التعبير الذي يضعه على وجهه.

قطع تفكيري نداء الضابط:

- لو سمحت!!

ثم التفت للأمين قائلًا:

t.me/qurssan

شوف مين ده.

تنحنحت وتأهبت للإدلاء بدلوي الفارغ في القضية الغامضة. اقترب مني الأمين وفتحت فمي لأجيب سؤاله قبل أن يلقيه لكني فوجئت به يعبر بجواري. نظرت خلفي لأجد رجل أسمر طويل القامة رفيعها في زي طيار يخرج من عمارتي. في يده اليسري هاتف محمول يضعه على أذنه ويجر بيده اليمنى حقيبة متوسطة الحجم.

- ثواني، قال لمحدثه والتفت للأمين، خير؟

- الظابط عايزك. قال الأمين.

ببرود قاتل رد عليه الطيار:

- عندي ميعاد رحلة مش هينفع أتأخر.

ثم فتح مؤخرة سيارته ووضع فيها الحقيبة وذهب ليجلس أمام عجلة القيادة.

التفت الأمين للضابط فسأل الأخير (محروس):

- مين ده؟

(محروس):

- ده كابتن (شريف). طيار جنابك ومن سكان المنطجة من عشر سنين.

t.me/qurssan

- ده ماهتمّش حتى إنه يعرف إيه اللي بيحصل في العمارة اللي جنبه.

تذكرت كلام (نهى)، فعلًا جيران عجب.

- ماعرفش چنابك.

كان رد (محروس) فعلّق الضابط وهو يشير للأمين كي يعود إليه.

- إنت زهّقتني يا (محروس). مافيش حاجة أسألك عليها وكنت عارفها. أو عي تكون بتستهبل؟

- ليه يا بيه بسّ. هستفيد إيه يعني لو داريت على چنابك؟

قالها (محروس) وهم يتابعون الطيار (شريف) يخرج من المربع السكني بسيارته الرياضية.

تنهد الضابط وتقدم للرجل الماليزي:

- for the last time - what happened?

نظر الرجل لزوجته وتبادلا نظرات بائسة ثم قال شيئًا للضابط بلغته العجيبة.

- طيب لِمّ يا بني العساكر واطلعوا على القسم.

هتف بها الضابط بعصبية ثم التفت إليّ. ظل محدقًا بي لوهلة حتى صدى نحيب المرأة في المربع السكني كصافرة إنذار.

t.me/qurssan

نظرنا إليها فوجدناها تحاول عبور الشارع لكن زوجها منعها وهو يبكي.

حاول الضابط التدخل لكن الأب صاح في وجهه مما جعله يتراجع قائلًا:

- طيب طيب. بالراحة عليها بس. إيه الجنان ده؟ ده انتوا مجانين!!

صرخت المرأة بشيء ما وأشارت بيديها لكن زوجها استطاع احتوائها وأدخلها العمارة.

لم تمر ثواني حتى وجدنا أنفسنا أنا والضابط وحدنا تمامًا بعد أن انصرفت الوحدة وذاب (محروس) كعادته.

حدّق فيَّ بقوة وقد كان على حق في رد فعله هذا. فتلك المرة لم أستطع أن أُخفي أني فهمت شيئًا مما يحدث.

ليس هذا فحسب بل إني رأيت شيئًا في هذا المشهد لم يلاحظه أحد.

اقترب مني بعد أن يأس من التوصل لشيء للمرة الثانية وقال:

- مساء الخير. أنا النقيب (أمير).

- مساء النور. وأنا (كريم السيوفي)

- مش عارف ليه حاسس إنك عارف حاجة.

- في عربية إسعاف جت هنا النهاردة.

t.me/qurssan

نظر (أمير)، الضابط، خلفه للجراج الذي ذهب إليه (محروس) وقال:

- إبن الذينَ، ولا قالي حاجة. ولا أي حد من السكان جابلي سيرة.

ثم التفت إليَّ قائلًا:

- بس أنا كان قصدي على أول يوم شفتك فيه. حاسس انك كنت عايز تقول حاجة.

- الصراحة... أيوة.

- طب قولي. فهمت من الراجل الماليزي ده حاجة؟

ترددت للحظة فشجعني قائلًا:

- قول ما تقلقش. كلامك هيبقى ليا أنا بس.

- الحقيقة مش عارف أقولك إيه. يمكن في الأول الأب مكنش عايز البوليس يتدّخل.

- هو ده كان واضح. ودلوقتي؟

ترددت قبل أن أجيب:

- دلوقتي في حاجة مسبباله رعب.

حانت مني نظرة خاطفة للأدغال الصغيرة المسماة «جنينة المحروقي» ثم أضفت:

t.me/qurssan

- مراته كانت بتشاور على الجنينة.

تمتم الضابط وهو يتأمل الحديقة:

- الجنينة؟ الجنينة تاني؟

تعجبت من تعليقه فسألته:

- «الجنينة تاني»؟ تقصد إيه؟

- ما تخدش في بالك. قولي فهمت إيه تاني؟

ترددت مرة أخرى ثم قررت أن أقول له ما استنتجت:

- أول مرة شفتهم الست كانت بتتكلم على حاجة واحدة وكان واضح إنها خايفة عليها.

سألني باهتمام:

- هي إيه الحاجة دي؟

ضيقت عيني وأنا أسأله:

- مش ملاحظ حاجة ناقصة؟

- حاجة إيه؟

- فين بنتهم؟

قطب حاجبيه مفكرًا قبل أن يجيب:

t.me/qurssan

- ممكن فوق.

ابتسمت له وهززت رأسي نفيًا، فأنا لم أظن أن هذا هو التفسير الصحيح. أشاح بنظره إلى شرفة منزلهم وأخذ نفسًا عميقًا.

هو أيضًا يعلم أن ما قاله ليس منطقيًا.

أين ابنتهم؟

t.me/qurssan

t.me/qurssan

5

استيقظت وقت شروق الشمس على صوت تأوه عال. نهضت مسرعًا واتجهت إلى مصدره: الحمّام، وطرقت على الباب المغلق.

- (نهى).. إنت كويسة؟

- أيوه.

جاء ردها عصبيًا ففهمت إنها تعاني من الدوار الذي يجيء لها كل حين وآخر بسبب الحمل. سألتها من خارج الحمام:

- لسه الوجع الغريب ده عندك؟

لم ترد فاستطردت: معلش سلامتك يا حبيبتي.

t.me/qurssan

اتجهت لغرفتي لكني توقفت عندما لفت انتباهي شيئًا ما بصالة المعيشة. اتجهت إلى الأريكة المريحة التي تربض في الشرفة التي صارت غرفة وتأملت ما هو موضوع أمامها.

ولم أصدق ما أراه.

سمعت باب الحمام يفتح فهتفت:

- (نهى)!!

سمعت خطواتها تقترب ثم وقفت بجانبي وقالت:

- إيه ده؟

وقفنا نتأمل كوب شبه فارغ وطبق به بقايا كعك فوق الطاولة.

- هو ده...؟

أمسكت الكوب وتشممته ثم أعلنت:

- ده شاي بلبن.

- هو إنت كان فيك حيل بالليل تشرب حاجة؟

- أشرب إيه بس؟ ده أنا طلعت اتقلبت على السرير. مش إنتي اللي شربتيه؟

- ما إنت عارف إني مابحبش الشاي بلبن.

t.me/qurssan

حككت فروة رأسي وأنا أفكّر في تفسير منطقي لوجود الكوب والطبق.

- غريبة جدًا. وإيه ورق الشجر ده؟

قالتها وهي تشير لبضعة أوراق خضراء أسفل الطاولة القصيرة. قطبت حاجبيّ وانحنيت لالتقاطها.

أضافت وهي تستدير مغادرة بعد أن تذكرت ألمها:

- عمومًا أنا مش قادرة. هرجع السرير.

لم أعترض والتقطت الكوب ثم اعتدلت واقفًا أفكر.

هناك شيء ما غير مريح يحدث.

تأملت أوراق الشجر ونظرت إلى الشجرة العملاقة التي تتوسط الحديقة.

«ممكن» قلتها لنفسي بعد أن رأيت إمكانية تسلل أوراق الشجرة من النافذة.

وضعت الأوراق في الكوب وشردت ببصري من النافذة الكبيرة إلى الأبنية والعمارات بالخارج.

هناك لفت انتباهي شيئًا آخر.

كان هناك من يقف فى إحدى شرفات العمارة المجاورة لعمارة (عادل). دققت النظر فوجدته شاب ذو شعر كثيف لم أحدد ملامحه. استدار الشاب

t.me/qurssan

والتقط مرتبة فراش كانت ملقاة على أرضية الشرفة ثم دخل شقته.

استطعت تمييز غطاء شتوي في الشرفة واستنتجت أنه كان نائمًا فيها.

لم يكن هذا هو الشيء الملفت، بل أقفاص الطيور الخاوية المعلقة في شرفته. تذكرت مشهد الحمار الليلة السابقة ولم يسعني إلا أن أسجل في ذاكرتي تلك الملحوظة العجيبة: إن محيط «جنينة المحروقي» خالي تمامًا من أيّة حيوانات. فلم أرى قطة أو كلبًا منذ وصولي. نظرت للسماء وتعجبت.

حتى الطيور لا تحلق فوق المربع.

حككت فروة رأسي للمرة الثانية لكن ما كان يرقد تحتها لم يساعدني في الوصول لشيء.

حتمًا هناك تفسير منطقي لكل ما يحدث.

بدأ دمّي يفور من الغموض الذي اكتنف إقامتي فأغلقت الستائر بعنف والتقطت الكوب والطبق وقررت الانشغال في شيء مفيد.

***

قضيت ساعات على الحاسوب أرد على الرسائل الإلكترونية وأقوم ببعض المهام التي تتعلق بعملي. رغمًا عني تسللت عينيّ إلى عمارة (رضوى) وتذكرت أمي. تركت الفأرة ورجعت بظهري وذاكرتي للوراء.

t.me/qurssan

...)

- بَطَّل تشاغلها يا ولد.

قالت أمي وهي جالسة تحتسي الشاي بالحليب على ذات الأريكة التي أجلس عليها الآن.

نظرت إلى وجهها الدائري اللحيم وابتسامتها التي لا تفارقه قائلًا:

- أشاغلها إيه بس يا ماما؟ كلمة عجيبة جدًا. أنا مش مركّز معاها أساسًا.

- يا ولد؟ قالت وهي تقرصني. أومّال عينك مش بتنزل من على بلكونتها ليه؟ خلّي بالك دي يتيمة ومامتها كانت صاحبتي.

كان هذا من أكثر الأشياء التي جذبتني إلى (رضوى)، بجانب هيئتها الملائكية: كونها يتيمة الأب والأم. جعلني هذا أشعر ناحيتها بمزيج من عطف الأبوة، رغم سني الصغير، وعشق الصبا. كم من ليالٍ حلمت فيها أني احتويها، ليس احتضان بل احتواء وحنان.

كان آخر ما تذكرته من هذا المشهد هو ابتسامة على وجهٍ دائري يشوش فيها أمان الدنيا.

(...

t.me/qurssan

ليس معنى هذا أني نادم على زواجي من (نهى) فَلَو بحثت في الكوكب كله لن أجد من يناسبني ويحتمل طباعي أكثر منها. لكني فقط كنت أعاني من ظاهرة الاختفاء الفجائي. اختفاء جيراني وأصدقاء طفولتي الذي ظل عددهم يتضاءل في فترة مراهقتي دون إبداء أي أسباب وأدنى محاولة للاتصال بي بعد ذلك. بين ليلة وضحاها يقرر والديهم ترك المنطقة والرحيل. لكن هذا جعل من رحيلي أنا الآخر شيئًا هينًا.

وكأنها تقصد أن تأتي في اللحظات التي أتذكر فيها الماضي، سمعتها مرة أخرى.

. تلك التنهيدة.

انتفضت كالملسوع أنظر حولي، فهي كانت قريبة مني، قريبة للغاية، كأن من أطلقها كان يقف خلفي مباشرة. في نفس اللحظة خرجت (نهى) من شرنقتها وجاء صوتها عاليًا من المطبخ:

- عايزين حاجات من السوبر ماركت يا (كريم)!

بقيت مكاني لوهلة أنظر في أنحاء الشقة لكن في نهاية الأمر استسلمت وأغلقت الحاسوب.

حسنًا. لقد انتهت المهلة التي أتيحت لي للعمل وجاء الوقت للقيام بدور الزوج الهمام.

t.me/qurssan

- عينيًا. اكتبي اللي إنتي عايزاه وهنزل أجيبه.

ارتديت ملابسي على عجاله وذهني ما زال شاردًا فيما سمعته قبلها بلحظات ثم خرجت لأحضر الطلبات. لكن ما أن وطأت قدمي خارج الشقة حتى فوجئت بيا أضيف على الفور لقائمة العجائب.

تسمَّرت فور وقوفي على ممسحة الأحذية الملقاة أمام باب الشقة. حركت قدمي يمينًا ويسارًا حتى أتأكد مما أشعر به.

نعم. إنه صحيح. هناك شيء معدني تحت الممسحة. انحنيت لأرفعها فوجدت ما توقعت رؤيته: مفتاح الشقة القديم.

- (نهى)!!

جاءني صوتها من المطبخ:

- نعم؟

- إنتي حطّيتي المفتاح تاني تحت الممسحة؟

خرجت برأسها من المطبخ وقالت:

- لأ. ليه؟

هنا قررت أن أحتفظ بهذه المعلومة لنفسي فقد أصبح الموضوع مقلق. بكفيها ما بها.

t.me/qurssan

- مافيش. نص ساعة وجيّ.

- طيب ممكن تجيب كمان دوا موضعي للهرش.

- ليه؟

هرشت في ذراعها وقالت:

- شكلي إتظبّت ناموس إمبارح.

هززت رأسي موافقًا ثم أغلقت باب الشقة ونظرت للمفتاح أتأمله. مفتاح معدني فضي ليس به ما يميزه عن المفاتيح المشهورة في فترة التسعينيات.

هززته وطرقت على الحائط به.

هممم. لا شيء. مطت شفتي وأدخلته في سلسلة مفاتيحي ثم نزلت السلم.

***

عند خروجي من البناية قابلني (شريف) الطيار. نفس البذلة الأنيقة والحقيبة غالية الثمن ونفس الهاتف المحمول على نفس الأذن. تجاهلته لأنظر لدكتور (عادل) الذي كان يتريّض حول الحديقة. هززت رأسي متعجبًا حين لمحت الكيس الأسود الذي كان يحمله في يده.

يا ولاد المجانين. قلتها لنفسي متهكمًا.

t.me/qurssan

- أستاذ (كريم)؟

توقفت لألتقط كف يده الممدود إليَّ.

- أيوة. وحضرتك كابتن (شريف). مش كده؟

بنفس الابتسامة الموزونة رد قائلًا:

- مظبوط. حمد لله على السلامة. أنا عارف إنها متأخرة لكن معلش. ظروف شغلي بقى. البقية في حياتك.

- الله يسلمك. وحياتك الباقية.

رددت عليه حامدًا ربي على أول شخص طبيعي أقابله من سكان جنينة (المحروقي).

- عاملين إيه؟

- أ...الحمد لله؟

- متوّرين المنطقة.

- ...

لعنت تسرعي في حكمي عليه. عايز إيه ده؟ ماله ملزّق كده؟ سألت نفسي.

- مبسوطين هنا؟

t.me/qurssan

- الحمد لله. معلش مضطر أستأذن. فرصة سعيدة.

- إستنى بس. أنا عندي لحضرتك هدية.

التفت إليه متساءلًا فوضع حقيبته على مؤخرة سيارته وفتحها. أخذ يبحث فيها عن شيء حتى وجده. أخرج يده من الحقيبة ومدها إليَّ بورقة مطوية. فتحتها وتعجبت مما رأيته.

- إيه دي؟

- دي دعاية عاملاها شركتنا. ليلة في فندق بالعين السخنة.

- ياااه. شكرًا جزيلًا.

قلتها بامتنان حقيقي.

- بس هي الحقيقة لفترة محددة. الجمعة وترجعوا السبت إن شاء الله.

برضه الجمعة والسبت؟ تعجّبت من المصادفة وهززت له رأسي بالرفض.

- هيبقي صعب والله. بس شكرًا.

لكنه استطرد بإلحاح:

- ده عرض خيالي. Full board.

- متشكر، هنفكر. سؤال بس لو تسمح؟

t.me/qurssan

- اتفضل.

- فيه حد تاني ساكن في عمارة دكتور (عادل)؟

- لأ ليه؟

- شفت راجل وست وشاب صغير داخلين شقتهم في الدور اللي تحتيه. تعرفهم؟

- دول بيجوا كل يوم تلات ويمشوا الأربع. سيبك منهم. إيه رأيك في الدعوة؟ لازم تقبلها.

يا إبن الغلسة.

- حاضر.

لك أن تعلم أنه لم يتركني إلا عندما وعدته بقبول هديته.

فعلًا. جيران عجب!!!

***

خرجت من الشارع القصير الضيّق الذي يصل المربع بالشارع الرئيسي ثم استدرت لأتأمله. ظللت أهز رأسي كالمجذوب وأنا أسترجع مواقف جيراني وآخرهم دعوة (شريف) الغريبة.

وضعت يدي في جيبي وكنت على وشك الترجل باتجاه السوبر ماركت

t.me/qurssan

لكني شعرت بشيء حديدي. لم يكن سلسلة مفاتيحي فإني أعرف ملمسها، كان مفتاحًا منفردًا. أخرجته وقلبي يدق بعنف متوقعًا رؤية مفتاح شقتي القديم وقد غادر سلسلة المفاتيح مرة أخرى. لكنه كان مفتاحًا آخر.

مفتاح شقة (رضوى).

سمعت صوت سيارة تخرج من المربع فالتفتّ لأجد (شريف) في سيارته الرياضية يلوّح إليّ.

- يوم الجمعة ما تنساش. أوعى ألاقيك هنا. هتفوتك الحفلة.

بادلته التحية وأنا أسُبُّهُ في قرارة نفسي وأفسحت له الطريق قبل أن أركل سيارته.

ثم حانت مني نظرة للعمارات التي تحيط بجنينة (المحروقي) وتأملت في شرفات الشقق الفارغة.

إيه حكايتكوا؟

وقعت عيني على شقة (رضوى). تذكرت حواري مع أمي وجاءني شعور جارف بالحنين للماضي. فكرة خبيثة دارت في بالي لحظتها.

رميت نظرة خاطفة على شقتي - ربما لشعوري بالذنب من تلك الفكرة- ثم نظرت للحديقة.

اللعنة، ألا يخلو رصيف الحديقة من البشر؟

t.me/qurssan

دومًا هناك شخص أو اثنان يتريّضون أو يتسكّعون حولها لا أدري أيها بالضبط.

هل أمد الخطى آملًا أن أصل شقة (رضوى) قبل أن يراني أحد؟

يا سخيف، خاطبت نفسي.

للأسف وجدت حالتي البدنية أسوأ مما تمنّيت وحالت أرطال الشحم التي زيّنت جانبيَّ وأجزاء متفرقة من جسدي الضخم من سرعة الحركة. لكن رغم ذلك نجحت في التسلل إلى عمارة (رضوى) ولو سألني أحد لسوف أقول إني ذاهب للدكتور (عادل)، هذه كانت خطتي.

توقفت أمام شقة حبيبة طفولتي محاولًا السيطرة على نبضات قلبي.

يا لي من أبله، إنها ليست بالداخل.

أعلم ذلك. لكنها شقة (رضوى) يا سخيف.

دار هذا الحوار بداخلي وأن أتأمل الباب الخشبي القديم وتحسست مقبضه. لطالما تخيلت نفسي واقف هنا وأمامي تقف (رضوى) في تنورتها الزرقاء الرقيقة. رسمت تفاصيل بيتها في مخيلتي غرفة غرفة ولكن خيالي كان يتجمّد عند غرفة بعينها؛ غرفة (رضوى) نفسها. والآن حانت لي الفرصة لأحقق أحد أكبر أحلام طفولتي. لعلّي، بضربة من الحظ، أجد ما يساعدني أن أفهم سبب رحيلها المفاجئ.

t.me/qurssan

لم أكن أعرف إن كان زائري أمس لا زالوا بالشقة المجاورة لشقتها أم لا فاقتربت من بابها وأنصتّ. لم أسمع شيئًا مميزًا وهممت بالرجوع لشقة (رضوى) لكن صوت باب يغلق بعنف داخل الشقة المقابلة لها جعلني أجفل. عدت لأقف أمامها وأمعنت في الإنصات.

هناك من يتكلم بالداخل. حسنًا هذا طبيعي. لكنى لا أسمع ردًا. والنبرة... كانت ثابتة ورتيبة كأن... كأن من بالداخل يخاطب نفسه.

اكتفيت بهذا فقد عرفت ما كنت أبغي معرفته. إنهم ما زالوا بالداخل. تراجعت مبتعدًا ببطء وذهبت لشقة (رضوى). أخرجت المفتاح وفتحت الباب في هدوء كي لا أُنبِّه من في الشقة المقابلة.

دفعت الباب ببطء ودقات قلبي في ازدياد مطَّرِد. استقبلتني لوحة كئيبة للغاية لم أكن أتوقعها. ضوء النهار الذي إنسلّ إلى الشقة عبر فتحات الشيش القديم ومن خلف الستائر المتربة أضاف وهجًا مُقبِض للمكان. توقعت أيضًا أن يكون الأثاث مغطّي بالملاءات البيضاء استعدادًا لتركهم تلك الفترة الطويلة. لكن لم أجده كذلك.

كان حال الشقة مزريًا. قطع الأثاث في أوضاع عشوائية والأتربة وخيوط العنكبوت وأوراق الشجر في كل مكان. هناك أيضًا كرسي ملقي على ظهره وبعض الملابس المهترئة تفترش الممر الصغير المؤدي إلى الغرف الداخلية. رائحة التراب وانعدام التهوية كادا أن يسحقا جيوبي الأنفية وللحظة ترددت بين البقاء والعودة من حيث أتيت.

t.me/qurssan

ثم لمحت غرفتها.

اتجهت إليها مسلوب الإرادة وقد عادت إليَّ حالة الشجن الطفولي. علا صوت أنفاسي وقد انسدت جيوبي الأنفية تمامًا حتى أصبح أعلى من صوت التراب المتراكم وهو ينسحق أسفل قدمي الكبيرتين.

لكني نسيت كل شيء حين وقفت أمام غرفة (رضوى). على الباب وجدت جدول طويل مقسم إلى عدد شهور السنة ثم إلى أسابيع ثم إلى أيام الأسبوع. أعلى الورقة مكتوب:

«جدول دوا تيتة»

ابتسمت في تأثُّر وتذكرت جدّة (رضوى) التي أصيبت بمرض خطير في آخر أيامها. وتذكرت كيف كانت الأخيرة ترعاها بمساعدة خالتها حتى توفيت الجدة. لابد أن هذا هو الجدول التي كانت جدتها تسجل فيه دواءها اليومي.

تجولت ببصري في محتويات الغرفة. هذا هو فراشها - لكنه غير معدّ. وهذا هو دولابها المفتوح على مصراعيه وملابسها مبعثرة بداخله. هذا هو مكتبها الذي يستلقى أمامه كرسي منقلب على ظهره.

ثم جاءنى هاجس، هاجس في صورة سؤال:

لماذا تبدو الشقة وكأن قاطنيها، التي هي (رضوى) وخالتها، قد تركوا كل شيء وهربوا؟

t.me/qurssan

التفتّ إلى الجدول بجانبي ووجدت أن جدة (رضوى) قد سجلت كل يوم أخذت فيه الدواء.

حتى وصلت لتاريخ اليوم التي توفت فيه وقرأت ما هو مكتوب بخط منمق يشبه خط الفتيات:

«توفت جدتي - الله يرحمك يا تيتة»

كل ذلك طبيعي لكن ما هذه الشخبطة التي بدأت تظهر في الجدول بعد أسبوع من وفاة جدتها؟

كششششت.

وقف شعر جسمي كله حين سمعت هذا الصوت. درت ثلاثمائة وستون درجة باحثًا عن مصدره دون أن يحالفني الحظ.

ما كان هذا؟ بدا لي كأن شيئًا يحتك بالأرض الخشبية.

فجأة انقلبت حالة الشجن وبكاء الأطلال إلى إثارة وتوتر لم أكن بحاجة إليهما. يكفيني الغموض الذي يحيط بي من لحظة وصولي.

لكن ماذا كنت أتوقع؟

هل كان يفقد سكان المنطقة جميعًا تعلقهم للمكان بين ليلة وضحاها؟ هناك سر وراء هروبهم المفاجئ.

والأسرار دائمًا يكون لديها ما يحميها.

t.me/qurssan

ما الذي أثرثر به؟

لقد كان هذا الصوت معي في الشقة.

- مين هنا؟؟

هتفت بصوت حاولت أن يخرج أجش مخيفًا لكنه خرج رفيعًا مضحكًا.

لم يأتني رد فحولت نظري مرة أخرى لباب غرفة (رضوى). تأملت الخطوط العشوائية التي بدت لي مكتوبة بقلم شمع أسود. بدأت في المربع الذي يحدد اليوم السابع بعد وفاة جدتها ووجدت الخطوط تمتد إلى نهاية الجدول كأن هناك من استمر فى التدوين بعد وفاة الجدة. لكنها لم تنتهي هناك. امتدت الطلاسم، التي هي أشبه بمحاولات فاشلة لكتابة شيء ما، إلى الباب نفسه.

ثم إلى الحائط.

ثم... تتبعت الشخبطة، التي أصبحت أقرب لنقوش بلا معنى، إلى الغرفة الرئيسيّة... غرفة الجدة. بابها مفتوح ومحتواها مظلم.

يا إلهي. ما هذا الظلام؟

والسؤال الأهم: كيف هذا الظلام؟

فنحن في منتصف النهار.

كششششت.

t.me/qurssan

انتفضت حين سمعت صوت الاحتكاك مرة أخرى وتراجعت بضعة خطوات باتجاه باب الشقة. تأكدت من مصدر الصوت: تلك الغرفة التي تمتص الضوء أمامي. فكرت في السؤال عمن داخل الغرفة لكني آثرت الصمت. ففي حقيقة الأمر لم أكن أريد أن أعرف.

توقفت لأنصت.

لم أسمع صوت الاحتكاك لكني سمعت شيء آخر.

شيء كان يتدحرج خارجًا من الغرفة. وحين رأيته اتجهت تجاه باب الشقة وركضت خارجًا.

ملعون أبو الذكريات.

لقد كان هذا قلم شمع أسود.

t.me/qurssan

6

أمضيت ما يقرب من الساعتين في رحلتي إلى السوبر ماركت ذهابًا وعودة استغرقتهم في حالة شرود تام. حاولت الوصول لتحليل منطقي لما مررت به لتوي لكنني لم أصل إلى شيء. لا إلى مصدر الصوت الذي سمعته في شقة (رضوى) ولا إلى سبب رحيلها المفاجئ.

حين تذكرت قلم الشمع الأسود سرت قشعريرة باردة في جسدي. لكنني كنت راضٍ عن تصرفي في مفتاح شقة رضوى عندما أعدته مكانه أسفل الممسحة.

شعور غير مريح اجتاحني أن هناك ما يحدث حولي ولا أراه. كأنني ألعب دور صغير في مسرحية ما اشتركت فيها دون علمي.

هناك سر رهيب وراء تلك الشقق الخاوية.

t.me/qurssan

وقبل أن تسأل فليس لدي أي تفسير غير أن القلم قد وقع من فوق شيء ما وتدحرج خارج الغرفة.

عند وصولي إلى المربع كانت الشمس قد قاربت على المغيب. وجدت سيارة يابانية غريبة عن المنطقة تقف أمام الحديقة، بالتحديد أمام بوابة حديدية صدئة لاحظتها للمرة الأولى بين الأفرع والحشائش.

اقتربت منها فوجدت النقيب (أمير) منحني على السور يتفحص بوابته.

- سلام عليكم.

قلتها بترحاب لكنه انتفض فزعًا والتفت إليَّ بغضب. كظم غيظه وردّ من بين أسنانه:

- وعليكم السلام.

- معلش أنا آسف.

اقتربت منه ووضعت أكياس البقالة على الأرض وسألته:

- هو إنتوا شاكّين في الجنينة دي؟

تنهد والتفت إلى الحديقة التي لا يكاد يرى محتواها قائلًا:

- مش إحنا، «أنا». طول عمري شاكك إن فيها حاجة. ما إنت عارف. إنت من سكان المنطقة.

- الحقيقة... هتصدقني لو قلتلك إني مش فاكر حاجة خالص عن الجنينة دي. هي كانت موجودة وأنا هنا؟

- نعم؟ ده إنت الوحيد تقريبًا اللي من السكان الأصليين للمنطقة. الباقي كله مأجّرين. وأنا فاكرك على فكرة. إنت كنت من الجيل اللي أكبر مننا.

- فعلًا. كل السكان دلوقتي مكانوش موجودين قبل ما أسافر ما عدا مدام (سوسن) اللي من أسوان. بس زي ما قلتلك، أنا مش فاكر حاجة مميزة عن الجنينة دي خالص. وأنا كمان فاكرك برضه.

قلتها مجاملًا له لأني لا أذكره على الإطلاق. أكاد أجزم أني لم أر هذا الوجه المربع القمحي ولا هذه الملامح الدقيقة من قبل. يبدو إنه شعر بذلك فلوى شفتيه وسألني:

- طب إزّاي مش فاكر الحكايات؟ حكاية (المحروقي)، مش فاكرها؟

اعتصرت ذاكرتي وصمت (أمير) آملًا أن أتذكر شيئًا.

(المحروقي)... هناك حتمًا صدى مميز لهذا الاسم، بجانب كونه اسم تلك الحديقة العتيقة، لكني لا أستطيع النيل من تلك الذكرى. تأففت حنقًا وأنا أطاردها وهي مستمرة في الهروب المستفز. حتى يأس (أمير) مني وتنهد قائلًا:

- مش فاهم إزّاي مش فاكر الصعيدي العملاق اللي كان بيحرس الموقع من وقت الإنشاء. واللي بعد كده شركة «العمدان» اللي عملت

t.me/qurssan

المشروع سابتله الأوضة اللي في الجنينة يقعد فيها. مش فاكره؟ ده كان راجل مشهور جدًا في المنطقة دي.

هززت رأسي بالنفي.

- طب مش فاكر القصص بتاعة الكلاب والقطط اللي كانت بتختفي ويقولوا إنه كان بياخدهم في الجنينة ويموتهم.

هززت رأسي بالنفي مرة أخرى لكن بتعبير ممتعض. نفخ في الهواء بإحباط والتفت للحديقة قائلًا:

- خلاص مش مهم. المهم دلوقتي إن اللي حصل إمبارح ده رجّعلي شكّي تاني. فكرني بحوادث الاختفاء اللي كانت بتحصل زمان.

- حوادث؟

التفت إليّ كأنه يأخذ قرار ما ثم بدأ يروي لي سبب اهتمامه بما يحدث حول جنينة (المحروقي):

قبل هذه الأحداث بعشر سنوات رجّ الوسط الأمني حدث جلل وهو اختفاء لواء شرطة بالخدمة. بين ليلة وضحاها اختفى الرجل بعد عودته من العمل ولم يظهر بعدها.

الذي يهمنا في تلك الواقعة - حسب رواية النقيب (أمير) - هو الآتي:

1- أن اللواء كان يقطن في مربع 10، أي حول جنينة (المحروقي).

t.me/qurssan

2- أن سائقه وطاقم حراسته الخاصة رأوه يدخل العمارة. انتظر قائد الحرس كي يتصل به على اللاسلكي ويأمره بالانصراف. وهذا لم يحدث.

أي أن اللواء اختفى في العمارة.

3- أن زوجته وأبناءه لم يُصعّدوا الأمر كما هو متوقع. بل كانوا في منتهى السلبية مع الموقف لدرجة أنهم ظلوا في دائرة الشكوك بعد تلك الحادثة. شهور طويلة من المتابعة اللصيقة والمراقبة الدقيقة لهم لم تسفر عن شيء.

4- أثبتت التحريات أن سيادة اللواء كان مصابًا بمرض مميت لذلك كان احتمال الانتحار واردًا.

5- لم تكن الحادثة الأولى... ولا الأخيرة.

في تلك الأيام كان النقيب (أمير) ما زال طالبًا في كلية الشرطة لكنه كان من سكان الحيّ الذي يحيط بالمربع. منذ نعومة أظافره وهو يسمع عن هذا المربع السكني وتلك الحديقة روايات عجيبة نسجها خيال المصريين الخصب وتضاعفت مع مرور الأيام.

فقد اختفى ما يقرب من عشرون شخصًا من سكان المربع 10 تتراوح أعمارهم من ست إلى ستون عامًا. وهذا على مدار ربع قرن.

لذلك كان أول شيء فعله (أمير) حين التحق بالقسم الذي تتبعه جنينة (المحروقي) هو متابعة أية بلاغات تأتي من حولها بمنتهى الاهتمام.

t.me/qurssan

لكن طيلة السنوات الخمس الذي قضاهم في هذا القسم لم يأتِ بلاغ واحد من مربع (المحروقي). لدرجة إنه كان أحيانًا يصطحب الدورية الراكبة ويذهب في جولة تفقّديّة في المنطقة يدور خلالها حول الحديقة الصغيرة كثيفة النباتات لكنه لا يجد ما يرضي فضوله.

كل ما لاحظه هو الهدوء... الهدوء الرهيب.

كأن سكان المنطقة، الذي تضاءل عددهم بشكل ملحوظ، يحبسون أنفاسهم حتى يمر.

إلى أن جاء اليوم الذي وصلت فيه القاهرة وهو نفس اليوم الذي تلقى القسم بلاغ من أحد ساكني المربع 10، الذي رفض الافصاح عن هويته، بمشكلة بين أفراد العائلة الماليزية. ما أن علم النقيب (أمير) بهذا البلاغ حتى هبّ لتلبيته على الفور.

ساعدني ما رواه لي أن أتذكر القليل جدًّا عن حوادث الاختفاء تلك. لكن ما كان يهمني هو «الظهور». تذكرت حديث (عبد اللطيف) المحامي عن «ظهوري» المتكرر في بيت أمي برغم تواجدي على بعد آلاف الأميال. لكني لن أذكر (لأمير) هذا بالطبع فهو، كما يبدو لي، به ما يكفيه. بالإضافة إلى أن روايتي تلك... حسنًا، أقرب للخبال.

استطرد هو قائلًا:

- إنت عارف إني تقريبًا ما شفتش ولا زيارة واحدة لحد من سكان

t.me/qurssan

المربع؟ زي ما يكون معندهمش قرايب ولا معارف غير اللي حوالين الجنينة دي. بس ساعات في ناس بتيجي للشقق الفاضية تبات فيها ليلة وتمشي تاني يوم. أهل المنطقة دي زي ما يكونوا وقعوا من ذاكرة الدنيا.

رغمًا عنى عاد إليَّ شعوري بالندم على معاملتي لأمي فأغمضت عيني محاولًا السيطرة على مشاعري فقال:

- صحيح البقاء لله. أنا لسه عارف من (محروس).

- الدوام لله. أشكرك.

شعرت أنه أراد أن يتطرق لهذا الموضوع لكنه اختار أن يرجىء الحديث عنه إلى لاحقًا والتفت لينظر إلى الحديقة. تأملتها معه وأمسكت البوابة ثم رجرجتها بعنف حتى أتأكد من إستحالة فتحها بالقوة.

تركني ودار حول الحديقة وتبعته حتى توقفنا عند فتحة صغيرة في السور. سجد (أمير) حتى أصبح وجهه على مقربة من الأرض ونظر عبر الفتحة.

- شايف حاجة؟

لم يرد على الفور بل استلقى كليًا على الرصيف المتسخ ومد يده عبر الفتحة.

- لأ طبعًا. بس فيه...

أخرج يده وجلس القرفصاء يتأمل ما أخرجه.

t.me/qurssan

- دي بطاطس مسلوقة؟

نظر إليَّ وابتسم قائلًا:

- أيوه. وطازة. بقالها يوم بالكتير.

- ممكن حد رماها.

- ممكن. استنى هطلّع الكيس اللى كانت فيه.

سجد مرة أخرى ومدّ يده ليُخرج كيس أسود.

- أنا شفت الكيس ده قبل كده.

نظر إليَّ وقطب حاجبيه الرفيعين مستنكرًا:

- ده كيس زبالة عادي خالص على فكرة. ممكن يكون طار ووقع في الجنينة.

تنحنحت محرجًا من منطقه القوي.

- قصدى إن فيه حد حط الكيس ده إمبارح في الجنينة وأنا عارف ممكن يكون مين.

- مين؟

سألني وهب واقفًا ليعدل من هندامه.

- أستاذ (سامي) ومدام (ماتيلدا). كانوا ماسكين الكيس ده.

ثم تذكرت أنهم ليسوا وحدهم فاستطردت قائلًا:

t.me/qurssan

- بس (محروس) كمان كان معاه واحد. وكمان...

قاطعني:

- ما هو زى ما قلتلك. الكيس ده فى كل بيت فى مصر. عمومًا دي حاجة مش مهمة. أنا بدوّر على حاجة تفهمنا إيه اللي بيحصل.

قال جملته تلك وتقدم أمامي لنكمل جولتنا. كان الليل قد أتي فتوقف ووضع يده في وسطه قائلًا:

- كده مش هنشوف حاجة. هاجي بكرة. وأرجوك تفتّح عينك كويس. ممكن يكون ف...

صمت فجأة وتقدم ناحية السور. دقق النظر في الذي لفت انتباهه وفعلت نفس الشيء ثم سمعته يسأل:

- إيه دي؟ الحاجة الصفرا دي.

- دي شكلها لعبة. كان ردي.

- لعبة أطفال؟

- أيوة. عروسة لعبة.

- مش البنت اللي مع العيلة بتاعة ماليزيا دي كان معاها عروسة بنفس اللون؟

سألني فعصرت ذاكرتي مفكرًا. لكن الظلام الذي بدأ يزحف على

t.me/qurssan

المنطقة منعني من رؤية تفاصيل ما يشير إليه. أجبته:

- ممكن. هو أنت سألتهم على البنت؟

- سألتهم. قالولي عند جدتها وهتيجي يوم السبت.

- مابحبّش الصدف.

- ولا أنا.

قال جملته الأخيرة واستدار لينصرف.

- عمومًا أشكرك على اهتمامك وأرجو إنك تخلّي بالك. المنطقة دي طول عمرها قلق. أكيد أنت عارف ما أنت ساكن فيها من زمان.

اصطحبته لسيارته وقلت:

- فاكر طبعًا شوية من القصص اللي قلتلي عليها دي. بس دي كانت لعب عيال. ولّا إيه؟

- ما أنا كنت فاكر زيّك كده. يمكن يكون لعب العيال ده هو السبب إني دخلت كلية الشرطة. يؤسفني أقولك إن حوادث الاختفاء دي حقيقية.

- سمعت كده برضه. بس دي حوادث فردية.

فتح باب سيارته وابتسم لتظهر نغّازتيه ثم أعطاني ورقة وهو يرد:

- فردية؟ عشرين حالة اختفاء فردية؟ عمومًا خلّي بالك. دي نمرة تليفوني. كلمني لو شفت حاجة. سلامو عليكو.

t.me/qurssan

- وعليكم السلام.

ردت التحية ثم انحنيت لالتقط أكياس البقالة وراقبته يرحل. استدرت لأنظر إلى الحديقة لكن شيئًا ما لفت انتباهي في شرفة بالطابق الثالث في عمارة رقم 6.

هناك لمحت مدام (ماتيلدا) وزوجها أستاذ (سامي) يمسك بها بقوة ويحاول جرّها إلى الداخل بينما هي شاخصة البصر للحديقة. أخذت تقاومه وتضرب صدرها بكفها بحرقة ولوعة وعلى وجهها تعبير باكي متحَجِّر. لكنه في النهاية نجح في احتضانها ودخلا سويًا.

توقفت وأطلت النظر إلى شقتهما.

لا أدري لماذا شعرت في تلك اللحظة أن أقوى كلمة تدور في فلك جنينة (المحروقي) هي «الحُزن».

t.me/qurssan

t.me/qurssan

7

توقفت أمام شقتي وتحسست بقدمي من فوق الممسحة لأتأكد من عدم وجود أي شيء تحتها. بحثت في جيبي على سلسلة المفاتيح الخاصة بي وأخرجتها لأتأكد من وجود المفتاحين القديم والجديد بها. لقد قررت إبقاء المفتاح القديم معي طيلة الوقت طالما لديه تلك العادة المفزعة للعودة لموقعه تحت الممسحة.

صدت أصوات ضحكات نسائية من الداخل ففتحت الباب لأجد صديقات (نهى) من الجامعة ينتشرون في أنحاء البيت. تذكرت الوجوه التي رأيتها ليلة عرسنا لكن ليس الأسماء.

خيّم السكون على المكان والتفتوا إليَّ. خرجت (نهى) من المطبخ وهي

t.me/qurssan

في فستان فضفاض أنيق وقالت حين وقع بصرها عليَّ:

- حمد لله على السلامة يا أبو (دينا).

صدت الضحكات مرة أخرى وتقدمت سيدة ممتلئة قصيرة القامة قائلة:

- أزيك يا (كريم)؟ أنا (سمر). فاكرني؟

تأملت لثواني في الوجه المستطيل الممتلئ والأنف الكبير قبل أن أقول:

- الحمد لله. آه طبعًا. ازيك يا (سمر)؟

ربنا يسامحني بقى على الكذبة دي كمان.

- الحمد لله. إيه رأيك في اسم (دينا) ده؟ أنا اللي اخترته لبنتك لما تيجي بالسلامة إن شاء الله.

- حلو.

قلتها باقتضاب واستأذنت كي أدخل بحملي إلى المطبخ. أشرت إلى (نهى) كي تلحق بي وسألتها فور دخولها:

- إيه اللي بيحصل؟

- عملولي مفاجأة يا سيدي. جايين يخدوني نخرج نتعشى وندخل سينما.

t.me/qurssan

مسحت على رأسها وقلت بحنان:

- فكرة جميلة. بس إنت قادرة؟ أخبار الوجع إيه؟

- المسكنات عاملة شغلها، ما تقلقش.

- طيب أنا هستغل الوقت وأخلّص شوية شغل. فُكّي بقي شوية وانبسطي.

لم أدري كم مر من الوقت وأنا أعمل على الحاسوب لكن يبدو أني غفوت بجانبه. أيقظني صوت نقر خافت ففتحت عيني وفركتها ثم نظرت عبر النافذة الكبيرة لتقع عيني على الحديقة الغامضة.

امتعضت من المنظر الكئيب ثم بحثت عن هاتفي كي أعرف الوقت فوجدته على الأرض. انحنيت لالتقطه لكني فوجئت بأوراق الشجر التي انتشرت حولي. أمسكت إحداها وتأملتها متعجبًا فالنافذة مغلقة والبيت كان نظيفًا قبل أن تتركه زوجتي. وضعتها على المنضدة القصيرة والتقطت هاتفي وبدأت إجراءات النهوض من على الأريكة المريحة. لكن في تلك اللحظة هرب دمي مني حين سمعت صوت النقر مرة أخرى.

تلفّتّ حولي محاولًا معرفة مصدره ثم سكنت في مكاني دون حراك.

تكتكتك.

هذا هو الصوت مجددًا.

t.me/qurssan

تمكنت من تحديد اتجاهه هذه المرة.

إنه يأتي من أمامي... من...

تكتكتك.

ثم رأيته. ذلك الفرع الطويل الممتد من الشجرة العملاقة التي تظلل الحديقة. إنه يصل إلى النافذة ويحتك بالزجاج.

بعد سباب انقلب إلى سخرية من خوفي أزحت الغطاء ونهضت متجهًا إلى الحمام. بحثت عن (نهى) فلم أجدها.

عجبًا.. كيف جاء الغطاء فوقي إذًا؟

قررت أن آخذ حمامًا ساخنًا قبل أن تستكمل دائرة الألغاز المحيطة بي مسعاها لإفقادي صوابي.

في منتصف الحمام الساخن سمعت صوتًا مألوفًا. أغلقت الصنبور وأنصتّ بإمعان.

تكتكتك.

إنه نفس صوت النقر لكنه بالتأكيد ليس على النافذة التي تطل على الحديقة فهي بعيدة.

تكتكتك.

t.me/qurssan

لهولي استنتجت إنه على باب الحمام.

- (نهى)!

ناديت على زوجتي لكني لم أتلق رد. بهدوء خرجت من البانيو وأخذت المنشفة في طريقي إلى الباب. وضعت أذني عليه وأنصت.

تكتكتك.

بدا لي هذه المرة أقرب لنقر أظافر. ابتلعت ريقي وجففت نفسي استعدادًا لفتح الباب.

مددت يدي للمقبض وأدرته فوجدته لا يستجيب. أحسست بشيء ما على الجهة الأخرى يقاومني كأن هناك من يمسكه.

- (نهى)؟؟ مين اللي بره؟؟

هتفت مرة أخرى لكن نفس النتيجة... لا أحد يرد.

أمسكت المقبض بكلتا يدي وحاولت فتحه بكل قوتي وقد بدأ القلق يتملكني. ثم حدث ما كنت أخشاه: انخلع المقبض في يدي. بعدها قمت بمحاولات عديدة لفتح الباب لكنها فشلت جميعًا. ارتديت ملابسي وجلست على المرحاض أنتظر الفرج لاعنًا قراري بترك محمولي في الخارج.

استمرت حبستي قرابة الساعة سمعت فيها أشياء لم أستطع تفسيرها لدرجة إني حمدت ربي إنني محبوس في الحمام. بالإضافة إلى النقر الخفيف

t.me/qurssan

على الباب. كان هناك من يتحرك في الشقة، كدت أجزم بهذا. يأتي الشقة من أطرافها ويتجوَّل فيها بحريّة تامة ثم يقف عند باب الحمام لينقر عليه.

توقفت عن سؤاله عن هويته لكني تجرأت في إحدى المرات التي اقتربت فيها الحركة من الحمام ونهضت لأنظر من الزجاج الأغبش الضيق أعلى الباب.

ويا ليتني لم أفعل. فقد كان من الممكن تجاهل الموضوع وإقناع نفسي إنها تهيؤات.

لكني رأيت الخيال. هناك شيء ما يتحرك في الممر الذي يصل الصالة بالغرف. شيءٌ أقرب لثعبان عملاق يتلوى في الهواء مثل السوط.

ما أن رأيته حتى توقف.

ثم اقترب من الحمام بحركته الثعبانية.

عندها انبطحت أرضًا وزحفت حتى وصلت للمغطس لأجلس عليه ارتجف.

سمعت تنهيدة طويلة، طويلة للغاية، لكن بصوت خشن مبحوح. بعدها فُتِحَ باب الشقة وتناهى إلى سمعي أصوات ضحكات نسائية.

انتفضت واقفًا وهتفت:

- (نهى)!!!

t.me/qurssan

توقفت الضحكات وسمعت (نهى) تقول:

- (كريم)؟ إنت فين؟

- في الحمام. الأوكرة انكسرت.

فتحت زوجتي الباب فخرجت ووقفت أجول ببصري في أنحاء الشقة. ثم وقعت عيني على (سمر).

- أ.. أهلًا. إزيّك يا (ندى)؟ إنبسطّوا؟

- (سمر) يا (كريم). اسمي (سمر). قالت ضاحكة.

- مالك يا (كريم)؟ سألت (نهى) باستغراب. لونك مخطوف ليه؟

- ماليش. في حاجة بدوّر عليها.

قلتها وأنا أتحرك في البيت باحثًا في الأركان والجوانب وهن يراقبنني كأني مجذوب.

ثم تسمرت أمام الحمام.

انحنيت لالتقط ورقة شجر من على الأرض ثم نظرت حولي باحثًا عن مصدر تلك الأوراق.

لم يهتدِ تفكيري إلى شيء فاتجهت إلى غرفة النوم

[illegible]

t.me/qurssan

في ورقة الشجر. نظرت أنا من النافذة، للشجرة العملاقة التي تظلل الحديقة، وفكرت بعمق دون أن ألحظ وجودها. ثم انتفضت حين صاحت:

- ممكن أعرف إيه اللي إنت عملته ده؟ كنت عامل زي المجانين.

- معلش. كان بقالي محبوس فترة.

كان ردي وقد آثرت عدم البوح بتفاصيل ما مرّيت به.

هزّت رأسها وبدأت في خلع ملابسها وما أن فعلت حتى هتفت:

- إستني إيه ده؟

نظرت إلى ما أشير إليه وقالت:

- آه مش عارفة. فاكر الهرش اللي كان مجنّني إمبارح؟

- من إيه ده؟

سألتها وأنا أتحسس الإحمرار المنتشر على ذراعها.

- لقيته كده بعد الضهر. يظهر حساسية. وزادت قوي وأنا بره مع أصحابي.

- بس ده فيه حاجة زي ما يكون شوك. إستني.

أمسكت ذراعها برفق وانتزعت ثلاثة شوكات كبار الحجم. دقّقت النظر فيهم وقلت:

t.me/qurssan

- مش فاكرة لو كنتي احتكّيتي بحاجة خشب؟ دولاب ولّا حاجة.

قالت وهي تسحب ذراعها:

- مش مشكلة. مش طلّعتهم؟ ميرسي يا حبيبي.

راقبتها وهي تخرج من الغرفة ثم انتبهت لشيء ما في الحديقة: للحظة قصيرة سطع وهج خافت من منتصفها ثم اختفى.

مش مشكلة لو في الظروف الطبيعية يا (نهى)، إنما مش مع اللي بيحصل ده.

***

مكثت في فراشي أتنقَّل على جانبيَّ لساعات تصارعني الهواجس المقيتة والتساؤلات المؤرقة.

ما الذي كان يتحرك في الشقة وأنا في الحمام؟

رغم ما يحيط بي من أحداث غريبة أحيانًا، ومخيفة أحيانًا أخرى، لكن موضوع أمي هو مازال يسيطر على تفكيري. فقبل كل شيء هي سبب عودتي لمصر في الأساس.

«ربنا يسامحك يا (عبد اللطيف)، دي حاجة تقولها لي يا محامي الغبرة؟ مين اللي كان بيزور أمي؟ مش كفاية شعور الندم الفظيع اللي عندي إني ماجتش أزورها طول المدة دي؟»

t.me/qurssan

لا أدري كيف اقتنعت بكلام أمي وطاوعتها. كيف لم أحسم أمري وأنزل مصر لزيارتها رغمًا عنها؟

لكن كيف كنت سأفعل ذلك وهي تختلق عذرًا مختلفًا في كل مرة أبلغها بميعاد قدومي؟ تارة تذهب إلى ابنة عمتها في الزقازيق، تلك التي أرسلتني إليها قبلها بسنوات لأبقى عندها لفترات متقطعة. وتارة تذهب مع لجنة الرواد في النادي إلى العين السخنة أو الأسكندرية أو شيء من هذا القبيل.

كيف صدقتها؟ هل كنت أقنع نفسي من أجل راحة بالي؟

إن الندم يقتلني.

استدرت على جانبي الأيسر لأنظر من النافذة عبر المربع الفسيح فرأيت الدكتور (عادل) يتحرك في صالة منزله في حماس لا يتماشى مع الوقت المتأخر. كان يحمل في يده نفس الصينية الحديدية ونفس الفناجين النحاسية ثم وضعها بجوار لعبة «الطاولة».

هناك من يجلس أمامه لكني لا أراه. توجه (عادل) بعد أن وضع الصينية ليغلق الستارة.

ولم يكن الوحيد الذي فعل هذا.

بل كل قاطني المربع.

كأن هناك اتفاق مسبق أن يغلقوا جميعًا ستائر نوافذهم في - نظرت للساعة - في تمام الحادية عشر.

تركت (عادل) في حاله مع ضيفه المجهول وتجاهلت أيضًا ما فعله الجيران لتوهم واستلقيت على ظهري مجددًا ثم بدأت أتأمل في سقف الغرفة. كانت ظلال الأفرع بالخارج تتحرك عليه مكوِّنه أشكال مخيفة. تابعت حركة الظلال الإنسيابية إلى أن هربت الأشكال بغتة حين اهتزّ هاتفي وأضاء عتمة غرفة نومي معلنًا استقبال رسالة.

مددت يدي للهاتف وارتديت نظارتي الطبية لأقرأها. إنها من (عبد اللطيف). لقد شعر بي اللعين وحتمًا هذه الرسالة بها ما سيجعل النوم يهرب مني تمامًا.

كانت رسالة صوتية.

بحثت حولي عن سماعة الأذن كي لا أوقظ (نهى) من نومها. لكن يبدو إنها قد شعرت بي فنهضت وتركت الفراش.

- رايحة فين؟ في حاجة؟

لم ترد. حتمًا ذاهبة للحمام.

استغليت الفرصة لأسمع رسالة المحامي الصوتية المسجلة.

«صباح الخير يا أستاذ (عبد النبي)!

شعرت بالدموع تتجمع في مقلتيَّ وأنا استمع لصوت أمي الأقرب إلى قلبي. كانت دومًا تخطئ في اسم (عبد اللطيف) المحامي.

«كنت عايزة أعرف ميعاد تجديد الوديعة بتاعة البنك الأهلي. أصلي...

t.me/qurssan

يوووه إستنّي وقّعت الشاي...»

أصوات غير محددة لكن يسهل ربطها بالشاي الذي وقع.

«ثواني يا أستاذ (عبد النبي). هجيب حتة وامسح اللي وقع»

«خلاص، مش مهم، سيبي الشاي دلوقتي. خلّصي المكالمة»

... إيه ده؟؟ قلت بصوت مسموع.

لقد كان هذا صوتي.

t.me/qurssan

8

في صباح الخميس استيقظت (نهى) على الضوضاء التي تسببت فيها. كيف استطاعت أن تنام في الأساس؟ لقد عكفت أنا طيلة الليل على البحث كالمجنون في كل ركن في الشقة عن أي شيء سُرِقَ أو اختفى.

كل شيء تمام. حتى المعالق الفضية وصندوق مجوهرات أمي لم يمسهم أحد، هذا إن جاز وصف علبة الصدف تلك التي تحتوي على خاتمين وكام سلسلة «مجوهرات».

سؤال واحد يكاد يشق رأسي نصفين: من الذي كان مع أمي؟

أنا متأكد إنه لم يكن أنا، إذًا من كان هذا؟

t.me/qurssan

- بتعمل إيه يا (كريم)؟

- بدوّر على حاجة خشّي نامي إنتي.

تابعتها وهي تعود لغرفة النوم ثم استكملت البحث. وقع بصري على علبة خشبية بها مجموعة من الإيشاربات وجاءت لي فكرة.

لم لا أذهب لتلك المرأة وأحاول معرفة أي شيء منها عن الفترة التي سبقت وفاة أمي؟

نهضت وانتعلت حذاء رياضي خفيف وأسرعت لباب الشقة.

- عشر دقايق وجاي.

قلتها وأنا أغلق باب الشقة وتجاهلت (نهى) التي وقفت أمام الصالة غير مصدقة ما أفعله.

هل كانت تحك ذراعها مرة أخرى؟

لابد إني كنت أتخيل.

***

اللعنة على رائحة البخور.

بالرغم من تلك الرائحة النفّاذة التي اتفق أهل المربع جميعهم عليها، لكني اكتشفت أن طنط (سوسن) لطيفة حقًا. ظلت تطعمنى أرز بلبن وبسبوسة

t.me/qurssan

منزلية الصنع وعصير رمان لكني أوقفتها عند صينية المحشي. اعترف إني ضعيف الإرادة أمام الطعام لكن معدتي ليست لا نهائية الحجم.

جلسنا سويًا في الشرفة، التي أصبحت غرفة مثلها مثل أغلبية الشقق في المربع كله، وتسامرنا حتى إني نسيت ما جئت بسببه. رغم إني رفضت آخر عروضها لدفس شيء آخر في جوفي، لكنها كانت تقطع حوارنا الشيق كل حين وتذهب للمطبخ.

- ذكريات جميلة والله يا طنط. بس يا ترى كنتوا بتعملوا إيه في الآخر؟ يعني كنتي بتسلي كده مع ماما لما هي كبرت. إنتي طبعًا ماكبرتيش.

قلتها مجاملًا لكني ندمت عليها. ألقت (سوسن) رأسها للخلف كأنها ستعوي كالذئاب ثم قذفتها للأمام بقوة حتى شعرت إنها ستقع من فوق كتفها. أطلقت ضحكة أقرب للخوار جعلتني أمسك ذراع الكرسي بقوة وأنا أحملق في عينيها التي جحظت واتسعت لتحتل نصف وجهها.

- في إيه يا طنط؟ ما كنتش نكتة دي.

- جتك إيه يا (كريم). ضحكتني. عمومًا أنا مبسوطة إنك جيت. عايزة أحكيلك على عمك (رفعت) جوزي. يا سيدي (رفعت) كان محامي جنايات وكان تخين وجتّة كده زيك. كان عنده نفس اللُّغد والخدود المدلدلة دي علشان كنت بزغّطه كل يوم نص فرخة مع البطاطس. مكانش بيتغدى غير من إيدي...

t.me/qurssan

اللعنة، قلت في سريرتي، لن أستطيع أن أصل إلى أي شيء لو تركت لها دفة الحديث. جلت بنظري في منزلها وأنا أحاول أن أهرب من عينيها الجاحظتين.

ثم وقعت عيني على شيء أثار فضولي لأقصى درجة.

في ظلام البيت وخلف طاولة الطعام العملاقة رأيت أكياس سوداء، أكياس سوداء كثيرة. قبل أن تبدأ تساؤلاتي انتبهت لها وهي تقول:

- بقولك إيه يا (كريم) يا بني، أنا يوم الجمعة رايحة أزور عمك (رفعت) الله يرحمه. ممكن أطلب طلب غريب شوية.

- خير يا طنط؟ هو في حاجة مش غريبة هنا؟ اتفضلي.

- ممكن، لو يعني مش هتروح إنت كمان القرافة تزور مامتك (ثرية) حبيبتي، ممكن تجيب المدام وتباتوا عندي هنا؟

انعقد لساني.

- أنا عارفة إنه طلب غريب بس في ناس هتيجي تصلح التلاجة السبت الصبح بدري وعايزة أسيّحها من بالليل.

يادي النيلة على ليلة السبت دي اللي المنطقة كلها عايزاني أسيب فيها البيت.

- لو صعب ممكن تيجي بالليل إنت، بس لازم قبل الساعة 11، وتوقف

t.me/qurssan

التلاجة لغاية الصبح. خلال الليل بقى...

ثم جاء السكون. بدون سابق إنذار توقفت (سوسن) عن الكلام ووثبت لتذهب للمطبخ.

- يا لهوي نسيت الأكل على النار.

تابعتها وهي تتهادى للمطبخ ثم سمعت صوت تقليب ملعقة في آنية طبخ. قررت إنني قد اكتفيت من هذا اللقاء لذا نهضت واتجهت للمدخل. في طريقي اختلست النظر داخل الأكياس.

بطاطس؟!! جميع الأكياس بها بطاطس. تركت البطاطس في حالها ورفعت صوتي قائلًا:

- هو كان في حد بيزور ماما قبل وفاتها يا طنط؟

...

لا رد. حتى صوت التقليب توقف.

مددت رأسي لأنظر داخل المطبخ فوجدتها واقفة كالتمثال والملعقة الخشبية التي في يدها مستندة على طرف الصينية.

- طنط؟

قلتها بصوت منخفض كي لا أفزعها لكن بدا لي إنها لم تسمعني. مدت يدها ببطء لتطفئ شعلة البوتاجاز ووضعت الملعقة واستدارت لتخرج من

t.me/qurssan

المطبخ بنفس البطء المثير للأعصاب. فعلت هذا بآلية غريبة ثم توقفت في الممر الصغير المؤدي إلى غرفة نومها وظلت لدقيقة على هذا الحال. رفعت يدها لتضعها على صدرها وفتحت فمها ببطء قبل أن تطلق تنهيدة طويلة.

- طنط؟

هذه المرة سألتها وأنا أمسك بمقبض باب الشقة استعدادًا للهروب لو تحولت هي إلى تنين. لكن ما فعلته هذه المرأة التي تمشي بصعوبة كان شيئًا أقوى من هذا. شيء لو في ظروف طبيعية لكنت رحبت به لكن ليس بعد كل هذا السسبنس.

- تعال كُل بطاطس!!!

قالتها بصوت عالي مفزع وضحكت بهستيريا. ثم هرولت في اتجاهي بذراعيها الممدودة ووجهها الأسمر المتناقض مع شعرها الأحمر وعينيها الجاحظتين.

حسنًا فعلت حين وقفت عند باب الشقة ففي أقل من الثانية كنت في الشارع.

***

«إيه الهبل ده؟ إيه الهبل ده؟ إيه الهبل ده؟»

عكفت أردد هذه الجملة وأنا أمد الخطى عبر الشارع متجهًا إلى عمارتي.

t.me/qurssan

،وقفت فوق رصيف الحديقة استجمع شتات نفسي. التفتّ لأنظر للبناية التي خرجت منها، لشرفة (سوسن) بالتحديد، أو بالمعنى الأدق للنافذة العريضة التي كانت إفريز الشرفة في وقت ما.

لكني لم أراها.

وضعت يدي في وسطي لألتقط أنفاسي وهززت رأسي مبتسمًا وقد بدا لي ما فعلته لتوي شيء مبالغ فيه. لعنت خيالي الخصب وسخرت من خوفي من امرأة فوق الستين بالكاد تستطيع المشي. نظرت مرة أخرى لشرفتها فرأيتها تضع صينية الطعام على طاولة السفرة ثم تتجه للنافذة لتغلق الستائر.

تبدو طبيعية للغاية.

حسنًا. يكفي هذا من طنط (سوسن). رغم أني لم أصل منها إلى شيء بخصوص والدتي لكن لا يهم. سأصل حتمًا عندما...

لفت انتباهي شيء ما في شرفة بالطابق الأول في العمارة المجاورة لها، الشرفة التي كان بها مرتبة سرير وغطاء. عند مدخل الشرفة لمحت من يلوّح لي. نفس الشاب الأسمر رفيع البنية أشعث الشعر.

نظرت حولي فلم أجد أحدًا فالتفت له مشيرًا إلى صدري. هزّ رأسه بالإيجاب ثم أشار بأصبعه في اتجاه ما. نظرت لهذا الاتجاه فوجدته يشير للحديقة. هززت كتفي وقمت بإشارة بها معناه أني لا أفهم فأشار مجددًا للحديقة بإصرار، إصرار أقرب إلى العصبية.

t.me/qurssan

استدرت ميمّمًا شطري في اتجاه الحديقة. تأملت في السور المدفون تحت الأغصان المتشابكة والشجرة العملاقة التي تظلل جوانب الحديقة الأربعة.

فيه إيه يا عم إنت كمان؟ سألت نفسي. ثم...

هذا الكيس، الكيس الأسود المعلق على غصن مليء بالأشواك، هل... هل يتحرك؟

بِسْم الله الرحمن الرحيم!!

انتفضت حين تأكدت من شكّي. لقد تحرك الكيس.

ها هو يفعلها مرة أخرى. يأتي بحركة خفيفة كأن...

أخذت خطوة في اتجاه موازي للسور لعلّي أرى بشكل أوضح. حولت بصري مجددًا لشرفة الشاب فوجدته قد اختفى. تجاهلته ونظرت للكيس.

جفلت حين أتي بتلك الحركة الخفيفة للمرة الثالثة. يبدو لي أن هناك من يحاول جذبه من على الغصن.

ثم سمعت ما جعلني أتجمد مكاني كالمسمار.

هل هذه...؟

يا إلهي.

***

t.me/qurssan

- ألو؟ النقيب (أمير)؟

- أيوة، مين؟

- معاك (كريم السيوفي)، اللي ساكن في مربع جنينة (المحروقي).

- آه. أهلًا. إزّيّ سيادتك؟

- الحمد لله. لو تقدر تيجي بسرعة تعالي لو سمحت.

- خير يا أستاذ (كريم)؟

- البنت الصغيرة، بتاعة العيلة الأسيوية إياها.

- مالها؟

- مكانتش عند جدتها.

***

- إنت شفت إيه بالظبط؟

سألني النقيب (أمير) وهو ينحني لينظر داخل الحديقة.

- في حد كان بيشدّ الكيس ده.

رفعت الكيس الأسود الذي أمسكه لأريه إياه فارتسمت خيبة الأمل على وجهه وقال:

t.me/qurssan

- تاني الكيس الأسود؟

- استنى بس. لما قربت حسيّت بِحَد بيجري جوّه وسمعت صوت بنت صغيرة بتتكلم.

نظر إليَّ بتشكك وسألني:

- سمعت بتقول إيه؟

- لأ.

- طب شفت بتكلم مين؟

هززت رأسي بالنفي فنظر إلى الحديقة مرة أخرى وأخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

- إنت عارف كام مرة فتحنا الجنينة دي وما لاقيناش حاجة؟

ثم اعتدل واقفًا ليستند بجواري على سيارة النجدة وعقد ساعديه القويين أمام صدره.

- كتير؟

كان تعقيبي وأنا أراقب رجال الشرطة وهم يربطون السلاسل في باب الحديقة. فتحت الكيس الأسود الذي رأيته يتحرك منذ أقل من ساعة لأنظر إليه للمرة العاشرة وللمرة العاشرة تعجبت فكل ما كان به هو ثلاث حبات برتقال.

t.me/qurssan

حتى تلك اللحظة لم يرى (أمير) ما يؤكد كلامي لكنه بالتأكيد يريد أن يحل لغز جنينة (المحروقي) وما حولها بأي طريقة. لذلك فقد استمع لاقتراحي.

حوَّلنا نظرنا عن مشهد البوابة الصغيرة التي كان يتم اغتيالها لنتأمل في الثنائي المسن الذي جاء ليتابع ما يحدث.

- كتير جدًا. كان رد (أمير) على سؤالي.

على رصيف الحديقة رأيت أستاذ (سامي) ببنيته الضئيلة يقف بوقار لا يتفق مع المنامة الخضراء التي يرتديها بكل فخر ولا اللكلوك الفرو الذي ينتعله. على بعد خطوتين منه تنحني مدام (ماتيلدا) بكامل زينتها لتنظر عبر الأفرع المتشابكة ويدها تمسك بإحكام بباروكة الشعر الشقراء التي تزين رأسها تلافيًا لأي موقف محرج.

هناك حركة بالتأكيد داخل الحديقة لكن لا يستطيع أحد تحديد مكان الفتاة.

- (ليليان)!!

ظلت (ماتيلدا) تنادي بحرقة وعلى وجهها أعتى آيات القلق. لكن لا يأتيها رد. يقترب منها زوجها العبوس ويهمس لها بشيء لكنها تنهره بعنف فيتراجع ليقف كالتمثال ويضم شفتيه ليزداد وجهه طولًا.

- ناس غريبة جدًا. كل السكان هنا كده الحقيقة. (ليليان) ده اسم البنت على فكرة.

t.me/qurssan

قال (أمير) وجال ببصره في البنايات. كان الوقت عصرًا لذا فقد كان واضحًا لنا أن سكان المربع يراقبون ما يحدث من خلف النوافذ شبه المغلقة والستائر المسدلة. خطر لي وأنا أنظر إلى عينيّ طنط (سوسن) المتناقضة مع بشرتها السمراء وهي تقف خلف الشيش المؤدي للشرفة أن أقول له «ليس لديك أدنى فكرة كم هم غرباء» لكنه سبقني وقال:

- هو فين (محروس)؟

نظرت حولي فلم أجد الحارس الذي كان يظهر كالقط لحظة اشتعال الأحداث. هممت بقول شيئًا ما لكن صوت الباب الحديدي وهو يستسلم للسلسلة ولسواعد رجال الشرطة شد انتباه الجميع.

تقدمنا للباب لكني لاحظت أن مدام (ماتيلدا) قد تراجعت بسرعة هي وزوجها حين فُتِح الباب واتسعت عيناهما في خوف وهم يحدقون في محتوى الحديقة. ثم ابتعدوا عن المكان بخطوات سريعة.

تبادلنا أنا و(أمير) نظرات التعجب من رد الفعل هذا لكننا تجاهلناه. اتجهنا بعدها إلى باب الحديقة المفتوح وكلنا فضول لاكتشاف محتواها.

ثم جاءت الرائحة.

- إيه القرف ده؟؟

هتفت وأنا أغلق فتحتي أنفي. نظرت لـ(أمير) الذي امتعضت ملامحه

t.me/qurssan

،، الآخر من الرائحة البشعة التي هبت في وجوهنا حين اقتربنا من الباب المفتوح.

- مش عارف. شكل في حاجة ميتة جوة. بس ماتسألنيش مكناش شامّنها ليه قبل ما الباب ما يتفتح.

كان تعليق (أمير).

هنا تذكرت جملة (نهى) «لو حد عايز يقتل قتيل جوه محدش هيحس به». الحاجة الوحيدة التي جعلتني لا أشارك (أمير) تلك النظرية هي أن حال السور والبوابة لا تمكن أحد من العبور دون أن يترك دليل على ذلك. إلا لو كان طائرًا مثلًا. وقد تأكدنا بالفعل أن الطيور لا تقترب من المربع ولو على ارتفاع أميال.

لكن لو كانت الفتاة بالداخل كيف دخلت إذًا؟

تقدمني (أمير) وتبعني أمين الشرطة البدين إياه. أزاح قائد مسيرتنا الأفرع التي تعيق دخولنا ودلف إلى الأحراش الصغيرة.

حين استقر ثلاثتنا بالداخل وفردنا قامتنا سمعنا تأتأة.

تؤتؤتؤ.

التفتنا إلى الأمين الذي أعطانا نظرة بلهاء.

- في إيه سعادتك؟

t.me/qurssan

- إنت اللي عملت الصوت ده؟

- صوت إيه سعادتك؟

تبادلنا أنا و(أمير) النظرات فهززت رأسي له بالنفي. لم أكن أنا من أصدر هذا الصوت ولم يكن (أمير) ولا حتى الأمين. لقد أتى هذا الصوت من أمامنا.

تنهد الضابط الشجاع ورمي نظرة خارج الحديقة فوجد بقية القوة يراقبون الموقف في ترقب وانبهار. ثم استدار ليتأمل المكان. كذلك فعلت أنا وقد بدأت ذكرياتي عن هذه الحديقة تعود.

شعور قوي تملكني في تلك اللحظة، مزيج من الفضول والإثارة يحثني أن أتفحص كل شبر وتفصيلة في جنينة (المحروقي) المحرمة. محرمة من الأهالي بالطبع، فالموضوع ليس له أي طابع ديني. كان مجرد التفكير في القفز من فوق هذا السور يضمن لك الحبس شهر في غرفتك والمنع من اللعب في الشارع.

هذا هو ما تذكرته لحظة انهيار باب الحديقة.

هي ليست كبيرة: مربع طول ضلعه خمسة وعشرون مترًا تقريبًا. في منتصف الجانب الشمالي تنمو شجرة بلوط عملاقة قليلة الفروع كثيفة الخضرة تظلل معظم المكان. الأرضية تغطيها الحشائش التي تعدت مرحلة الإهمال لتصل إلى مرحلة التوحش. يربض فيها أفرع متساقطة وأجزاء

t.me/qurssan

خشبية ومعدنية من أشياء معروفة وغير معروفة كأنها ضواري تستعد للانقضاض على فريستها.

هناك وسادة متسخة، بالطو قديم، عصا مكسورة، كوب بلاستيكي وأشياء أخري منتشرة بين الحشائش ومعلقة على الأغصان. المشهد بدا لي كأن إعصار ضرب الحديقة دون المربع السكني وبعثر هذه الأشياء في أنحاءها.

هذا بالإضافة إلى الأكياس السوداء بالطبع التي تكاد تضاهي الحشائش كثافة. معظم الأكياس كانت فارغة إلا القليل منها كانت به بقايا أطعمة من أصناف عدة.

أسفل الشجرة العملاقة أجزاء من كوخ متهالك من غرفتين لم يبقى منه إلا حائط خارجي سليم وأجزاء من حائطين داخليين.

أكثر ما يميّز المكان هو الغبار العالق في الهواء كأنك في قاع حمام سباحة معكّر الماء مليء بالأعشاب البحرية.

وهناك الرائحة.

لكن أهم من كل هذا هو إننا لا نرى أحدًا. قال رفيقي وهو ينظر في أنحاء المكان ضعيف الإضاءة:

- مش إنت شفت وسمعت حركة. راح فين بقى اللي كان بيتحرك ده؟

t.me/qurssan

- مش مصدقني؟ يعني إنت ما سمعتش اللي كان بيتأتأ ده؟

جال (أمير) بنظره في المكان مرة أخرى وقال للأمين:

- دوَّر حواليك. البنت ممكن تكون خايفة ومستخبيّة، إحنا مش عارفين هي مالها. وأنا هبص في الأوضة دي.

أشار للكوخ المتهالك ثم تقدم تجاهه وذهبت معه.

وقفنا على الأرضية الطينية وتأملنا في الحوائط المتهالكة الكوخ الذي كان في يوم من الأيام مكون من غرفتين. يوجد بقايا فراش ودولاب وكرسي لا ظهر له كلهم مصنوعين من الخشب. هناك خرطوم شيشة قديم يرقد على الفراش كثعبان نافق. على الأرض بقايا أخشاب محترقة داخل حفرة صغيرة وهناك بقايا ورقة لم تحترق كاملةً. مد (أمير) أصابعه ليلتقطها لكنه توقف فوق الحطب وقال:

- عجيبة، دا الحطب سخن.

رفع عينيه لنتبادل نظرات التعجب ثم مد يده ليأخذ الورقة ونظر فيها. مط شفتيه بعدم فهم وسلمها ليدي الممدودة بدون اهتمام.

إنها لغة أجنبية ليست بالغريبة عني. قررت أن أفحصها فيما بعد.

تابعنا استكشاف المكان الذي يعلوه أتربة تليق بالعقود التي مرت عليه دون أن يدخله مخلوق. اتكأت على وحدة خشبية قصيرة واتخذ هو من الكرسي الخشبي العريض مجلسًا.

t.me/qurssan

- حاسس بيه هنا. تصدّق؟

قال (أمير) وهو يجول ببصره في الغرفة الضيقة.

- نعم؟ مين؟ تقصد حاسس بيها؟

- لأ، بيه هو. (بالمحروقي).

مططت شفتي ولم أعلّق.

- إنت عارف قصته؟ سألني وهو يتابع الأمين الذي يبحث في أرجاء الحديقة. يا أمين!!

- خلّي العساكر يدخلوا يساعدوك!!

- قصة مين؟ (المحروقي)؟ سألته بفضول.

- أيوة. أول حاجة عملتها لما اتخرجت إني جبت تاريخه من أوله.

- طب احكي.

قلت بابتسامة عريضة وأنا أتوقع سماع ترهات مسلية.

لكنها لم تكن كذلك، بل كانت أقوى ما سمعت في حياتي.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

9

صعيد مصر منذ عقود طويلة...

في الساعات الأخيرة من ليلة قارصة البرودة جثم جسد عملاق على رمال تبّة عالية تطل على بلدة صغيرة. أنفاسه الثقيلة تتسلل من اللثام الداكن لتكوِّن سحابة من بخار الماء الحار الذي يتماشى مع أتون الغضب المستعر بداخله.

عيناه الثاقبتان تخترقان المسافة المظلمة التي تفصله عن بيت كبير يقع على أطراف البلدة. تنتهك نظراته النارية حرمة غرف البيت الآمنة وتراقب حركة أهلها.

تذكر وقتًا كانت لديه أشياء مماثلة: أسرة صغيرة من زوجة وثلاثة أطفال

t.me/qurssan

وولد شاب ضمن أسرة أكبر بها العشرات من الأسر الصغيرة.

كان لديه أرض وجاه ومال وسلطان وجيش جرّار من الرجال الشداد المستعدون للتضحية بحياتهم من أجله.

كانت لديه حياة.

وأصبح لا يملك شيء.

حتى آدميته فقدها يوم أراح جسد ابنه على جانبه الأيمن في لحد قبره. ابنه الذي كان آخر من تبقى معه في رحلة ثأر استمرت عشرة أعوام.

والآن هو وحيدًا.

يعلم جيدًا أن معركته مع عائلة (الغفافرة) لن تتركه حيًا لكنه لا يأبه. بعد عشرة أعوام أخرى قضاها وحيدًا في هذا الصراع أصر على شيء واحد وهو بقائه على الدرب الذي رسمه لنفسه، لن يحيد عنه حتى النهاية. والنهاية تكون إما بموته أو بمحو اسم (الغفافرة) من الوجود وإنهاء نسلهم.

وهم يعلمون إنه قادم إليهم بقوته وجبروته. قادم بنيران الغضب التي نهشت روحه حتى أحالته إلى أسطورة يتغنى بها الصعيد كله.

كل هذا لا يخيفهم، فهم كثر. لكنهم يعلمون إنه لا يهاب الموت.

وهذا يخيف أشجع الشجعان.

يتحسس ماسورة بندقيته المزدوجة كأنه يداعب حيوانه الأليف ويتأمل

t.me/qurssan

الحراسة الشديدة المنتشرة على سور البيت وحوله. ينظر إلى السطح فيرى أربعة غفر يروحون جيئة وذهابًا بعيون يقظة. نظر مرة أخيرة لبندقيته كأنه يودعها، فهي ليست أصلح ما يقوم بهذه المهمة. ثم أخرج من حزامه خنجر حاد بطول ذراع.

نعم هذا. يجب أن يكون سريعًا كالقدر، هادئا كالبحر وقويًا كالثور. وفوق كل هذا يجب أن يكون حذرًا كالقط لا تشعر به ضحيته إلا بعد أن يمرك النصل الحاد رقبتها.

عشرون عامًا من الخبرة في التسلل والاغتيال جاءت بثمارها. فهو الآن فوق سطح منزل (ناصر عبد الغفار) بعد أقل من خمس دقائق من هبوطه التل وبعد ثلاث عشر جثة تركها خلفه.

متنكرًا بالدماء التي تغطي وجهه وملابسه وتعطيه مظهر مخيف. تخيَّل عملاق ملثّم يقارب المترين متشح بالسواد يقف أمامك وبيده نصل ضخم يقطر دمًا. صدره يعلو ويهبط دون أن تسمع صوتًا لأنفاسه والدماء على وجهه ويديه تعلن عن موت الإنسان بداخله.

فالذي أمامك الآن وحش قادر على إنهاء البشرية كلها لو أُتيحت له الفرصة. وحش لا يرى إلا وجه أطفاله الأربعة وهو يضعهم الواحد تلو الآخر في رحم الأرض ويكسو وجوههم بالرمال.

ثم تذكر وجه ابنه الأكبر، ذراعه الأيمن ورفيقه في رحلة الانتقام. وتذكر

t.me/qurssan

الوعد الذي أعطاه إياه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعيه.

الوعد الذي رآه (ناصر عبد الغفار) يتحقق عندما استيقظ على من يجذبه بقوة هائلة من فراشه ويلقيه أرضًا. بهلع شديد يتلفت حوله محاولًا استيعاب ما يحدث له حتى وقعت عينيه على جثة زوجته. هتف بإسمها وحاول الحبو إليها لكن يدًا خشنة أمسكت بساقه وجذبته كأنه طفل صغير لتلقيه في منتصف الغرفة.

«توتوتو»

التفت بذعر لمصدر الصوت. يلمح ظل شخص ما في ركن لا يصل إليه الضوء البرتقالي القادم من خارج الغرفة.

- مين؟؟؟

حاول التقهقر لكن اليد جذبته مرة أخرى.

«توتوتو»

كررها المختبئ في الظلام.

حدّق ناصر في الظل وقلبه يكاد يقفز من صدره. اتسعت عيناه حين استنتج هوية من يقف أمامه.

- (محروقي)؟

تقدم العملاق ليقف في دائرة الضوء والتمع النصل الدامي في يده

t.me/qurssan

انعكس ضوء أحمر مخيف على وجهه الملثم.

- (محروقي)... عيالي.

صمت للحظة كي ينصت للضوضاء الآتية من خارج الغرفة. ثم نظر إلى هناك حيث بدأ دخان أسود ينساب من الباب.

- إيه النور ده؟؟؟ إنت عملت إيه؟؟؟

لم يأته رد. لم يعد لدى (المحروقي) ما يقوله. لم يعد لديه مبررات ولا مبدات ولا سُباب. نفذت كلمات الغضب واللوم. نفذت الدموع والصرخات. لم يعد لديه إلا هدير رعد يهز جنباته، هدير لا يسمعه أحد إلا هو و... ومن ينفذ حظه ليرقد أمامه مثل (ناصر عبد الغفار) الآن.

وهوى النصل.

صدت صرخات ناصر في أنحاء بيته الذي تأكله النيران حثيثًا.

لكن الموتى لا ينجدون أحدًا.

- قتلهم كلهم؟ قتل كل أهل البيت؟

سألت وعيني معلقة على (أمير) الذي توقف عن السرد والتفت لرجاله.

- خلَّص يابني أنت وهو. دي الجنينة متر في متر. لقيتوا حاجة؟ عايزين نمشي قبل ما الريحة دي ما تخنقنا.

t.me/qurssan

نظرت لرجال الشرطة المكلفين بالبحث في الحديقة فوجدتهم ثابتين كالتماثيل وكل انتباههم منصبّ على الرواية التي يسردها قائدهم.

انتفض الأمين وضرب تعظيم سلام قائلًا بأسلوب اسماعيل ياسين في البحرية:

- تمام يا فندم. ملقيناش حاجة.

نظر لي (أمير) رافعًا حاجبه ثم نهض ليغادر الحديقة. فأسرعت خلفه مدافعًا عن نفسي.

- أنا مش بخرّفْ. كان في حد بيشدّ الكيس. وكان فيه صوت بنت.

- طيب. ماشي. أنا مصدقك. بس النتيجة زي ما أنت شايف أهوه.

أخذت نفسًا عميقًا لأطلقه عند خروجي من الحديقة وقلت بعصبية:

- خلاص. عايز تعتبره بلاغ كاذب اعتبره. بس لو أنت شايف اللي بيحصل ده طبيعي والأكياس دي كلها و...

- بقولك مصدقك.

نظرت في عينيه فوجدته جادًا في ما يقوله. أخذت خطوة أخرى لكني شعرت بشيء يجذبني. انتفضت فزعًا وانتزعت ساعدي بقوة.

- فيه ايه؟؟؟

t.me/qurssan

سأل (أمير) وقد انتقل إليه جزء من هلعي. أشرت إليه ليطمئن.

- مافيش مافيش. شوكة بس شبكت في كمي. مش عارف جت منين.

مط شفتيه ممتعضًا وهو يتابعني أنزع الشوكة الكبيرة من ذراعي قبل أن يلتفت إلى رجاله هاتفًا:

- يلا على البوكس.

- والبنت؟

التفت إليّ وأومأ برأسه ويديه داعيًا إياي أن أصبر. ففعلت والتزمت الصمت حتى انصرف رجال القوة ثم قلت:

- اتفضل معايا نشرب حاجة سخنة فوق وتكمّلي قصة (المحروقي).

- مش هينفع. أنا بس هستنى لغاية ما العيلة بتاعة ماليزيا دي ترجع.

- استنى عندي فوق.

ابتسم ونظر حوله للعمارات والشقق، بالأخص لتلك النوافذ التي يختبئ خلفها مراقبون ثم هز رأسه موافقًا. بادلته الإبتسامة وأشرت له ليتقدمني ففعل لكن ليس قبل تعليق أخير قاله وهو ينظر للحديقة.

- تصدق الريحة راحت.

t.me/qurssan

لم أعلق لكنني نظرت لبوابة الحديقة مرة أخيرة. فعلًا. لقد اختفت الرائحة بعد أن أغلقنا البوابة.

اللعنة. ألا يوجد شيء منطقي في هذا المكان.

t.me/qurssan

10

فتحت باب الشقة - بعد تأكدي من عدم وجود المفتاح السحري أسفل الممسحة - لأجد أستاذ (سامي) أمامي بوجهه شديد الطول وكتفيه الضيقين. قال لي بصوته المبحوح وشفتيه المضمومتين كأنه يقبِّل الهواء:

- مساء الخير يا أستاذ (كريم). المدام كويسة دلوقت.

- المدام؟؟ (نهى) فيها حاجة؟؟

قلتها وأنا أدفعه برفق لأدخل ثم هتفت لضيفي:

- (أمير) باشا اتفضل. ثواني هشوف فيه ايه.

- خد راحتك.

t.me/qurssan

- ما تقلقش يا (كريم) يا بني. هي كانت تعبانة وطلعناها أنا والمدام بتاعتي.

لم أكن منتبه لما يقول وأنا في طريقي لغرفة النوم. دخلت لأجد مدام (ماتيلدا) جالسة على طرف الفراش وعلى رأسها باروكة بنية اللون. تضم كفها على صدرها كأنها مذعورة ويخرج منها صوت تنهيدة طويلة بينما يعلو وجهها تعبير ثلجي غير مفهوم.

التفت إلى (نهى) فوجدتها قد أسندت ظهرها على ظهر السرير الخشبي

- مالك يا (نهى)؟

قلتها وأنا أنقض عليها لاحتضنها.

- كنت فين يا (كريم)؟

كالعادة ترد على السؤال بآخر.

- كنت في الجنينة تحت. معايا الظابط (أمير) بره. قصة كده هقولك عليها. قوليلي أنتِ بس مالك؟

هالني رؤية ذراعها ملفوف في شاش.

- مافيش يا (كريم) يا بني ماتقلقش. هي تعبت شوية وعملنالها اللازم، آخر شهور الحمل بقى. وبعدين لاقينا دراعها ملتهب حطينالها مرهم، هتبقى كويسة إن شاء الله. هستأذن أنا.

t.me/qurssan

كانت إجابة (ماتيلدا) بعد أن تخلت عن وضعها العجيب ونهضت ا ہادر فسألتها:

- دراعها؟ كل ده من الكام شوكة دول؟

ردت (نهى) وهي تلوح (لماتيلدا) مودعة إياها:

- أستاذ (سامى) بيقول إنه ممكن قرصة نحلة ولّا حشرة تانية. علشان ،ده هيقول (لمحروس) يجيب ناس ترش البيت بكرة والعمارة كلها لو أمكن.

- هيرشوها؟ طب هنعمل إحنا إيه بقي؟

- والله مدام (ماتيلدا) اقترحت فكرة حلوة. بكرة الجمعة وفرصة الدنيا هتبقى فاضية. تعالى نقضي ليلة في العين السخنة ولّا...

كنت أتأمل ذراعها متعجبًا من تلك العلامات التي تحيط به كأن شيئا جافًا قاسيًا قد التفّ حوله ثم انتبهت لما كانت تقوله. وقفت غاضبًا وقد بدأ الموضوع يستفزني لأقصى درجة.

- مش سايب البيت بكرة!! هي المنطقة كلها مصممة تمشّينا منه ليه؟؟ الله!! حاجة غريبة جدًا.

تركت (نهى) لذهولها وهرعت لألحق بضيوفي غير المرغوب فيهم لأجدهم قد غادروا الشقة بالفعل. ففتحت الباب وصحت في منور السلم:

t.me/qurssan

- مش هسيب أُمّ البيت، لو اتنططوا مش همشي من البيت بكرة!!!

أغلقت الباب بكل قوتي واستدرت لتلتقي عيني بعين (أمير) المصعوق

بالطبع لم يكن أمامي إلا أن أروي له كل شيء وكانت النتيجة أنه سألني السؤال المنطقي الوحيد - السؤال الذي كان البداية الحقيقية لشعوري بالتوتر.

ما الذي سيحدث ليلة السبت؟

***

جلست مع (أمير) في الشرفة نتأمل المربع السكني من النافذة الكبيرة في يدنا فنجانين من القهوة التركي نحتسي منها في هدوء وعيوننا تحاول اختراق الستار الطبيعي لجنينة (المحروقي).

- مش عارف بصراحة. الموضوع غريب جدًا. هيكونوا بيعملوا كده ليه يعني؟

قال (أمير) وهو يضع الفنجان الفارغ على المنضدة.

علّقتُ قائلًا:

- ما هو مافيش تفسير منطقي ومش معقول يكونوا كلهم جتلهم الأفكار دي بالصدفة.

t.me/qurssan

- لأ ممكن. أنت بس اللي في حاجة مخلّياك شاكك في اللي بيحصل هنا.
، ده عندك حق فيه تمامًا.

فكرت أن أخبره إن شكّي في السكان والمنطقة بأسرها أكبر منه بمراحل.
،همي أن يسمع بما قاله لي (عبد اللطيف) المحامي والتسجيل الذي كان بصوتي.
لكنه ما زال شيئًا صعب التصديق لذا آثرت عدم البوح به وقلت:

- وأنت كمان.

نظر لي مستفسرًا فاستطردت:

- حد غيرك كان عملّي محضر إزعاج سلطات.

وضع ساق فوق الأخرى وابتسم قائلًا:

- بالعكس. أنا شاكك أكتر منك. طول عمري نفسي أعرف سر المنطقة
دي واللي بيحصل ده اتكرر أكتر من مرة. أمنيتي الوحيدة كانت إني أكون
موجود وقتها، وأهو بيحصل.

- ده ليه علاقة بالقصة اللي قولتها لي، قصة (المحروقي)؟

- أيوة.

- ممكن أعرف بقيتها.

- ممكن...

t.me/qurssan

القصة معروفة في الصعيد كله، أشهر قصة ثأر في القرن.

***

جاء الصباح بالأمطار التي غسلت الدماء وأطفأت النيران لكنها لم تستطع محو ذكرى تلك الليلة.

استيقظ أهل البلد على صراخ وعويل مفزع. شاهدوا الدخان المتصاعد من بيت (الغفافرة) كملاك موت أسود وهرعوا إليه ليكتشفوا المذبحة التي تمت به.

لم يتم حصر الموتى بدقة. لم تكن الحكومة مُرَحّب بها في القري والنجوع وكان للموت حرمة لا يستهان بها. لذا فقد اكتفى مأمور المركز برواية العمدة. وهي رواية مختصرة بإجحاف:

«حريق في بيت كبير البلدة - (ناصر عبد الغفار) - أدى إلى وفاة جميع أهل البيت... عن آخرهم»

نعم. لم يبق من نسل (الغفافرة) أحد. ربما كانت تلك هي الحقيقة وربما لم تكن، لكن لن يعرف أحد. فَلَو تبقى أحد من (الغفافرة) سيختبئ طيلة عمره حتى يتأكد أن (المحروقي) لم يعد على وجه الأرض.

يعلم الجميع أن الحريق ليس سبب الوفاة بل كانت معركة أخيرة بين عائلة (الغفافرة) وعائلة (المحروقي). مجزرة قام بها فرد واحد.

t.me/qurssan

أما (المحروقي) نفسه - الذي تاه اسمه الأول عن الأذهان - فقد اختفى تمامًا لأكثر من خمسين عامًا. لكنه ظل، وليومنا هذا، صاحب أكبر عدد من ضحايا الثأر في صعيد مصر.

حتى ظهر في القاهرة.

في مربع 10؟

***

- أنت عايز تقولي إن اللي بتحكي عنه ده هو نفسه اللي كان بيحرس المنطقة وإحنا صغيرين؟

سألت (أمير) بكل اهتمام.

- الأوصاف بتنطبق.

كان رده وهو يزيد من عرض ابتسامته حتى ظهرت نغازتيه فاستطردت قائلًا:

- هو كان فعلًا ضخم بزيادة ومرعب. بس كان طيب جدًا. مستحيل يكون نفس الوحش اللي قصتك دي بتوصفه.

- في ناس بتقول إنه ندم لما قتل عيال (ناصر). والندم ده قعد ياكل فيه لغاية ما مات.

t.me/qurssan

- حتى لو اللي بتقوله ده صح وهرب على مصر ده إيه علاقته بحوادث الاختفاء اللي بتحصل هنا؟

نظر (أمير) خارج النافذة وضيق عينيه الواسعتين متأملًا الشمس التي قاربت على المغيب وقال:

- ده أنت نسيت فعلًا. مش فاكر الناس كانت بتقول عليه إيه؟

نظرت معه للغروب واعتصرت ذاكرتي. كانت هناك بالفعل روايات عجيبة أقنعت نفسي بعدم صحتها لكنها كانت من أسباب رحيلي. روايات خفت صداها وتوارت مع مرور الأيام.

روايات مثل:

«شفت كلبة سلمى؟ (المحروقي) أخدها في الجنينة وموّتها».

«إمبارح شفت (المحروقي) شايل جثة قطة».

«سمعت صوت صراخ الكلب بتاع بالليل؟ كانت طالع من الجنينة».

«(المحروقي) بيخطف العيال ويخنقهم».

«طنط (فايزة) ما سافرتش. (المحروقي) موتها ودفنها في الجنينة».

ثم تنبهت لشيء:

- تصدق فعلًا إني ماشفتش ولا حيوان حوالين الجنينة ولا في المربع كله من ساعة ما جيت؟

t.me/qurssan

ابتسم ولم يجيب فاستطردت:

- بس القصص دي ولا واحدة منها طلعت صح. تخاريف عيال.

تنهد (أمير) وأجاب:

- فعلًا. لغاية دلوقتي ما فيش دليل على صحتها. حتى اختفاء لواء الشرطة محدش وصل لنتيجة فيه.

- لكن (المحروقي) نفسه مات من بتاع عشرين سنة.

- عندك حق. بس اللي بيحصل دلوقتي هنا بيفكّرني بـ...

انتفض من جلسته وأشار لسيارة تدخل من الممر المؤدي للشارع الرئيسي.

- دول وصلوا. يلا ننزل.

وقفت مع (أمير) أمام عمارتي نراقب الرجل الماليزي وزوجته وهم ينزلان من السيارة ذات لوحة أرقام دبلوماسية.

- برضه البنت مش معاهم. وعربية السفارة دي هتمنعنا نتعرضلهم.

- أنت عارف رأيي في موضوع البنت ده.

همست على استحياء. رماني بنظرة خاطفة تبعها بواحدة مثلها للحديقة التي غرقت في الظلام أسرع من بقية المنطقة.

تابعنا الزوجين وهما يحملان أكياس هدايا كبيرة ويتجها إلى عمارتهم.

t.me/qurssan

- هم عندهم عيد ميلاد ولّا إيه؟

- بس الأم شكلها مش مبسوطة.

- فعلًا. شكلها معيَّطة.

قالها والتفت إليَّ قائلًا بامتنان:

- عمومًا أشكرك على القهوة. مضطر أرجع القسم بس لو حسّيت بحاجة تانية قولي.

- يعني مش زعلان علشان ملقيناش البنت؟

- إذا كان أهلها نفسهم مش قلقانين - بغضّ النظر عن حالة الأم. لا يا سيدي مش زعلان. طول عمري بحترمك على فكرة.

قالها واتجه لسيارة النجدة السريعة وأضاف وهو يركبها:

- حتى لو أنت مش فاكرني.

ضحكت من قلبي وقد أراحني هذا التعليق فبادرني بإبتسامة عريضة.

لوحت له واستدرت عائدًا لبيتي متجاهلًا نظرات الرجل الماليزي لكني توقفت حين وضعت يدي في جيبي. أخرجت الورقة التي لم تحترق في كوخ (المحروقي) وتأملت الكتابة فوقها.

ثم التقط لها صورة بالمحمول وارسلتها لصديق بالخليج مولع باللغويات.

t.me/qurssan

11

قررت أن أبقى بجانب (نهى) تلك الليلة.

بعد إغفاءة سريعة لتعويض ليلة أمس، طلبنا عشاء من الخارج وجلسنا أمام التلفاز. كانت أمسية لطيفة نسيت فيها كل ما يتعلق بالسفر والعمل وما يحدث في مربع (المحروقي) حتى صوتي الذي سمعته في رسالة المحامي الصوتية. (نهى) نفسها كانت هادئة ومستكينة كما رأيتها أول مرة منذ ثلاثة أعوام.

تعجبت كثيرًا من هذا فقد كنت أتوقع المزيد من الشكوى والتذمر. نظرت إليها في منتصف الفيلم الأجنبي فالتفتت إليَّ مبتسمة.

- أخبار بطنك ودراعك إيه؟

t.me/qurssan

- الحمد لله.

قالتها بوداعة وعادت لتتابع الفيلم فترددت قبل سؤالها:

- هو أنتِ نزلتي الجنينة؟

- لأ الجنينة هي اللي طلعتلي. قالتها مازحة قبل أن تستطردت: هو أنا بطيق أعدِّي جنبها لما أدخل فيها أنت كمان. ركز في الفيلم بقى.

أخذت نفسًا عميقًا وقلت:

- أنا عارف إن قاعدتنا هنا بقى دمها تقيل بس معلش نستحمل شوية.

ردت دون أن تحيد بنظرها من على الشاشة:

- ولا يهمك. نستحمل.

يا للعجب. رددت لنفسي غير مصدق التغيير الذي طرأ على موقفها. بنت أصول والله البنت دي.

- أسبوع كمان وخلاص. وهنرجع تاني.

قلتها وأنا أراقب خلجاتها.

- ومين قالك إني عايزة أمشي.

- ...

- إيه مالك. بتبصلي كدة ليه؟

t.me/qurssan

- (نهى) أنتِ كويسة؟

- تمام. تمام. سيبنا نتفرج بقى. إيه اللّت والعجن ده. ده أنت كسبت (سمر) في الرَغْيّ.

«نعم؟؟؟»

- (نهى)، سؤال أخير.

- اتفضل قول.

- إيه اللي خلّاكي تنادي على مدام (ماتيلدا) وأستاذ (سامي)؟

- مش أنا اللي ناديتهم. أنا كنت فاكراك أنت اللي قلتلهم يطلعولى.

قالت بعد أن نجح سؤالي في تحويل اهتمامها من التلفاز إلى وجهي اللحيم جاحظ العينين.

يا حلاوة.

***

وفي تمام الحادية عشر، كعادتهم العجيبة، أغلق سكان المربع الستائر ليصير أحلك مما كان. لم يكن ليهمني هذا الأمر في شيء فإن كنت لم أنم في الليلة الماضية بسبب بعض الشكوك فما بالك بعد تحولهم إلى واقع.

بعد زيارة طنط (سوسن) ومغامرة الجنينة وما حدث لزوجتي ومراقبة

t.me/qurssan

أهل المربع لنا تأكدت أن هناك شيئًا يحدث تحت الرادار.

وأضف فوق ذلك كله... قصة (المحروقي).

مر الوقت عليّ كالدهر وأنا مستلقي بجانب (نهى) أتأمل في وجهها المربع الجميل ووجنتيها البارزتين الفاتنتين. وقعت عيني على ذراعها المربوط ومددت يدي لأتحسسه برقّة بأطراف أصابعي.

غيرتي رأيك ليه يا (نهى) بالسرعة دي؟

تكتكتك.

صرف صوت النقر السخيف إياه على النافذة انتباهي عمّا أفعله. استدرت بنصفي العلوي لأنظر إلى النافذة فوجدت الغصن العملاق يكاد يقتحم علينا الغرفة. سببته في قرارة نفسي عاقدًا العزم على جعل (محروس) يقطعه غدًا.

تكتكتك.

اللعين.

اعتدلت مرة أخرى لأنظر إلى (نهى) وعاودت المرور على ذراعها بأطراف أناملي. لكن... لكن...

هل كان ذراعيها الاثنين ملتهبان؟

دققت النظر في ذراعها السليم فوجدت عليه نفس أثار الاحتكاك.

t.me/qurssan

...ت أصابعي لأتحسسه فشعرت بوجود شيء بارز... كأنه شوكة.

نكتكتك.

يا بن الـ...

كنت على وشك السباب بصوت عالٍ لولا أني سمعت صوتًا آخر.

هناك من يهمس بالخارج.

أنصَتّ جيدًا.

بالفعل هناك من يتكلم في الشارع بصوت حاول أن يخرج همسًا لكنه مسموع. أنت تعلم هذا الأسلوب العبقري الذي ينافي المنطق.

انتفضت واقفًا وذهبت لأنظر من النافذة. رغم أغصان الشجرة العملاقة التي تعيق الرؤية أكثر من المعتاد - كأنها تتعمّد ذلك - رأيت شخصًا يقف على رصيف الحديقة.

لم أستطع تحديد هويته من موقعي لكنني رأيته يمسك دب أحمر.

نعم لقد سمعتني جيدًا.

يوجد أمام الحديقة الصغيرة شخص ناضج يمسك دب أحمر. لتوخي الدقة دبدوب أحمر كبير. دققت النظر في اللعبة العملاقة حتى تأكدت من ظني وتذكرت أين رأيته من قبل. لقد كان هذا الدبدوب حبيسًا في أحد الأكياس المزركشة التي أتى بها الأب الماليزي.

t.me/qurssan

ماذا يفعل الآن؟

سألت نفسي وأنا أشاهده يضع الدبدوب على الرصيف ثم صرف نظره للحديقة ليقول شيئًا. تقهقر بعدها باتجاه عمارته وتوقف عند سيارة أحد السكان. رأيته يلتقط كيس هدايا آخر كان يرقد بجانبها ويخرج منه علبة مستطيلة. فتحها وأخرج بيانو بلاستيكي ثم وضعه على الأسفلت، في منتصف الطريق بالضبط.

قال شيئًا آخر ثم تقهقر مرة أخرى ناحية عمارته حيث كان ينتظره كيس آخر. فعل بمحتواه نفس الشيء.

سكويك.

كان هذا الصوت خلفي.

استدرت لمصدر الصوت بحركة دائرية رشيقة اعترض عليها جسدي الهائل لأجد ظل واقف على جانب الفراش البعيد. استنتجت أن (نهى) قامت من نومتها لتذهب للحمام كعادتها في الأشهر الأخيرة من الحمل فالتفتّ لأتابع ما يحدث بالأسفل.

«إيه ده؟» سألت نفسي. «إيه اللي جِرِي بسرعة ده؟»

لم أستطيع تحديد هوية هذا الشيء الذي قطع المسافة من الحديقة إلى السيارة التي يرقد بجانبها البيانو البلاستيكي بسرعة رهيبة.

t.me/qurssan

هل كان كلبًا؟ بدا لي في مثل حجمه تقريبًا.

لكني تأكدت تمامًا من خلو المربع من الحيوانات.

راقبت الموقف بمنتهى التركيز مما جعلني التقط الحركة السريعة التي انتهت باختفاء البيانو. لقد سحبها هذا الشيء أيًا كان واحتفظ بها معه خلف السيارة. مددت بصري للحديقة فوجدت الدب الأحمر قد اختفى هو الآخر.

- يخربيت الشجرة دي.

همست لنفسي وأنا أعاني كي أرى بوضوح من بين أفرع الشجرة التي...

استنى، قلت لنفسي، هي الفروع دي كلها جت منين؟ دي الشجرة كلها مكنش فيها سبع تمن فروع.

جفلت عندما تحرك هذا الشيء مرة أخرى والتقط ما تركه الأب عند رصيف عمارته. حينها اتضحت لي الفكرة المرعبة.

لقد وضع هذا الشخص الألعاب كي تستدرج شيء ما من الحديقة للعمارة و...

طاااخ.

جف الدم في عروقي حين سمعت هذا الصوت.

t.me/qurssan

لم يكن في الشارع.

لم يكن في العمارة التي بجوارنا والتي ذهب إليها هذا الشيء ولا في عمارتنا أيضًا.

لقد كان باب يُغلَق بعنف، في شقتي.

بخطى سريعة خرجت من الغرفة وهتفت في الشقة المظلمة:

- (نهى)!!

سمعت همسًا.

أنصتّ للحظة كي أحدد مكانها لكني لم أتمكن من ذلك. استجمعت شجاعتي التي شعرت إنها ستخونني قريبًا لو استمر الحال على هذا المنوال وذهبت لأنظر في الحمام فلم أجدها. ثم مددت يدي كي أنير الممر الصغير، هنا رأيت مصدر الصوت.

كليك.

كان هذا صوت قفل باب الشقة وهو يُفْتَح ببطء.

هناك من يقف بالخارج.

- (نهى)!!

توقف الباب عن الحركة. ابتلعت ريقي وتحركت باتجاهه فاتحًا جميع

t.me/qurssan

الأبواب في طريقي لعلي أجد (نهى) خلف أحدهم.

زيييييء.

تسمّرت مكاني وأنا أرى باب الشقة يتحرك مرة أخرى. ثم سمعت صوت همس. على ضوء الممر القادم من خلفي رأيت (نهى) تقف على عتبة الشقة من الخارج في طريقها للدخول. تمسك الباب بيدها اليسرى وتنظر عن يسارها إلى منور السلم المظلم.

- ن... ن... (نهى)!

ناديتها على استحياء فانتفضت هي كالملسوعة واستدارت لتدخل بسرعة ثم أغلقت الباب بعنف.

- كنتي بتعملي إيه بره يا (نهى)؟ كنتي بتكلمي مين؟

لمَ ترد (نهى). لم ترد لأنها حملقت في وجهي مذعورة لأقل من الثانية ثم وضعت يدها على صدرها كأنها تندب. أطلقت بعدها تنهيدة طويلة قبل أن تستلقى على الأرض وتغط في النوم.

أمام باب الشقة.

***

t.me/qurssan

حاولت الاحتفاظ بهدوئي قدر المستطاع وأنا أتأمل في (نهى) بعد أن حملتها بصعوبة بالغة ووضعتها في الفراش.

المخيف في الأمر ليس فقط أفعال زوجتي لكن أيضًا تلك الرائحة اللعينة التي تخرج من ملابسها. رائحة تذكرني بتلك التي شممتها عند دخولنا الحديقة. لكنها لم تدم طويلًا فلسبب ما بدأت رائحة الموت تلك تتلاشى.

«إيه اللي بيحصلّك يا (نهى)؟ مش أعراض حمل دي». قلت في قرارة نفسي. «وإيه حكاية التنهيدة اللي الناس كلها بتعملها دي؟»

الشوك.

باب الشقة.

الرائحة.

عندها تنبهت إلى شيء واضح كالشمس: إن (نهى) تزور الحديقة في الخفاء.

***

قررت أن أشغل نفسي بأي شيء حتى الصباح بعد أن فقدت الأمل تمامًا في النوم وفي الوصول لتفسير منطقي لما يحدث لـ(نهى). جلست في الشرفة على الأريكة وفتحت الحاسوب لأشغل نفسي ببعض الألعاب فلم

t.me/qurssan

يكن لدي القدرة على النظر في البريد الإلكتروني.

دون أن أشعر مضى الوقت سريعًا وأنا أقتل مصاصي الدماء والموتى الأحياء حتى رأيت النور الأزرق الفيروزي قد بدأ يظهر في السماء. نهضت لعمل فنجان قهوة وقد شعرت براحة من فكرة قدوم النهار لعلي - تأثرًا بالألعاب التي كنت أضيّع فيها وقتي طوال الليل - ظننت أن الإثارة قد انتهت مع انقضاء الليل.

لكني كنت مخطئ.

عدت بالفنجان الساخن ورائحة القهوة الزكية تملأ المكان وجلست مرة أخرى أمام اللاب. فتحت ملف به مجموعة أفلام محاولًا اختيار فيلمًا مناسبًا لكن وصول إيميل من (رامي)، صديقي عاشق اللغويات، أنساني ما كنت أبحث عنه.

قرأت الرد و...

سمعت الصرخة.

انتفضت من جلستي لأنظر للشارع. هناك رأيت مشهدًا صادمًا.

رأيت الرجل الماليزي يتشاجر مع زوجته - التي نزلت من منزلها بدون حجاب - في منتصف الشارع وكلاهما برداء المنزل. لم يكن هذا ما صدمني. ما صدمني وجعلني أهرع لأنزل لهما هو ما كانا يتشاجران عليه.

كان كلًا منهما يمسك بأحد ذراعي ابنتهما.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

12

لم يستغرق النقيب (أمير) أكثر من نصف ساعة وكان يدخل من الممر الخارجي المؤدي لمربع (المحروقي).

- لوحدي المرة دي. أنا مش هنا بصورة رسمية.

قالها لي وهو يرتجل من السيارة وعينيه على المرأة التي احتضنت ابنتها في منتصف الشارع والأب يقف أمامها بلا حيلة. تهمس المرأة بشيء في أذن ابنتها التي دفنت وجهها في شعر أمها الأسود الناعم المنسدل على كتفها.

- إيه اللي بيحصل؟

سألني (أمير) وهو ينضم إليَّ أمام عمارتي ويستند مثلي على إحدى السيارات.

t.me/qurssan

- بقالهم كده من ساعة ما كلمتك.

- هي الست بتقول لبنتها إيه؟

- بص يا (أمير)، واسمحلي أشيل الألقاب، البنت دي ما كانتش مع جدتها.

- أومال فين؟

- اسمع اللي شفته بالليل.

رويت له تصرفات الأب والألعاب التي وزعها في المسافة بين عمارتهم والحديقة. استمع إليَّ بتركيز ثم ابتسم قائلًا:

- الجنينة برضه؟

- فاكر أول يوم جيت فيه؟

- أيوة.

- الراجل مكنش عايزك تاخد أقوال مراته. هم الاتنين بيتكلموا إنجليزي على فكرة.

- يا ولاد الـ...

- مش بس كده. عارف الورقة اللي لاقيناها في كشك (المحروقي)؟ عارف كان مكتوب عليها إيه؟

t.me/qurssan

نظر إليَّ باهتمام وهز رأسه بتساؤل.

- «لا تبحثوا عني»، بالماليزي.

نظر للحديقة وذهب بتفكيره بعيدًا دون أن يعلق. التفتُّ بدوري للأسرة المكلومة ورأيت الأب يراقب المشهد باستسلام وعينيه الدامية من قلة النوم والبكاء ترمي الحديقة بنظرات نارية.

ثم انفجر.

صرخ بأعلى صوته وانحنى ليلتقط حجر صغير من على الأرض وبكل قوته قذفه على الشجرة التي تخترق سماء الحديقة.

استغلت المرأة الموقف وتقهقرت لعمارتها وابنتها على كتفها. نظر الأب إلينا والدموع تنساب على وجنتيه ثم استدار ليدخل خلف زوجته.

- ما تروح تكلمه، قلت (لأمير)، مارس سلطاتك.

- ما ينفعش. بعد العربية الدبلوماسية بتاعة امبارح دي ماينفعش نتدخل إلا بتوجيه من الخارجية.

- يعني هنسبهم كده. الناس دي في مشكلة ومشكلة مخيفة ممكن تؤذي المنطقة كلها.

- هو اللي عمل في نفسه كده بعد حركة العربية الدبلوماسية دي. وبعدين ليه بتقول إن المشكلة بتاعتهم هتضر ناس تانية؟

t.me/qurssan

- البنت.

- مالها؟

- دراعها وهي بتحضن مامتها كان عامل زي دراع مراتي بالظبط.

***

مرة أخرى جلست أحتسي القهوة مع صديقي الجديد. وجدت أشياء أخرى مشتركة مع (أمير) غير تاريخ مربع (المحروقي) الأسود فنحن أبناء حي واحد وأعمارنا متقاربة. لكنني تزوجت في سن متأخرة عنه فهو لديه طفل عمره ثلاثة أعوام هو قرة عينه. لذا لم يكن صعب إيجاد موضوع للنقاش.

كنت أطمئن كل حين وآخر على (نهى) التي ظلت نائمة حتى اقتربت صلاة الجمعة. انتظرنا مكالمة هامة من قائد (أمير) المباشر ولم نجد مكانًا أفضل للانتظار إلا شرفة بيتي التي تكشف المنطقة كلها.

استغلينا الفرصة لنناقش قضية الشخص الغامض الذي كان يزور والدتي قبيل وفاتها فلم أستطع أن أخفي عنه الأمر أكثر من هذا. استمع (أمير) للتسجيل وقال:

- ده صوتك.

- ما هو ده اللي هيجنني. زي ما أنت شفت في الباسبور، أنا ما طلعتش

t.me/qurssan

من البلد اللي كنت شغال فيها في الخمستاشر سنة اللي فاتت.

- يعني ما نزلتش ولا مرة تشوف والدتك؟ مش غريبة شوية دي؟

أطرقت للحظة ثم أجبته بصوت متهدج:

- كانت بترفض. كل مرة تقولي أي حِجَّة علشان مانزلش. زي ما يكون...

نظر (أمير) لجنينة (المحروقي) وأكمل جملتي:

- بتحميك من حاجة.

ساد الصمت لوهلة قضيناها في تدبر فيما قاله لتوه وعيوننا تحاول اختراق أحراش الحديقة. نظر إليَّ بعدها قائلًا:

- يعني أنت كنت هناك وأنت عندك كام سنة؟ تلاتة وعشرين؟

- تقريبًا.

- طب إزاي مش فاكر حد من جيرانك؟

- لأنهم فعلًا مكانوش موجودين قبل ما أسافر. أنا فاكر جيراني القدام. الوحيدة اللي منهم هي طنط (سوسن) وممكن يكون الشاب اللي شاورلي من بلكونته. بس كان ساعتها طفل لسه.

- يعني الباقي دول كلهم جُدُدّ؟

t.me/qurssan

- بالظبط.

وضع يديه خلف رأسه ليريحها على كفيه وهو يتأمل من النافذة.

- ومعرفتش منهم أي حاجة؟ ولا حتى (محروس)؟ محدش أكّد أو نفى موضوع اللي كان بيزور والدتك ده؟

- ولا أي حاجة. زيّ ما يكونوا متفقين.

- وكلهم متفقين برضه إنك لازم بأي طريقة ماتقعدش في البيت النهاردة؟

- بالظبط.

- هى دي أغرب حاجة فى الموضوع كله على فكرة. وبصراحة حقك تقلق. طب ما تسيب البيت النهاردة فعلًا.

- أهرب يعني؟

- لأ مش تهرب. بس احتياطي.

- مش ممكن.

- ده عِنْد بقى؟

- لأ مش عِنْد. أنا حاسس إن النهاردة بالليل في حاجة مهمة هتحصل وتخليني أفهم. أنا بصراحة أصلي شاكك في الناس دي كلها وأولهم (محروس) و(عادل).

t.me/qurssan

دقّ هاتف (أمير) فرفع إصبعه كي يحثني على السكوت. وضع الهاتف على أذنه ونهض قائلًا:

- (عصام) باشا. عملتلي إيه سيادتك؟

تركته ينهي مكالمته ونهضت لجلب فنجانين قهوة آخرين. ذهبت الى المطبخ وبدأت في إعداد القهوة وأنا أسمع أطراف حديث (أمير) بالخارج وقد بدا لي إنه يواجه صعوبة في إقناع العقيد (عصام) بما يريد أن يفعله. حاولت الاستمتاع برائحة القهوة المميزة فأخذت نفسًا عميقًا محملًا برائحة...

البخور.

فتحت عيني ونظرت حولي باحثًا عن مصدر هذه الرائحة اللعينة. لا تسيء فهمي فأنا لست ضد البخور في العموم لكن ليس في كل وقت وفي أي مكان وليس بهذه القوة. لقد كانت بخور قوية حقًا.

لم يكن مصدرها المطبخ لذا فقد خرجت ببطء ووقفت في الردهة القصيرة. كان (أمير) لا يزال في معركته التليفونية فالتفتّ إلى الاتجاه الآخر: إلى غرفة النوم. تقدمت ببطء وفتحت باب الحمام في طريقي فلم أجد شيئًا. حتى وصلت إلى غرفة نومي. وفتحت الباب.

- بتعملي إيه يا (نهى)؟

سألت زوجتي التي كانت جالسة على ركبتيها أمام الطاولة الصغيرة. على

t.me/qurssan

الطاولة كوب ممتلئ لنصفه بالرمال التي تخترقها أعواد البخور المشتعلة.

- أستاذ (كريم)! ناداني (أمير). العقيد (عصام) وافق على...

كنت أنا من رفع إصبعه هذه المرة كي أحثه على السكوت. أنصتُّ لزوجتي التي التفتت إليَّ وقالت بمنتهى البراءة:

- دي بخور يا (كريم). إحنا جايلنا ضيوف النهاردة.

t.me/qurssan

13

لقد عشت طفولة سعيدة حقًا. لم أكن أكذب أو أُجَمِّل الحقيقة حين قلت أني لا أتذكر حقًا تفاصيل كل تلك الروايات المخيفة والمظلمة. أذكر بالطبع الأساطير التي نُسجت حول الحديقة الصغيرة الموحشة والمربع السكني ككل لكنها لم تكن غير ذلك: قصص وأساطير كبرنا معها حتى تخطّيناها ثم نسيناها.

كنّا نلعب صغارًا في الشارع أمام البيت، ومَن مِن جيلنا لم يفعل؟ لكن الحق يقال إننا لم نر أي شيء «حقيقي» من تلك الروايات. لم نكن نتحدى بعضنا لنرى من يدخل الحديقة ويخرج منها ليخبرنا ماذا رأي في الكوخ، ذلك المبنى الخشبي المتهالك الذي كنا نراه بصعوبة من بين الأفرع والسور

t.me/qurssan

المتشابك والذي كان يعيش به هذا الكائن الضخم المسالم الذي يسمى (المحروقي).

نعم، لقد كان (المحروقي) كائنًا مسالمًا حقًا، عكس كل ما كان يقال عنه. كان قليل الظهور حيث أنه يمكن أن يمر شهور دون أن نلمح طرف جلبابه الداكن في الطرقات أو نرى عمامته المُتربَة من فوق السور. كان يخرج في الخفاء ويعود في الخفاء منتقيًا أوقات هادئة. لكن عندما يحدث ذلك، عندما تأتي الصدفة أن يكون أحدنا متواجد، يتلقى ابتسامة ودودة من الحارس الصعيدي العملاق. بل لو أخذتم رأيي، كانت ابتسامته حزينة. كان (المحروقي) قليل الظهور كالطيف لذا فنحن بالفعل لا نتذكره.

ثم توقف عن الظهور تمامًا عند بلوغي سن المراهقة. لم يعيره أحد انتباهًا، وهو لم يكن يحرس شيئًا في واقع الأمر، فلم نحاول معرفة السبب.

ربما... ربما كان هناك صوت بكاء نسمعه من حين لآخر يخرج من الحديقة. وهناك الوهج الذي كان يظهر أحيانًا. ربما، لكنني لا أتذكر جيدًا.

اختفى (المحروقي) وقصصه. لكن هذا لم يجعل الكلاب والقطط تعود لترتع في منطقتنا كأنها قد أصبحت محرمةً عليهم.

توالت السنون بعد ذلك وبدأ كل من أعضاء عصابة الطفولة يهتم بشأنه. بدون سبب أو اتفاق مسبق - على حد علمي - هجر جميع من هم في جيلي المنطقة. حتى أنا، أرسلتني أمي لابنة عمها بالزقازيق التي كنت أمضي معها معظم الوقت.

t.me/qurssan

ثم بدأت المنطقة تتحول إلى أطلال من الشقق المترية ولم يبق للجيل السابق لنا، أهلنا وذوينا، إلا الذكريات. لكنهم رغم ذلك، رغم الوحدة والوحشة، لم يطلبوا منا الرجوع.

ولو حتى مرة واحدة.

بل إن الأمر أحيانًا قد يصل إلى حد المنع مثل ما حدث معي.

نعم أذكر ذلك بمنتهى الدقة: لقد منعتني أمي من العودة نهائيًا.

والآن وقد قال (أمير) ما قاله فقد بات لدي تفسير شبه مقنع...

لقد كانت أمي تحميني من شيء.

***

- يعني أنتِ مش فاكرة أي حاجة.

كان هذا سؤالي إلى (نهى) ونحن جالسون حول سفرة الطعام. عيناها ثابتة على كوب القهوة الأمريكي وإجابتها خرجت صادقة.

- لأ يا (كريم) والله. بقولك ولا حتى فاكرة كنت بحلم بإيه. كل اللي فاكراه هو إني كنت نايمة بعمق شديد. إنت بتخوفني ليه يا (كريم)؟

وقف بجانبنا النقيب (أمير) يتابع بتركيز الحوار العجيب. تبادلت معه نظرة قلقة قبل أن يستجمع شجاعته ويسأل:

t.me/qurssan

- ولا البخور ولا باب الشقة؟ ولا حتى فاكرة الشوك اللي في دراع حضرتك ده جه إزاي؟

هزت رأسها نفيًا. قطع حوارنا صوت قرآن صلاة الجمعة فقال (أمير):

- يلا ننزل الصلاة وبعدها نبقى نتصرف مع جيرانكوا دول. العقيد (عصام) إداني ضوء أخضر بسيط هستغِلُّه علشان نفهم. يُشكر طبعًا.

التفتُّ إلى (نهى) قائلًا:

- أنزل الصلاة؟

- أيوة أنا كويسة والله. انزل. شكرًا يا فندم على اهتمامك.

وجهت جملتها الأخيرة (الأمير) الذي أومأ برأسه بلباقة وحانت منه نظرة خاطفة لذراعها السليم الذي ظهرت عليه آثار الحكة هو الآخر.

نهضت لاصطحب ضيفي لباب الشقة وفتحته له. استدرت لابتسم لزوجتي مودعًا ثم خرجت من الباب لأصطدم بـ(أمير).

- لا مؤاخذة. وقفت ليه؟

كان يقف على الممسحة يحرك قدمه عليها.

- في حاجة تحت الممسحة.

- لأ!! تاني!!!

t.me/qurssan

هتفت وأبعدته من فوق الممسحة ثم انحنيت لأرفع طرفها وأنا أعتذر بشدة.

– في إيه؟

لم أرد عليه لأني كنت في حالة ذهول.

نعم. ما ظننته صحيحًا. لقد كان المفتاح تحت الممسحة.

***

انتهت صلاة الجمعة وانضممت إلى (أمير) عائدان إلى جنينة (المحروقي). توقفنا عند أول الممر المؤدي للمربع وانتظرنا.

سألني عن المفتاح فرويت له قصته العجيبة. لم تبد إنها راقت له فتعبير وجهه كان أقرب إلى الاستخفاف منه إلى التصديق.

مر أمامنا اثنان من سكان المربع لم أرهما من قبل. نظر لي (أمير) فهززت رأسي إني لا أعرفهما. أنتظرت حتى ابتعدا ثم أشرت إليهما قائلًا:

– معاهم أكياس زبالة فاضية. شوية وهتلاقيهم نازلين يلفوا بيها حوالين الجنينة بعد ما يحطوا فيها أكل.

– اشمعني يعني؟ سألني باستغراب.

– كل السكان هنا بيعملوا كده.

t.me/qurssan

مط شفتيه بتعجب وقال:

- آه يا منطقة مناخوليا.

كان أول من استقبلناه من الوجوه المعروفة هو الدكتور (عادل) ببنيته الضخمة المحنيّة ووجهه الأحمر المبتسم. ألقي السلام وسألني إن كنت قد زرت أمي حتى الآن فأجبته بالنفي. فحثّني لزيارتها ذلك اليوم وتمضية الليل في الفيوم، ثم انصرف.

تبادلنا أنا و(أمير) نظرة ذات معنى ثم التفتنا لذلك الوجه الطويل والكتفين الضيقين. في الحقيقة لم يعرنا الأستاذ (سامي) أي انتباه، كأنه لا يرانا، وبدا ذلك متعمدًا. فقط مر أمامنا وشفتاه مضمومتان بقوة كعادته. لم أدر ماذا كان يفعل (سامي) خارج المربع السكني في هذا الوقت لكنه لم يكن يصلي الجمعة بالتأكيد.

انتظرنا فترة بعدها لم يأتِ أحد. لمحنا من بعيد (محروس) يخرج من جحره ليتحدث مع نفس الشخص الغريب الذي طرده من المنطقة منذ يومين.

- شكل مافيش حد بيصلّي الجمعة تاني عندكوا. ده لو فرضنا إن (سامي) ده مش مسيحي.

- فعلًا. عمومًا أنا لازم أطلع لمراتي.

- اتفضل أنت وأنا هروح للناس بتوع ماليزيا دول. العقيد (عصام)...

قطع كلامه وحدّق في المشهد عند (محروس) وقال:

t.me/qurssan

- مين ده؟

- شكله سمسار. والغريبة إن (محروس) طرده من كام يوم ودلوقتي شكلهم حبايب.

- طب سيبهولي واتفضل روح لمراتك أنت لو عايز. وعلى فكرة، غالبًا هي اللي حطت المفتاح تحت المسحة تاني. لازم تستشير دكتور. ممكن كل اللى بتمر بيه ده يكون بسبب الحمل. أو بتمشي وهى نايمة مثلًا.

«بتمشي وهي نايمة؟»

تساءلت في قرارة نفسي وأنا أراقب (نهى) وهي تتهادى بحملها الثقيل في أنحاء المنزل.

هل أخطأت بجلب زوجتي معي؟

لقد تجاهلت رغبتها في العودة وها هي الآن...

طردت تلك الأفكار من رأسي فلابد أن أصَفِّي ذهني لأفكر في حل لغز زائر أمي المجهول، فما زال له الأولوية. لذا فقد قررت الذهاب لـ(عبد اللطيف) المحامي بعد الغداء. لكن كيف أستطيع ترك (نهى) وحدها؟

لن أفضحها مع صديقاتها.

حسنًا. ليس لدي حل آخر.

طنط (سوسن).

t.me/qurssan

t.me/qurssan

14

استوقفت سيارة أجرة لأذهب إلى محامي العائلة الفذّ. لكن قبل أن أركبها لمحت العائلة الماليزية تخرج من بنايتهم ومعهم حقائبهم ومتاعهم. بدوا لي على عجالة من أمرهم.

كأنهم يهربون من شيء. أردت أن أذهب لأطمئن على ابنتها لكنها كانت داخل سيارة السفارة بالفعل. وجعلني منظر وحجم السائق / الحارس ونظرات عينيه العدائية أحجم عن تنفيذ فكرتي وأستقل التاكسي الذي أوقفته.

ذكرني هذا بالنقيب (أمير) فاتصلت به.

- إيه الأخبار؟ وصلت لحاجة مع حد من السكان؟

t.me/qurssan

رد ضاحكًا:

- ده أنت الناس اللي ساكنين عندك دول رايحة منهم خالص. بس هقولك حاجة على (محروس) بعمل تحرياتي عليها دلوقتي.

- إيه هي؟

- الراجل اللي كان معاه فعلًا سمسار وبقالهم فترة بيشتغلوا مع بعض.

- بيشتغلوا مع بعض؟

- أيوة. بيجيبله زبائن للشقق الفاضية. أنت عارف الناس دي بتدفع كام في الشهر؟

- كام؟

- عشرين ألف.

- إيه؟؟؟

كدت أتسبب في وقوعنا من فوق كوبري التجمع الخامس بسبب هذه الصرخة.

- استنى، ده مش كل حاجة. معلومة إن معظم الناس بتيجي ليلة واحدة بس في الأسبوع دي أكيدة. زي الناس اللي شفتهم بيدخلوا الشقة اللي تحت (عادل).

t.me/qurssan

- طب ليه طرد السمسار من كام يوم؟ ده كنز بالنسبا له.

- مش عارف. بس من ساعة ما جابله الماليزيين وهم مش على وفاق.

- صحيح، أنا شفتهم ماشيين النهاردة.

- يلا مع السلامة. خلّيهم ياخدوا مشاكلهم ويغوروا.

- فكرك ليه الناس بتدفع الأرقام دي؟

- ده اللي بحاول أعرفه. بس أنت شكلك في عربية، رايح فين؟

- رايح للمحامي. لازم أفهم مين اللي كان بيزور أمي ده.

- سايب مراتك لوحدها؟

- لأ. مع طنط (سوسن).

- ...؟

***

- فيه حاجة كانت بتحصل لأمي قبل ما تموت يا أستاذ (عبد اللطيف) وجيراني مشتركين فيها ولازم أعرفها.

- صدقني يا (كريم) يا بني. أنا هتجنن زيّك بالظبط. أنت متخيل إني كنت بسمع صوتك طول الخمستاشر سنة اللي فاتت وأنت أصلًا مش في مصر. ده أنا كلمتك أكتر من مرة.

t.me/qurssan

نظرت إلى عينيه الضيقتين التي تتوسط رأسه الكبير محاولًا تصديقه. كان يحاول بجسده الضئيل أن يعلو فوق المكتب بالقدر الكافي لحفظ هيبته خصوصًا أمام غوريلا آدمية مثلي.

- ممكن أعرف ليه شاكك في جيرانك؟

نظرت إلى وجهه الممتلئ مثلث الحجم وتأملت ابتسامته التي بدأت أقتنع إنها وضع شفتيه الطبيعي. للأسف لم أكن واثق به فجاء ردي:

- إحساس كده.

- ما هو لازم يكون فيه سبب أو منطق لاتهاماتنا.

- ماشي. خلّينا نفكّر بالمنطق. هل في حد من قرايبنا حاول يتصل بيك علشان ورث أو حاجة؟ ممكن يكون هو اللي انتحل شخصيتي.

- ولا أي حاجة من دي. وبعدين يضحك على الحاجّة إزّاي؟ ويقلد صوتك وهو معاها إزّاي؟

- عندك حق. طب فيه رسالة تانية؟

هز رأسه إيجابًا ببطء لكنه لم يبد إنه كان مرحبًا بهذا السؤال فقد اعتدل في جلسته وهرب ببصره للأوراق الملقاة على مكتبه.

- وساكت كل ده؟ عايز أسمعها لو سمحت.

t.me/qurssan

نظر إليَّ متردداً.

- لو سمحت!!

مد يده لمحموله وفتح ملف الرسائل. ثم أسمعني الرسالة.

«سلام عليكم يا أستاذ (عبد النبي). أنا عندي طلب لو سمحت. مش عارفة أوصلك بالتليفون من الصبح».

(صوت شيء يفتح - درج خشبي أو ما شابه)

«عايزة طلب لو سمحت»

(صوت معالق وأدوات مطبخية)

«عايزة منك حاجة ضروري»

«ما تقوليله عايزة إيه. ما تزهقيهوش» (كان هذا صوتي)

«خلّصت تأوير الكوسة؟» (بصوت أمي)

انتهت الرسالة دون أن تطلب أمي شيئًا. نظر إليَّ (عبد اللطيف) برفق وقال:

- بتعمل في نفسك كده ليه يا بنى؟

- إيه المشكلة؟ أحب أسمع صوت أمي.

كان ردي على (عبد اللطيف) وعيني تلألأ فيها الدموع. لكني تغلبت

t.me/qurssan

عليها وقلت:

- اللي بيحصل ده مستحيل. كان إمتى التسجيل ده؟

- من سنة كده.

قررت أن أشاركه بعض شكوكي المبدأية.

- بُص، أنا متأكد إن في حاجة غريبة في المربع اللي أنا ساكن فيه. الناس اللي مأجّرين الشقق شكلهم عارفين حاجة ومخبّيينها. وقبلهم الزفت (محروس) البواب.

التفتّ إليه لأجده يمط شفتيه للأمام محاولًا إستيعاب ما أقول فعاجلته بسؤالي:

- أنت ما حضرتش الدفنة؟ صح؟

هز رأسه سعيدًا بنجاحه في الإجابة.

- ولا كنت موجود ساعة الغُسْل؟

- ولا دي.

- يبقي أنا لازم أروح أشوف بنفسي. وهتيجي معايا.

***

t.me/qurssan

قضينا ساعة في الطريق إلى الفيوم إلى أن وجدنا أنفسنا أمام مقابر الأسرة. قمت باتصال سريع للاطمئنان على (نهى) فالساعة كانت قد قاربت على الثالثة أي أني تركتها منذ ما يزيد على الثلاث ساعات.

– طنط (سوسن) عامله معاكي إيه؟

– زي العسل، قالتها ضاحكة، يخرب بيت خفة الدم. قعدت قالتلي شوية فضايح عنك أنت وأصحابك وإنتوا صغيرين.

– أوبا. استري عليّا بقى.

غيرت نبرتها لأخرى جادة وهي تقول:

– بقولك إيه، تيجي نبات عندها النهاردة؟ تغيير يعني.

– هي طلبت ده منك؟

– عرضت عليّا. محتاجة حد علشان...

– التلاجة. عارف. قالتلي.

– وكمان (محروس) بيقول المية هتقطع وهيجيبوا حد يرش العمارة علشان الحشرات.

– نتكلم لما أرجع. خلي بالك من (دينا) بس.

– (دينا) مين؟؟

t.me/qurssan

- (ياسين) قصدي، ابننا.

- هاها. حاضر.

أسرعنا للمقبرة وطلب (عبد اللطيف) من أحد العاملين على خدمة المقابر أن يأتي معنا لمساعدتنا. أوقفنا السيارة على بداية طريق رملي محاط بأسوار المقابر وقليل من أشجار الليمون.

- إنتوا رايحين مقبرة مين إن شاء الله؟

- (عبد الظاهر السيوفي).

كان رد (عبد اللطيف) الذي توقف العامل حين سمعه فالتفتنا إليه في تساؤل.

- لا يا باشا مع نفسك.

كان رده واستدار ليعود ادراجه.

- الله، استني بس. قلتها وأنا أشير إليه. هناخد ربع ساعة بس. هظبّطك.

أشاح بيده وهتف وهو يمد الخطى مبتعدًا عنّا:

- والله لو هتدوني ألف جنيه مش معتّب ناحية المقبرة دي.

- طب...

t.me/qurssan

لم يرد لأنه أخذ المسافة المتبقية حتى أول الطريق الرملي عدوًا.

- إيه الجنان ده؟

- ده مدلوله خطير يا أستاذ (كريم).

- طظ فيه. أنا رايح أشوف أمي.

قلتها بغضب واستدرت متجهًا للمدفن.

- استنى بس. هتروح تعمل إيه؟

- هفتحه.

- ما ينفعش.

صاح (عبد اللطيف) وهو يهرول خلفي.

- ليه إن شاء الله؟ أنا ممكن أفتحها. مش محتاجين عمّال.

- لأ محتاجين معانا عمال علشان نعرف نفتحها. والأهم من ده محتاجين تصريح النيابة.

توقفت واستدرت له صائحًا:

- يعني هيمنعوني أشوف أمي؟

- من غير تصريح أيوة هيمنعوك. كان رده عليّ ثم أشار لمقبرة على يساري. هي دي المقبرة وزي ما أنت شايف مستحيل نفتح باب الحوش لوحدنا ناهيك عن المقبرة نفسها.

t.me/qurssan

استدرت لأواجه الباب الحديدي الصدئ واقتربت منه لأنظر للحوش المهمل وغمغمت:

- سامحيني يا أمي.

- مش يلا بينا بقى؟ الليل قرب.

قالها (عبد اللطيف) وهو يتلفت حوله في قلق مضيفًا:

- إحنا مش عارفين الواد ده كان خايف من إيه.

تأملت في قبر أمي ولم أعقب لأنه كان محقًا.

فما فعله العامل لتوه كان مقلقًا للغاية.

ما الذي تخفيه عني يا أمي؟

t.me/qurssan

15

أوصلني (عبد اللطيف) مشكورًا للمنزل وتركته بعد اتفاقنا على الإسراع في إجراءات الإرث. فقد بدأت أكره بقائي في مصر وخوفي على زوجتي ووليدي الذي في الطريق قد بلغ أشده. بالإضافة إلى أني لم أعد أثق في جيراني.

حسنًا ربما ليس طنط (سوسن)، فهناك شيء ما محبب فيها، ربما لمعرفتي إنها كانت صديقة أمي المقربة. لكني في النهاية أصبحت أمنيتي الوحيدة أن تنتهي فترة بقائي في مصر على خير.

كلا. ليست الوحيدة. لابد أن أعرف ما حدث لأمي. فلو كنت قد نسيتها في حياتها لن أنساها في مماتها. يكفيني ما كنت أشعر به من ندم.

t.me/qurssan

قمت بالاتصال بالنقيب (أمير) لأخبره بما حدث فوعدني بلقاء لأنه توصل لشيء لكنه يحتاج لبعض الوقت للتأكد منه.

«اقفل عليك بابك كويس. الليلة دي بالذات» كان تحذيره الذي أفزعني في نهاية المكالمة.

انحنيت على نافذة السيارة لأقول لـ(عبد اللطيف):

- لو عندك رسايل من أمي تاني ابعتهالي.

- حاضر. ولو إني شايفها كتير عليك.

- معلش. عايز أسمعهم بروقان. يمكن أفهم حاجة.

هز رأسه وأدار محرك سيارته ثم تسمَّر على وضعه وحدق في نقطة ما أمامه.

صرفت بصري لما ينظر إليه فوجدت وجه الدكتور (عادل) الأحمر الضخم ينظر إلينا من خلف ستارة النافذة.

هنا قال (عبد اللطيف):

- عندك حق. الناس دي شكلها بتراقبك.

- ها يا باشا، هتروح الفندق بتاعنا النهاردة ولّا إيه؟

جاء هذا الهتاف من خلفي فاستدرت لأجد الطيار (شريف) بقامته

t.me/qurssan

الفارعة الرفيعة التي تعلو فوقي بخمسة سنتيمترات على الأقل والابتسامة تشق وجهه الأسمر نصفين. أقبل عليّ وهو يجر حقيبته وهاتفه على أذنه.

- لا والله قاعدين مش ماشيين.

قلتها بأقصى قدر من السخافة ممكنة. لكنه لم يتوانى عن الإلحاح.

- هيفوتك نص عمرك. النهاردة فيه الفنان يوسف العسال. هتبقى حفلة جامدة جدًا.

- معلش.

قلتها وأدرت ظهري له مضيفًا نكهة غضب على السخافة حتى أصبحت لا أطيق نفسي.

ظل (شريف) واقفًا خلفي ولم يتحرك بينما أدخلت رأسي من نافذة السيارة هربًا من الحوار معه. رفع (عبد اللطيف) حاجبه لكنه لم يتكلم. مرت ثواني ثقيلة قبل أن يتحرك (شريف) مبتعدًا.

- في إيه؟ سأل (عبد اللطيف).

قبل أن أجيب سمعت أحدهم ينادي:

- أستاذ (كريم)!! -

اعتدلت واقفًا واستدرت لأجد رجلًا بدينًا تدل ملامحه على تخطيه

t.me/qurssan

الخمسين في رداء رياضي. أتذكر أني رأيته في مكان ما. نعم، بعد صلاة الجمعة.

- أيوة؟

- إحنا ماتعرفناش قبل النهاردة. معلش طول الأسبوع شغل. أنا المهندس (أكمل).

- أهلًا وسهلًا.

كان ردي عليه وأنا أمد يدي ليده الممدودة.

ثم... لا شيء. لم ينطق بكلمة بعدها بل ظل واقفًا كأنه ينتظر شيئًا.

- خير يا باشمهندس؟

- آه. بقول لحضرتك النهاردة عندنا عيد ميلاد.

- كل سنة وأنتوا طيبين.

- فا... يعني كنت بقولك علشان الدوشة هتبقى جامدة. بعتذر مقدمًا. هاها.

- هاها. ماشي.

كان ردي بنفس مستوى السماجة التي مارستها مع (شريف).

- إحم. كان (محروس) بيقول إن حضرتك هتبات بره. صحيح الكلام ده؟ علشان الدوشة اللي هنعملها حتبقي فظيعة و...

t.me/qurssan

- أستاذ (كامل)...

- (أكمل)!

- أستاذ (أكمل)...

- باشمهندس.

- مش مهم!! بقول لحضرتك إيه، أنا مش سايب البيت النهاردة. فاهمني!!

ثم صحت بأعلى صوتي كي أسمع كل المنطقة:

- مش سايب البيت النهاردة. سامعين!!!!

تأكدت أن رسالتي وصلت حين رأيت الدكتور (عادل) ينسحب إلى ظلمة منزله. كذلك فعل أستاذ (سامي) وحرمه، وباقي سكان المنطقة، تقهقروا جميعًا إلى غياهب شققهم العتيقة حين صدت صرختي في المنطقة.

حتى (أكمل) هذا، وضع يده على صدره وأطلق تنهيدة طويلة قبل أن يستدير مغادرًا. أما (محروس) فظل يرمقني بثبات واهو جالس على أريكته الخشبية يعاقر الشيشة.

صدى أذان المغرب في الآذان لكنه لم يمنعني من الانتباه لخطوات أقدام نسائية. التفت خلفي لأجد طنط (سوسن) تمد الخطى من بنايتي إلى عمارتها. ألقت إليَّ بنظرة طويلة في طريقها بينما مر الطيار (شريف) بجانبها صاعدًا إلى شقته وهو يرمقني بقوة.

t.me/qurssan

- إيه اللي بيحصل يا أستاذ (كريم)؟

- المنطقة كلها يا أستاذ (عبد اللطيف).

- مالها.

- مش عايزنّي أفضل في الشقة النهاردة.

- إيه الكلام الغريب ده؟ ومين ده كمان؟

نظرت لما يشير إليه فوجدت الشاب الأسمر ذو الشعر الكثيف يلوّح إليَّ من شرفة شقته والتي كانت من الشقق القليلة التي لم يتم تقفيل شرفتها لتصبح غرفة.

«عايز إيه سليل المجانين ده؟» تساءلت.

- ده واحد من القليلين اللي لسه موجودين من أيام زمان. (ياسر) والا (حازم)، مش فاكر اسمه بالظبط.

- عايز ايه؟ بيشاورلك ليه؟ ده بيشاور على...

- على بيتي.

قلتها وركضت لشقتي.

***

t.me/qurssan

تجاهلت نداء (عبد اللطيف) المحامي وانطلقت داخل العمارة. لكنني وجدت نفسي محدقًا في الظلام الذي استقبلني لحظة دخولي المبنى.

لا أعرف سبب هذا الشعور الذي جاءني وأنا أنطلق عبر مدخل العمارة - شعور بأن هناك شيء ما مختلف. ربما هو صدى خطواتي بين الجدران القديمة أو ثقل الهواء حولي وبرودته في نفس الوقت.

لم يكن ظلامًا عاديًا، هذا الذي كنت أسبح فيه، كان شيئًا... أكثر كثافة. حتى ضوء الغروب تمنّع عن الدخول.

ثم جاءت الرائحة..

نعم هي كما استنتجت: رائحة البخور.

أخرجت محمولي وسلطت ضوئه أمامي كي أقلل الخسائر. تحسست طريقي صعودًا وأنا أسبّ طنط (سوسن). لا تسألني لماذا لكنني لم أجد أنسب منها لأصبّ عليها غضبي.

عند وصولي للطابق الذي به شقتي لمحت شعلة البخور المثبتة في إفريز شباك المنور. سلطت ضوء المحمول ناحية باب الشقة وأخرجت سلسلة المفاتيح. تأملت المفتاح القديم الذي أصبح عضوًا هامًا في السلسلة ثم لا إراديًا تحسست بقدمي على الممسحة. بالطبع لم يكن تحتها شيئًا فالمفتاح في يدي.

t.me/qurssan

هل هذا صوت المذياع؟

وضعت أذني على الباب وأنصتّ لما بدا لي كأغنية قديمة. تعجبت من هذا فلم تكن الأغاني القديمة مفضلة لدى (نهى).

فتحت باب الشقة ودخلت لأجدها في أبهى صورها. بغض النظر عن رائحة البخور التي تعبق الجو وتكاد تسحق حنجرتي فقد قامت (نهى) بمجهود رائع حقًا.

خطفت بصري لمعة خشب الأرضية والأثاث ونظافة السجاد والستائر وبريق أدوات الطعام وأطقم الأكل والنوافذ. هذا بالإضافة للورود التي تزين المكان والحالة العامة من النظام التي تشي بمجهود كبير.

– إيه ده كله؟ إيه يا (نهى) الكلام الكبير ده؟

قلتها وأنا أضع المفاتيح في الطبق المخصص لها بجوار الباب. ثم سحبتها بسرعة ووضعتها في جيبي مرة أخرى فلن أترك له الفرصة، هذا المفتاح اللعين. خرجَت (نهى) من المطبخ صائحة:

– أوعى تدخل بالجزمة. اقلعها لو سمحت على الباب.

أطعتها مبتسمًا وقد أخرجني ما رأيته من قلقي عليها. لكن استمر هذا الشعور يؤرقني.

هناك شيء مختلف.

t.me/qurssan

ثم جاءني هاتف في صورة سؤال.

لقد قامت (نهى) بمجهود خرافي لترتيب البيت وتنظيفه، كيف إذًا لم تنتبه لتلك الأوراق الخضراء القليلة التي ظهرت في أماكن متوارية من البيت؟

***

ساعات قليلة قضيتها مع زوجتي بين التهام عشاء فاخر وبين استرخاء لا يخلو من الحذر لم ينجح في جعلي أنسى شعوري بالترقب. ظللت أراقب كل حركة وأنصت لكل صوت وقد زاد «التوهان» الذي كانت زوجتي تغرق فيه من إحساسي بالخطر.

جاولت سؤالها عن أوراق الشجر لكن لم يبدو عليها أنها قد لاحظت ما أتكلم عنه. فانتقلت لسؤال آخر لعلها تفيق من حالة انعدام التركيز تلك.

- يعني لا رشّوا العمارة علشان الحشرات ولا المية اتقطعت.

قلت وأنا ألقي بجثتي الضخمة على الأريكة وأراقب رد فعلها.

أجابت بمنتهى البساطة:

- المفروض دى حاجة تبسطك. ولّا إيه؟

مططت شفتي وتركت الموضوع على هذا الحد ففيما يبدو إنني لن أحصل

t.me/qurssan

منها على أية إجابات وافية. ثم سألتها عن (سوسن) وكيف كان يومها معها فأجابت:

- زي العسل الست دي. قعدت تحكي في ذكرياتها وإزّاي جوزها مات فجأة يا عيني. كانت بتحبه قوي لدرجة إنها مش بتتغدى غير صينية البطاطس اللي كان بيحبها لغاية دلوقتي. وبعدين حكيتلي عليك أنت وأصحابك.

ضحكت (نهى) حين وصلت لتلك النقطة.

- أنت كانوا مسمينك «طناش»؟

يااااه. كنت ناسي الكلمة دي.

- ده اللي كنت خايف منه. فضحتني إزاي تاني الست دي؟ اعترف.

قامت لتجمع الأطباق واتجهت للمطبخ قائلة:

- دي عايزالها قاعدة. أعملك شاي بلبن معايا؟

شاي بلبن؟؟؟

- من إمتى بتشربي شاي بلبن؟

لم يأتِ ردها - فقط صوت كأنها تكشط سطحًا ما. نهضت متجهًا للحمام عابرًا بجوار المطبخ لألقي نظرة خاطفة عليها فوجدتها منكبّة على ذراعها تهرش فيه بكل قوة. هرعت إليها وقد رجع إليَّ قلقي كله.

t.me/qurssan

- ياه. لسه بتهرشك للدرجة دي؟

أنزَلَت كُمّ فستانها الأبيض الأنيق لتغطي الجزء الملتهب من ذراعها لكني لم أكن أنوي تجاهل الأمر. دخلت المطبخ ومددت يدي لأمنعها.

- مفيش حاجة يا (كريم). أنا كويسة.

قالتها وحاولت سحب يدها لكني منعتها. بطرف أناملي ضغط على شوكة لأخرجها بسرعة قبل أن تنجح هي في سحب ذراعها.

تأملت الشوكة بين أصابعي. كنت موقن أني رأيت مثلها في مكان ما.

نعم، ما اشتبك في ملابسي وأنا في طريقي خارجًا من الحديقة.

- محتاجين نزوّد البخور.

قالتها (نهى) واتجهت لطاولة المطبخ حيث يرقد بضع أعواد بخور.

- (نهى)، أنتِ نزلتي الجنينة، مش كدة؟

حدَّقَت في عيني لثوانٍ طويلة قبل أن تسحب يدها ببطء. لم أمنعها لكني سألتها ثانيةً:

- نزلتي؟ روحتي عند الجنينة اللي تحت؟

- قلت لك لأ.

t.me/qurssan

قالتها بآلية وشرود. تركتها تذهب لتفتح أحد الأدراج وتخرج منه عود بخور.

- استنّي هنا! إيه حكاية البخور دي؟ مش زادت شوية؟

- ماله البخور؟

- من إمتى يعني؟ وبعدين ريحتها قوية زيادة عن اللزوم.

- مش أحسن من...

توقفت عند مقطع هام للغاية فحثّتها على تكملة جملتها:

- أحسن من إيه؟

سألتها بهدوء كي لا أفزعها. شردت فجأة وقطبت حاجبيها كأنها تصارع فكرة ما تحاول الهرب منها.

- مش عارفة. مش فاكرة. هي طنط (سوسن) اللي قالت لي إني لازم أحط البخور. قالت لي ده لمصلحتي بس أنا ناسية السبب.

ثم تخلّصت من حالة الحيرة تلك وابتسمت قائلة:

- بقولك إيه، أنا طالع عيني طول اليوم في المطبخ والبيت. مفيش عندي دماغ للجدل ده. لو مش عاجبك البخور اطفيه.

لم أكذّب خبرًا ومررت على أعواد البخور المنتشرة في الشقة لأطفئها.

t.me/qurssan

لم تمر لحظات حتى تناهى إلى مسامعي الاحتفال التي حذرني بشأنها جاري العزيز المهندس (كامل) ولَّا (أكمل) ولَّا أي مصيبة تأخده.

نظرت من النافذة للعمارة التي تقع على يمين المدخل مباشرةً حيث شقة الأخير.

- مش تقولي رأيك إيه في الأكل؟

سألتني (نهى) من داخل المطبخ.

كان تركيزي ما زال مُنصَبّ على شقة (أكمل). من هناك تأتي أصداء الأغاني والموسيقى الصاخبة. لكن لا يوجد أي مظاهر أخرى. لا أضواء ولا حركة.

- تحفة. تعبتي يا حبيبتي. عايزة مساعدة؟

قلتها بدون انتباه حقيقي للحوار وأنا أحدق أسفل بنايته حيث لم أر سيارات تخص الضيوف.

هل هذه الحفلة لأهل البيت فقط؟

- ممكن تساعدني وتأوَّر الكوسة؟

ببطء شديد حَوَّلت عيني عن بناية (أكمل) إلى المطبخ.

هل قالت كوسة؟

t.me/qurssan

تذكرت رسالة أمي المسجلة التي أرسلتها إلى (عبداللطيف) المحامي.

لم أعد أفهم شيئًا.

نظرت خارج النافذة باتجاه عمارة (ياسر) فوجدته ما زال في الشرفة يلوح بيديه بجنون.

لماذا يشير إليَّ ثم إلى مدخل المربع؟

هل يريدني أن أرحل؟

والآن يشير إلى الحديقة.

الحديقة...

نظرت إلى الحديقة اللعينة المستترة خلف الأغصان كأنها عالم منعزل من الظلام، كَون مستقل بذاته له قوانينه وأسراره.

ثم ازداد الظلام. والسبب كان واضحًا. بدون مقدمات، وكأن هناك اتفاق مسبق، أغلق سكان المربع الستائر وأطفئوا الأنوار.

في تمام الساعة الحادية عشر، مثل كل ليلة.

هل كان الدكتور (عادل) ينظر إليَّ قبل إن يسدل الستار على نافذته؟ سألت نفسي وأنا أشعر بصدري يضيق أكثر فأكثر.

لا أدري لم شعرت أن هذا كان آخر إنذار.

t.me/qurssan

يكفي هذا.

فلا يوجد سبب للمجازفة ببقائي هنا. سأعرف ما حدث لأمي بطريقة أخرى.

ذهبت إلى غرفة النوم وأخرجت حقيبة السفر من تحت الفراش بعنف شديد كاد أن يؤدي إلى انهيار أحد أرجله الأربعة.

أتت إليَّ (نهى) وقد أفزعها الصوت.

- فيه إيه؟؟؟ بتعمل إيه يا (كريم)؟

- زي ما إنت شايفة. ملعون أبو القاعدة هنا. ملعون أبو المكان ده. كان لازم أسمع كلامك من الأول.

- ومين قالك إني عايزة أمشي؟

التفت إليها مبهوتًا.

- من إمتى؟ ما أنتِ كنتي مش طايقة البلد واللي فيها.

- مش عارفة. بس أنا عايزة أقعد.

- لأ هنمشي.

قلتها بحزم وفتحت الدولاب. بدأت أجمع ملابسي وألقيها خلف ظهري على الفراش. بعد مضي دقيقة أو أكثر لاحظت أني لا أسمع لها

t.me/qurssan

صوتًا. التفت لأجدها جالسة على الفراش والدموع تسيل على وجنتيها وقد وضعت يدها على بطنها المنتفخة وعلى وجهها علامات ألم. تركت ما في يدي وهرعت إليها.

- (نهى) أنتِ كويسة؟

أغمضت عينيها من الألم.

- الحمد لله. مش عايزة أمشي يا (كريم). مش قادرة أناكِف فيك. مش عايزة أمشي.

- حاضر. حاضر. متضايقيش نفسك خلاص.

أراحت جسدها على الفراش وتسارعت أنفاسها لكنها وضعت يدها على صدرها وتنهدت بعمق. سحَبْت الغطاء من أسفلها لأدثرها برفق ثم تركتها لتنام وخرجت من الغرفة.

بعد إجراءات النوم السريعة عدت لأستلقى بجوارها. ألقيت نظرة خاطفة عبر زجاج النافذة على المربع السكني حالك الظلام. تأملت أفرع الشجرة العملاقة التي تتمايل مع هواء الشتاء البارد كأنها تميل على نافذتي عن قصد ثم أغلقت عيني. طفقت أسُبّ عنادي وإصراري على البقاء. لكن الوقت كان قد فات لتغيير هذا على أية حال.

حسنًا، قلت لنفسي وأنا أسحب الغطاء فوقي، دعنا نرى لماذا كان جيراني يُلِحُّون عليَّ أن أبتعد عن مربع (المحروقي) في هذه الليلة.

t.me/qurssan

16

مثل حال معظم الأطفال، كانت لي أكثر من كُنيَة.

كان أصدقائي ينادونني «كيمو». بالطبع هذا بديهي.

والمدرسين كانوا ينادوني «كُرَّاتة»، ولا تسألني عن معناها. فحتى الآن لا أدري ما هو لكن أظن إنه له علاقة بسرعتي في حل الأسئلة سواء كنت أعرف الإجابة أم لا. وله علاقة أيضًا بسرعتي في الركض في أروقة المدرسة، فأنا لم أكن دائمًا في حجم الحوت هذا.

أما أمي فكانت تطلق علي «كراملّة». أرجوك لا تضحك.

لكن لماذا سمُّوني «طناش»؟

t.me/qurssan

دار هذا السؤال في ذهني لحظة استلقائي بجوار (نهى). أنا أذكر مواقف كثيرة ناداني فيها أصدقائي بهذا الإسم. لكن متى كانت أول مرة أطلق عليَّ؟

هممم. هناك احتمالان.

في تمام العاشرة ليلة كل يوم سبت كانت أمي تخرج رأسها من النافذة لتنادي عليَّ معلنة انتهاء فترة اللعب. أذكر تلك اللحظة السوداء جيدًا وأذكر استجداء أصدقائي لأمي طالبين العطف والرأفة. لكن بالطبع لم يأتِ استعطافهم بالنتيجة المرجوة.

إلى أن جاء اليوم الذي قررت فيه «الطناش». ظلت أمي ليلتها تنادي عليَّ لكنني اختبأت واستمريت في اللعب حتى اضطر أبي للنزول و«جرجرتي» من أذني.

ربما كانت هذه بداية اسم «طناش» خاصة وقد أصبحت عادة لديّ.

لكن هناك احتمال آخر.

أذكر تلك الليلة جيدًا، بعد وفاة والدي بأسبوع. ليلتها كان المفترض أن أكون نائمًا استعدادًا لامتحان الثانوية العامة في اليوم التالي. أو هكذا كانت أمي تظن.

لكنني لم أكن كذلك.

t.me/qurssan

كنت راقدًا كما أرقد الآن. عيناي جاحظتان، أحدق في ظلام غرفتي وشعر جسدي كله منتصب. والسبب كان بسيطًا: طرق خافت ذو إيقاع منتظم على باب الشقة وشخص ما يحاول التلاعب بقفله ليفتحه ثم يتكرر الإيقاع مرة أخرى.

سمعت بعدها صوت حركة أمي في الشقة متجهة إلى بابها. وقفت عنده لوهلة قبل أن تفتحه. عادت بسرعة ودخلت غرفتي ثم أغلقت الباب قبل أن تندس معي في الفراش وتأخذني في حضنها.

ذهبت بعدها في النوم سريعًا فقد كنت في أكثر أماكن الدنيا أمانًا.

أذكر تلك الليلة جيدًا وهذه التفاصيل المخيفة لأن هذا ما أسمعه في هذه اللحظة.

أرقد الآن على ظهري، عيناي جاحظتان وشعر جسدي كله منتصب.

والسبب كان بسيطًا.

أحاول بشتى الطرق استنتاج طبيعة الطرق الرتيب على باب الشقة والذي بدأ لحظة جلوسي على الفراش.

والاختلاف بين موقفي هذا والآخر لا يحتاج لتوضيح. فحينذاك كانت أمي هي مصدر الأمان أما الآن فهذا دوري أنا. ولا أجد ما هو أنسب من هذا الموقف ليشرح مقولة «فاقد الشيء لا يعطيه».

t.me/qurssan

اعتدلت جالسًا وحبست أنفاسي لأنصت. نظرت خارج النافذة فوجدت المربع غارق في الظلام كأنه تحوَّل إلى مدينة أشباح بينها الشجرة العملاقة التي أخذت على نفسها عهدًا أن تصيبني بالسكتة القلبية تهجم بأغصانها على النافذة. لكنها لا تلمسها، فقط تهتز وتتمايل مع الرياح كأنها ترقص على أنغام غير مسموعة. أنغام كئيبة وقاتمة تتماشى مع الإيقاع الرتيب للطَرقاتِ التي تدق على باب الشقة.

والتي توقفت بغتة.

فكرت في تجاهل هذا الأمر كما فعلت ليلة امتحان الثانوية العامة عندما رويت لأصدقائي أحداث تلك الليلة المثيرة وكيف قررت تجاهل ما يحدث لأستحق عن جدارة لقب: «طناش».

لكن هذا لا يجوز الآن، ليس ولديّ امرأة وجنين في حمايتي.

بهدوء أزحت الغطاء من فوقي وتركت الفراش. انتعلت خُفّي وألقيت نظرة خاطفة على (نهى) فوجدتها تأتي بحركات غريبة وهي نائمة. تلوح بذراعها وتلوي كفيها كأنها تحاكي حركة الثعبان. كنت قد وصلت لحالة متقدمة من التأهب وبدأ خيالي ينسج أشياء من جراء نفسه لذا فقد كان مشهد (نهى) مخيفًا.

إنها نائمة تحلم. كان هذا قراري النهائي.

توقفت عند عتبة باب الغرفة، وأنصتّ.

t.me/qurssan

لم أعد أسمع صوت الطرق. جلت ببصري في أنحاء الشقة فوجدتها مظلمة أكثر من اللازم. توجهت للحمام لأنير مصباحه فألقى ضوءه الأصفر الضعيف على الممر الصغير وساعد على استحياء في إضافة هالة كئيبة على تفاصيل الشقة. اكتفيت بهذا وبدأت أستعيد حالتي الطبيعية وقد توقف خيالي عن اختلاق وحوش أسطورية في الأركان المظلمة. ثم استدرت عائدًا لغرفتي.

لكن هيهات أن ينتهي الأمر على هذا. ففي لحظة وصولي الغرفة سمعت صوتًا آخر. التفتّ ناحية المصدر: إنه باب الشقة مجددًا. هذه المرة لم يكن صوت طرق، بل شيء آخر. بدا لي كأنه شيئًا ليّنًا قد أُلقيَ على الأرض.

ابتلعت ريقي وأنا أفكّر في اختياراتي.

هل أتجاهل الصوت وأفعل ما يمليه عليّ لقب «طناش»؟ ربما كان قطة أو فأر يحركان الممسحة، رغم أني لم أرى منهم حيوانًا منذ مجيئي.

هل أركض للباب وأطرق عليه بعنف لعل من يفعل هذا يخاف ويبتعد؟

هل أفتح الباب بشجاعة رامبو وأقبض على عنقه وأسحقها، أيضًا مثل رامبو؟

رغم خياراتي تلك فعلت شيئًا مختلفًا تمامًا. اتجهت إلى باب الشقة واستحضرت مواضيع شتى ليس لها علاقة بما يحدث كي يتوقف تفكيري

t.me/qurssan

عن إحالة مخاوفي إلى حقائق تتقافز أمامي.

ما زال الصوت يتكرر. شعرت أن هناك من يحرك المسمحة بالخارج. وضعت أذني على باب الشقة فتوقف الصوت.

هو الباب بارد كده ليه؟ والصوت سكت ليه؟، سألت نفسي.

ضغطت بأذني على الباب كأني أريدها أن تخترقه للناحية الأخرى.

لا شيء. لا صوت ولا نفس كأن ما وراء الباب قد أصبح عدم.

لا لم أفتح الباب. كان السكون الذي وقع على المنطقة في تلك اللحظة كفيلاً بجعلي أتخيل عشرات الزومبي يقفون بلا حراك خلف الباب. ينتظرون تلك الغلطة القاتلة: أن تفتح الباب.

ثم جاء الصوت.

لم يكن هذا الصوت من خلف الباب.

بل من خلفي أنا.

لم أتحرك قيد أنملة. لم أرفع أذني عن الباب ولم أستدر لأرى من يقف ورائي. للثواني التالية ظللت أنصت لصوت الحفيف الذي يأتي من خلفي والذي تلاه صوتًا آخر: صوت سلسلة المفاتيح.

هنا كان لابد أن التفت.

- (نهى)؟

t.me/qurssan

حدقت في زوجتي المستيقظة النائمة وهي تقف بلا حراك أمامي. بيدها اليسرى سلسلة المفاتيح الخاصة بي تحركها بين أصابعها.

- مالك يا (نهى)؟ إيه اللي صحّاكي؟

دون أن ترفع نظرها عن الأرض أمامها مدت يدها اليمنى وأخرجت مفتاح الشقة القديم من السلسلة ثم أوقعتها أرضًا. لسبب تعرفه جيدًا لم أتقدم باتجاهها. لا داعي للقول أن قلبي كاد أن يتوقف عن الخفق.

- (نهى)، إنتي صاحية ولّا نايمة؟ بتعملي إيه بالمفتاح ده؟

كأنها لا تسمعني أو تراني أمسكت المفتاح بطرفي أناملها وتحركت بسرعة تجاهي.

كان هذا كفيل بضخ كل ما يستطيع جسدي إنتاجه من الأدرينالين في عروقي. رعبًا لا شجاعةً صحت بها وهي تتقدم إليَّ بخطا واسعة:

- (نهى)!!!

توقفت على بعد خطوة مني ويدها ممدودة أمامها بالمفتاح.

- بتعملي إيه؟

كأنها واقعة تحت تأثير تنويم مغناطيسي ردت بآلية:

- المفتاح.

t.me/qurssan

- ماله؟!

- المفتاح.

كررتها وتقدمت ناحية الباب ومدت يدها للمقبض. أمسكت يدها بقوة قائلًا:

- لا. انسي. مافيش فتح باب.

- المفتاح.

تكتكتك.

تجمَّد المشهد على هذا الوضع وأنا أنصت للطرق الخفيف على باب الشقة.

- مين؟

لم يأتني رد.

- المفتاح.

قالت (نهى) مرة أخرى وحاولت الفكاك مني لكني أحكمت قبضتي على يديها. تمنيت ضغط زر نور السلم لأنظر من العين السحرية لكن يدي الأخرى كانت تقبض على يدها الممسكة بالمفتاح.

- لازم نحطّ المفتاح بره.

t.me/qurssan

قالت (نهى) وعينيها مثبتة على نقطة عشوائية أمامها.

- ليه؟؟

- علشان تعرف تدخل.

- هي مين؟؟؟؟

جاءت الإجابة من خارج الشقة:

- كراملّة!!

هنا سابت مفاصلي تمامًا. تركت يد (نهى) وألصقت عيني على العين السحرية.

- كراملّة!!

كان هذا صوت أمي الذي يأتي من خلف الباب.

- ماما؟؟

- كراملّة!!

- مين اللي بره؟

الظلام كان دامسًا خارج الشقة لكني رأيت حركة ما بفضل نور شعلة البخور الخافت.

- مش لاقية المفتاح. أنت قافل الباب ليه يا حبيبي؟

t.me/qurssan

- لازم تدّيها المفتاح.

- أدّي المفتاح لمين؟ أنتِ إتجننتي يا (نهى)؟

- النهاردة يوم الزيارة يا (كريم). لازم تدخل والّا هيطلع من الجنينة.

إستدرت ببطء لأواجه زوجتي فوجدتها تدخل غرفة النوم وتستلقي على الفراش.

- هو مين يا (نهى)؟

أخذت خطوة باتجاهها فأحسست بشيء تحت قدمي. نظرت فوجدت المفتاح. انحنيت لألتقطه وتحسست تفاصيله ثم التفت إلى باب الشقة سائلًا مرة أخرى:

- مين برّه؟

تناهى إلى سمعي صوت بكاء.

- افتح لي يا بني. ده طالع ورايا.

كانت هذه اللحظة التي اشتممت فيها تلك الرائحة. كلا ليست بخور هذه المرة.

كيف تثير رائحة فيك الرعب؟

هذا هو ما حدث لي بالضبط.

تذكرت أين شممت هذه الرائحة من قبل، وكيف أنساها؟ إنها نفس

t.me/qurssan

الرائحة البشعة التي استقبلتنا في الحديقة.

رائحته هو.

- (كريم).

هذا صوت أمي. لا جدال في هذا.

- خليه يسيبنا يا (كريم). أرجوك، عايزين نرتاح. افتح لي يا بني.

مددت يدي لمقبض الباب المُثَلّج وبدأت في قراءة الفاتحة و...

أدرته.

تؤتؤتؤ.

كان هذا الصوت الذي صدى في سلم العمارة كافيًا لجعلي أترك المقبض وأستدير متجهًا لغرفتي ثم أغلق بابها عليّ.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

17

في الصباح الباكر تركت (نهى) تغط في نوم عميق شعرت إنها تفتقده بشدة. كانت في سبات عجيب حتى أني تفقدت نبضها تخوفًا من الأسوأ فوجدته ضعيفًا وغير منتظم. ناهيك عن حرارتها التي بدأت ترتفع.

أما أنا فأعتقد إنه لا داعي للقول أن تلك الليلة كانت فاصلة. فكل ما رأيته منذ وصولي شيء وما حدث في الليلة السابقة شيء آخر.

لم أعد قادرًا على اتخاذ أي قرار. لولا حالة (نهى) الصحية لكنت أخذتها بالقوة وتركنا هذا المكان. ربما كان يجب أن أفعل ذلك لكني كنت سأشعر بتأنيب الضمير لو حدث لها شيء.

أما بالنسبة لأمي فما سمعته بالأمس قد هدم كل ما بنيته من نظريات.

t.me/qurssan

هل كانت هي حقًا من كان خلف باب الشقة؟

خرجت عاقدًا النية على الذهاب للمحامي أو النقيب (أمير) لاستخراج إذن نيابة لفتح المقبرة. لكن ما أن خرجت من عمارتي حتى شعرت بالتغيير. أعلم إنه لسبب ما كان سكان المربع يراقبونني أنا و(نهى) من خلف الستائر المسدلة والنوافذ شبه المغلقة لكن هذا اختلف صباح السبت. فقد بات ذلك علنًا ودون استحياء.

كان أول من رأيته هو الطيار (شريف) وهو جالس في سيارته الحديثة. لم يكن محموله على أذنه كعادته بل كانت عينيه ملتصقة بي بجرأة وأنا أشق طريقي إلى خارج المربع. أومأت له برأسي لكنه لم يبادل تحيَّتي ولم يرحب بي كعادته اللزجة.

توقفت عند نهاية الحديقة وقمت بمسح سريع للبنايات التي تحيط بها. هذا هو دكتور (عادل) برأسه الكبير وبشرته الحمراء يطل عليَّ من نافذة دون أدنى محاولة لإخفاء ذلك. رأيت الأستاذ (سامي) في شرفة منزله يتصفح الجريدة لكنه أنزلها لينظر حيث أقف بعد أن أشارت زوجته إليَّ. وهناك طنط (سوسن)، وكيف لا ألاحظ طنط (سوسن)، وهي تتظّف سجادة رمادية مدلاة خارج نافذة الشرفة وعينها عليَّ.

«يعني أنت فى البيت أهوه يا طنط (سوسن). أومّال فين بتوع التلاجة؟»

تنقّلت ببصري من عمارة لأخرى فوجدت المرض قد تفشى في سكان

t.me/qurssan

المربع جميعًا. حتى أولئك الذين لم ألتقِ بهم وجهًا لوجه أو التقيت بهم على عجالة أمثال المهندس (كامل) أو (أكمل) هذا كانوا يتصرفون بنفس الطريقة. الجميع ينظر إليَّ.

كدت أقسم أنهم يعرفون ما حدث الليلة السابقة لكن نظراتهم كانت تحمل نظراتهم شيء ما لم أفهمه. لا، ليس عدوانية كما تتخيل، لكنه أقرب للترقب أو الاندهاش. اندهاش من ماذا؟ لا أعلم.

ما أقلقني حقًا هو تخليهم عن الحياء مما جعلني أشعر كأننا وصلنا إلى مرحلة جديدة أصبحت أنا فيها محور مشهد مثير لا يعرفون نهايته. مرحلة لا يملكون فيها إلا المشاهدة.

كان لابد أن أعرف. غيرت اتجاهي وذهبت إلى الدكتور (عادل). لكنه لم يرد عليّ ولم يفتح الباب. تجاهل ندائي رغم أني كنت متأكدًا إنه كان يقف خلف الباب. ثم سألته أهم سؤال:

- دكتور (عادل)، لو سمحت، عايز أعرف إيه اللي حصل لأمي.

لكنه احتفظ بصمته.

- دكتور (عادل)، إحنا جيران. أنا سامع نَفَسَك من ورا الباب. عيب كده.

لم يرد.

- عليّا النعمة لو اكتشفت إنك ليك أو لأي حد هنا علاقة بوفاة أمي هاخد حقي بدراعي منك.

t.me/qurssan

ضربت باب الشقة بقدمي ودفعته بيدي ثم تركته. لابد أن بركان الغضب بداخلي قد تجلّى على وجهي فقد تراجع سكان المنطقة لجحورهم فور خروجي من عمارة (عادل).

ثم رأيت (ياسر).

ظهر من خلف سور الحديقة ومعه...

اللعنة، الكيس ده تاني؟ سببت الكيس الأسود في قرارة نفسي حين رأيته في يديه.

لوّحت إليه وتقدمت ناحيته دون أن أنتظر رده. فعلت ذلك لأن تعبير صادم ظهر على وجهه وشعرت إنه سينطلق هاربًا في أي لحظة.

- (ياسر)، مش كده؟

- أ... أيوة.

جاء رده وعينيه تقفز من بناية لأخرى.

- مالك متوتر كده؟

قلتها محاولًا أن أبدو أقل إثارة للذعر واستطردت:

- أنا جاي أشكرك على...

قاطعني بعنف وهو يهمّ بالرحيل.

- أنا معملتش حاجة ومش عارف بتتكلم على إيه.

t.me/qurssan

أمسكت يده بحزم وتقدمت بجثتي الداكنة العملاقة ناظرًا في عينيه مباشرة.

- هو إيه اللي معملتش حاجة؟ لأ أنت شاورتلي أكتر من مرة ولفتّ انتباهي.

نظر خلفه بطرف عينيه فنقلت بصري هناك لأجد (محروس) في نفس وضعه على الأريكة: مستلقي على جنبه، يسند ذراعه على ركبته والشيشة في فمه. كان ينظر إلينا بثبات وبرود مما جعل (ياسر) يسحب ذراعه بقوة ويصيح:

- يا عَم إتّكل على الله بقى.

تركته في سلام وأنا أبادل (محروس) نظرته بأخري نارية. تنهّد البواب السمج ونهض ببطء واضعًا عصا الشيشة على الأريكة. انتعل خُفّه بالتصوير البطيء وتهادى داخلًا عرينه.

نظرت حول مربع (المحروقي) وغمغمت:

- محروق أبوكوا كلكوا.

***

التقيت مع النقيب (أمير) في شارع قريب من القسم وأفصحت له عن رغبتي في فتح قبر أمي.

t.me/qurssan

- خلِّي المحامي بتاعك يقدم طلب وهساعد على قد ما أقدر.

- مش عارف أشكرك إزاي والله.

- على إيه ده واجبي زي ما بيقولوا. وبعدين أنا متبنّي موضوع مربع (المحروقي). يا أنا يا هو. المهم قولي حصل إيه إمبارح؟

قالها مبتسمًا مما شجعني أن أروي له ما حدث الليلة السابقة. أنصت لي بتركيز بينما أنتظرت أنا اللحظة التي يكتفي فيها من الخبال الذي يخرج من فمي لكنه لم يفعل.

أخذ شهيقًا عميقًا وهز رأسه قائلًا:

- القصة دي قوية جدًا.

- مش مصدقني طبعًا.

- أصلك هتختلق القصة دي ليه؟ بس لازم نفهم إيه اللي حصل ده. الخَبْط ممكن يكون حد من جيران العجب بتوعك دول. الريحة... هممم مش عارف بس ممكن يكون نفس الشـ س جاب جيفة حيوان ولّا حاجة معاه.

- بس البرد وصوت أمي، والتأتأة. لأ لأ، القصة مش في السكة دي خالص. ما تحاولش تعقلن الموضوع.

- ممكن تكون والدتك لسه عايشة.

t.me/qurssan

- وجاية تخضّني ليلة السبت؟ عاملالي مفاجأة يعني؟

- خلاص يبقى لازم أنت بقى اللي تصدقني.

- في إيه؟

- إن الورا الكلام ده كله هو شخص واحد.

- مين؟

- (المحروقي).

تأملت وجهه لثواني كي أحدد إذا كان يمزح أم لا. لكنه بدا جاد تمامًا.

- يعني إيه؟ الراجل الصعيدي اللي كان بيقعد في الجنينة وإحنا صغيرين هو السبب في اللي بيحصل ده؟

- بالظبط. أنا رحت سألت شركة «العمدان» النهاردة الصبح وعرفت أوصل لمعلومة مهمة.

دون أن ينتظر تعليقي استطرد قائلًا:

- (المحروقي) هو أكيد اللي بتحكي عليه أساطير الصعيد، هو اللي في قصة التار اللي ما سابتش حد عايش من العيلتين. هم في الشركة ما يعرفوش القصة طبعًا ومش عايزين قلق، وده حقهم. بس من ملابسات قصة تعيينه قدرت أربط الخيوط.

- إزاي يعني؟ دي حاجة شبه مستحيلة.

t.me/qurssan

- أنا قدرت أعرف عنوان الراجل اللي شغّله، بيقولوا كان بلدياته.

- ورُحْتِلُه؟

- رُحت. ومن طريقته معايا حسّيت إن (المحروقي) ده هو بتاع قصة النار الأسطورية دي. ده حتى وصف شكله متماشي مع الحواديت: نفس الجثة العملاقة والأتب اللي في ضهره ورأسه الصغيَّرة.

- يعني بيعمل إيه بالظبط (المحروقي) ده؟ هو اللي طلّع أمي من تُربتها؟ وهو فين الوقت ده كله؟ ما إحنا فتشنا الجنينة حتة حتة.

- خلّينا نمشي خطوة خطوة. هجيلك بالليل النهاردة.

- ماشي. أنا هَضغط على المحامي علشان موضوع التصريح ده وأرجع لمراتي بسرعة.

هزّ رأسه متفهمًا ثم قال بلهجة جدية:

- خلّي بالك. لو اللي حكيته ده صحيح يبقى جيرانك كلهم متواطئين في حاجة وممكن تكون في خطر.

***

إتصلت بـ(سمر) صديقة (نهى) وطلبت منها أن تعرج على صديقتها

t.me/qurssan

وتظل معها حتى أعود فلم يعد مظهرنا مهم في تلك المرحلة. سألتني عن كيفية دخولها الشقة أخبرتها بأنها ستجد مفتاح الشقة القديم تحت الممسحة. رغم تأكدي من عدم وجوده تحتها عند تركي المنزل لكني كنت أشعر إنه سيجد طريقه لمكانه المفضل.

بعد قضاء ساعات مضنية في مقر شركتي بالقاهرة حيث بدأت في إجراءات العودة إلى الخليج رجعت للمنزل. في طريقي اتصلت بـ(عبد اللطيف) المحامي لحثه على سرعة استخراج التصريح.

- التصريح يا أستاذ (عبد اللطيف) لو سمحت. لازم في أسرع فرصة. بكرة بالكتير.

- بكرة إيه يا (كريم) بيه؟ أنت ناسي الدنيا في مصر بتمشي إزاي؟

- يا أستاذ (عبد اللطيف) الموضوع خطير وعايز أمشي بكرة بالكتير. مش هينفع نقعد أكتر من كدة.

- بكرة بالكتير؟؟ هتف قبل أن يقهقه ضاحكًا، يبقى لا أنت عايز تحل الموضوع ده ولا حتى عايز ورثك من الحاجّة. ده أقل إجراء من إجراءات الورث عايزله شهر.

- أنت بتهزّر؟

- بهزّر؟ ربنا يسامحك. عمومًا بص سعادتك، أنت تتكل على الله ترجع

t.me/qurssan

الخليج بالسلامة وأنا هخلص الإجراءات وأكلمك تيجي تستلم ورثك. وبالنسبة لموضوع الحاجّة الله يرحمها، نصيحتي تقفله خالص.

- أستاذ (عبد اللطيف)!! أنا مش هسافر من غير ما أعرف إيه اللي حصل لأمي. مش عايز نيلة ورث. أبقي أمشي فيه براحتك بس طلّعلي التصريح.

- مش هنلحق. مستحيل.

- النقيب (أمير) هيساعدنا. هات الطلب وقدمه أنت بس.

- حاضر.

- في أسرع وقت بعد إذنك.

- حاضر.

t.me/qurssan

18

دخلت مربع (المحروقي) في تمام العاشرة والنصف مرتجلًا. تنقلت ببصري بين النوافذ والشرفات لكني لم أر أحدًا. أولًا بسبب الليل الذي جاء ليقبضني بكآبته وثانيًا لأن كل سكان المربع قد أغلقوا النوافذ وأسدلوا الستائر.

وذلك قبل ميعادهم بنصف ساعة.

إلا (ياسر).

توقفت قبل أن أدخل بنايتي وحدقت في شقته حيث أنه كان يسكن في الطابق الأول لذا فكان رؤية ما يحدث فيها سهلًا. بالإضافة إلى عدم وجود ستائر على الباب الزجاجي الذي يفتح على الشرفة. كذلك كانت جميع مصابيح بيته مضاءة.

t.me/qurssan

هنا شعرت إنها فرصتي الذهبية.

تمكنت من موقعي أن أرى (ياسر) وهو ينزع الملاءات البيضاء من على الأثاث ويزيل الأتربة من عليها بهمّة. ثم أخرج أطباق الصيني من النيش ليضعها على طاولة السفرة بجوار صواني مغطاة بقماش.

هل يستعد لاستقبال ضيوف؟ تساءلت قبل أن أقرر مراقبة الموقف متخذًا من أفرع شجرة البلوط العملاقة التي تخترق سماء الساحة ستارًا، بجوار البوابة الحديدية مباشرةً.

استمر (ياسر) فى هذه الإجراءات لما يزيد عن الدقائق العشرة حتى انتهى مما يفعله واختفى بعد ذلك في الممر المؤدي للغرف الداخلية.

انتظرت لدقائق أخرى قضيتها في الرد على رسالة صديقي (رامي). يبدو إني قد تسببت في إصابته بالقلق. وهذا لغرابة طلباتي وأسلوبي المُلِحّ لترجمة الرسالة التي وجدناها وسط الحطب المحترق.

وكأنه شعر بي، سطع ذلك الوهج العجيب من منتصف الحديقة لثوانٍ قصيرة. توقفت بعدها عن كتابة الرد وتجمدت أصابعي فوق الأحرف بعد أن سمعت صوت أغصان تتكسر. دارت عينيّ في مقلتيها يمنةً ويسارًا دون أن أحرك رأسي في محاولة مني لمعرفة الاتجاه الذي يأتي منه الصوت.

تتك.

مزيد من تكسير الأغصان.

t.me/qurssan

وهي تأتي من جانبي مباشرة، من الحديقة اللعينة.

أغمضت عيني بقوة محاولًا السيطرة على أعصابي فقد كنت متأكد من خلو الحديقة من البشر، ومن الحيوانات أيضًا.

من كل شيء.

ببطء فتحت عيني وأدرت رأسي فقط كي أنظر على يساري، لمحتوى الحديقة المظلم، لكني لم استطع اختراق الأغصان المتشابكة.

هززت رأسي رافضًا الفكرة ثم انتبهت لشقة (ياسر) حيث ظهر من جديد حليق الذقن مهندم الملبس والهيئة. جلس في وقار على رأس مائدة الطعام ونظر في ساعته. إذًا بالفعل هو يستعد لاستقبال ضيوف، قلت لنفسي. تملكني فضول رهيب لمعرفة من سيأتي إليه. حسنًا، لنقف دقائق قليلة أخرى.

هل كانت ملامحه حزينة؟

نسيء.

هنا تجمدت مفاصلي تمامًا.

لم يكن هذا صوت أغصان ولا أفرع، بل صوت البوابة الحديدية الصدئة خلفي.

والتي كانت تُفتَح ببطء.

t.me/qurssan

توقف الزمن بي في تلك اللحظة حتى شعرت إنني لن أتمكن من الحركة مجددًا. هناك من دفع البوابة الحديدية ويقف الآن على عتبة الحديقة... خلفي بأقل من متر.

بعدها... لا شيء.

توقعت أن أسمع المزيد، ربما يلقي السلام أو يحتك بالأغصان أو حتى أسمع صوت أنفاسه. لكن... لا شيء. كأن الموقف خلفي قد تحول إلى لوحة صماء.

مرة أخرى وبحذر شديد أدرت رأسي قليلًا لليسار لعلّي ألمح طرف من يقف ورائي. وبالفعل كان خيال لرجل طويل وقد...

فزعت عندما تقدم ليخرج من الحديقة وتراجعت نزولًا من على الرصيف ثم استدرت له. لم يزل في ظلال الأغصان التي ساعد الضوء الباهت للعمود الوحيد القائم أمام الحديقة في بثّ الحياة فيها.

- سل... سلامو عليكو.

تلعثمت قائلًا لكن يبدو إنه لم يسمعني. تراجعت خطوة أخرى حتى صرت في منتصف الشارع ثم نظرت حولي علّي أجد شاهدًا آخر على ما أراه.

ثم تحرك الرجل.

t.me/qurssan

بدأ بخطوات بطيئة، بطيئة للغاية، حتى أنني شعرت إنه يمشي في قاع البحر.

- مساء الخير.

قلتها بصوت مرتعش وللمرة الثانية لم يأتني منه رداً كأنه في بُعد آخر يعزله عني زجاج سميك. دققت النظر في تفاصيله، هل تلك بذلة عسكرية؟

لم أر جيدًا وذلك بسبب الظلال وتلك الأوساخ التي لطخت ملابسه كأنه...

سمعت صوت باب زجاجي يُفتح فالتفتّ لأجد (ياسر) يقف في شرفة بيته يراقب المشهد.

انتفضت مذعورًا حين أغلق أحدهم بوابة الحديقة الحديدية بقوة ثم التفتّ للرجل الذي خرج لتوه منها فلم أجده.

نظرت مرة أخرى لـ(ياسر)، الذي رآني لكن لسبب ما قرر تجاهل وجودي، فرأيته يسرع إلى باب الشقة. نظر في المرآه ليتأكد من هندامه وقد بدا لي قلق للغاية قبل أن يلتفت لباب الشقة ويقف أمامه وقد انسحب الدم من وجهه تمامًا. أخذ نفسًا عميقًا ومدّ يده ثم...

أطفأ النور.

ابن الـ...

t.me/qurssan

لم أعد أرى شيئًا. فقط حركات وخيالات لشخص أو أشخاص يدخلون من باب الشقة. لماذا فعل هذا؟ هل هي مفاجأة لضيوفه؟

لم أكن لاستسلم، ليس في هذا الموقف.

نظرت حولي لأتأكد أن أحدًا لا يراني وانحنيت لالتقط حجرًا صغيرًا. ابتعدت عن الحديقة لمسافة آمنة وخطوت لليمين قليلًا كي أتمكن من إصابة هدفي بدقة. وهدفي كان طاولة الطعام. استجمعت شجاعتي واستحضرت روح روبين هود وأطلقت قذيفتي.

ما أن تأكدت من إصابتي لهدفي حتى تواريت خلف العمود الذي يتوسط المساحة الفارغة أمام الحديقة ونظرت لشرفة (ياسر).

بالفعل رأيته يخرج إليها وأخذ يجوب المنطقة بعينيه باحثًا عني، ثم عاد للداخل. دعوت الله أن يفعل ما كنت سأفعله لو كنت مكانه.

وقد كان.

أضاء (ياسر) ضوء مصباح خافت ليبحث عن الشيء الذي اقتحم عليهم جلستهم: الحجر الذي قذفته.

والآن دعك من (ياسر) وما يفعله.

السؤال المهم والذي شعرت إنه بداية فهمي لما يحدث:

من هذا الرجل المسن الذي يرتدي بذلة ضابط حربيّ ويجلس في ظلمة

t.me/qurssan

الصالة على مائدة الطعام؟

***

دخلت منزلي شارد الذهن وسؤال مُلِح يكاد يفقدني صوابي:

ما الذي رأيته لتوي؟

استقبلتني (سمر) بابتسامة عريضة على وجهها الطويل. ثم قالت وهي تعدل حجابها:

- حمد لله على السلامة. جيت في وقتك. لازم أمشي.

شارد الذهن علقت قائلًا:

- مش عارف أشكرك إزاي يا (سمر). (نهى) صحيت؟

- لأ طول النهار في السرير زي ما هي.

- إيه؟؟ كل ده نايمة؟

قررت تأجيل محاولة فهمي الموقف السالف واتجهت مسرعًا لغرفة النوم حيث كانت (نهى) بالفعل لا تزال نائمة. للحظة تسلل الشك بداخلي. كيف ظلت نائمة حتى الآن؟ لقد مر عليها ما يقرب من عشرين ساعة وهي على نفس الوضع دون أن تحرك إصبعًا. اقتربت منها لأسمع صوت أنفاسها وقد عاد إليَّ القلق لكنها كانت تتنفس بصورة طبيعية.

t.me/qurssan

- هو طبيعي النوم ده كله؟ في الحمل قصدي.

ردت عليَّ (سمر) وهي على باب الشقة:

- طبيعي ما تقلقش. هي كانت سخنة إديتلها خافض حرارة ومسكن. يلا سلام. هجيلها بكرة.

- مع السلامة. شكرًا يا (سمر).

بعد عشاء سريع جلست أمام الكمبيوتر أتصفح البريد الإلكتروني. لم أستطع بالطبع الوصول للاستنتاج منطقي لما رأيته في شقة (ياسر). فكل الشواهد تؤكد ما أعتبره مستحيلًا:

لقد خرج شخص من «جنينة المحروقي» ليحل ضيفًا على (ياسر) هذا.

انتبهت للرسائل فوجدتها قد تراكمت عليَّ للحد الذي يصعب معه تحديد من أين أبدأ.

شعرت حينها أن ما شهدته الأيام القليلة الماضية قد أبعدني أميال عن عملي وحياتي في الخليج. لذا فقد أغلقت الستائر - فلم أعد أرغب في رؤية الحديقة اللعينة - وأمضيت ما يقرب من ساعتين أتنقل من الإيميلات إلى صفحة أخبار الشركة التي أعمل بها إلى صفحات التواصل الاجتماعي كي استرجع إحساسي بحياتي هناك.

ثم جاءني اتصال إلكتروني.

t.me/qurssan

أطل عليَّ من الشاشة وجه (رامي) الأسمر البشوش وهو يعدل عويناته فوق أنفه الطويل.

- يااااه. وحشتني الخلقة دي. قلتها مازحًا.

- دي جزاتي إني بكلمك الساعة دي وعندي شغل بكرة؟

- صحيح إيه الحب ده؟ مش عارف تنام ولّا إيه؟

- كنت بعمل حاجة أون لاين ولقيتك دخلت على الميسينچر. وبصراحة كنت عايز أكلمك.

- خير؟ رفدوني خلاص؟

خرجت منه ضحكة مقتضبة ثم تبدلت ملامحه تدريجيًا وبدأت الجدية تغزوها.

- الورقة اللي بعتلي صورتها دي قلقتني بصراحة. هو فيه حد مخطوف عندكوا؟

هنا تذكرت العائلة الماليزية وتساءلت عما آل إليه حالهم.

- لأ. كان فيه بنت مش لاقينها وظهرت خلاص.

- من ماليزيا؟

- آه.

t.me/qurssan

- والورقة دي إيه حكايتها؟

- لاقيناها في الجنينة اللي أوصاد البيت. شكلها كانت بتلعب ولّا بتهزّر ولّا حاجة.

كان ردّي الذي ما أن نطقته حتى اتضح لي كم يبدو فارغًا. وكان هذا شعور (رامي) هو الآخر فقد رفع حاجبه الكث ثم لوى شفتيه مستنكرًا وقال:

- وظهرت على طول؟ أصل شكلكوا قعدتوا كتير تدوروا عليها.

- لأ. ظهرت بعد كام يوم.

كان ردي الذي قلته بدون أدنى اقتناع فاستدركت قائلًا:

- هو الموضوع غريب شوية بس المهم إنها ظهرت. ثم أنا فيّا اللي مكفّيني يا عَم (رامي) والنبي ومش قادر أفكّر في مشاكل حد.

- أيوة كده اعترف. أنا حاسس كده برضه. مالك بقى؟

قلت له كل شيء دون تحفظ وقد استمع لي بكل إمعان حتى أنه أتي بزوجته لتسمع الرواية الغريبة إلى أن وصلت للحظة التي أتحدث فيها معه.

- إيه الرعب ده؟ قالت زوجته. مين اللي كان بيزور أمك ده وصوته زي صوتك؟ وإيه اللي بيحصل مع الجيران المرعبين دول؟

- مبروك يا (كريم)، عندك عفاريت في الجنينة. صورهم بقى وحطُّ

t.me/qurssan

الصورة على اليوتيوب. هتبقى مشهور.

- بتهزّر يا (رامي)؟ الموضوع فعلًا مرعب زي ما (علياء) بتقول.

التفت (رامي) لزوجته وقال:

- (علياء) بتخاف من خيالها.

- أنت أصلك مش عايش فيه زيّي. أنا فعلًا مرعوب وأكتر حاجة خايف عليها هي (نهى). ومرعوب كمان من فكرة إن أمي تكون حصلها حاجة قبل الوفاة. ضميري هيموتني.

- ما هو أنت غريب برضه يا (كريم) في حد ما يشوفش أمه السنين دي كلها؟

- كانت رافضة ده وبتحلّفني إني ما أرجعش مصر.

- وده مش غريب شوية؟

- أنا عارف إني غلطان وكان لازم أرجع أشوفها غصب عنها. بس طول السنين دي كان في حاجة مانعاني أرجع. صدقني كنت أوقات كتيرة بقرر إني هنزل من غير ما أقول لأمي بس سبحان الله زي ما يكون الظروف بتترتب إني معرفش أنفذ قراري.

- مصدقك. آخرهم أول الشهر ده. أنا فاكر لمّا...

قطعت حديثه بإشارة من إصبعي وعيني تتنقّل بسرعة البرق في مقلتيها.

t.me/qurssan

- استنى. سامع؟

تجمّد وجهيّ (رامي) و(علياء) على الشاشة لثوان قبل أن تقول الأخيرة:

- لأ. أنت سامع إيه؟

- صوت زنّة كده زي ما يكون...

جاء دور (رامي) ليسكتني بإشارة من إصبعه وهو يقول ببطء:

- (كريم)... إيه النور اللي وراك ده؟

التفتّ كقط ملسوع لأنظر حيث يشير. ويا لهول شعوري وأنا أحدق في ذلك الضوء الأبيض الذي يشع من عند باب الشقة.

- نور إيه ده؟

كان هذا سؤالًا همست به علياء.

- ششششش استني.

قال (رامي) وهو يراقبني وأنا أنهض ببطء متجهًا لمصدر الضوء.

«زززززز» تكرر صوت الزنّة مرة أخرى.

رفعت قدمي لالتقط خُفّي وتحركت بحذر للضوء. لا تسألني لِمَ فعلت ذلك، ربما تخيلته دبُّور فضائي أو شيء من هذا القبيل. عندما اقتربت من الضوء وجدته بالفعل عند الباب وهذا زاد توتري فقد أصبحت أكره

t.me/qurssan

الاقتراب من باب الشقة، خصوصًا في المساء.

قالت (علياء) شيئًا آخر كذلك فعل (رامي) لكنني لم أكن أسمعهم. كان كل تركيزي على مصدر هذا الإشعاع السماوي الذي ساعد خيالي في تصوره شيء ليس أقل من بوابة تقود إلى أبعاد وعوالم أخرى.

لكن عندما وصلت إلى الباب لم أجده كذلك. كان شيئًا عاديًا جدًا لدرجة أني تعجبت كيف لم أفكّر في هذا الاحتمال.

كان عاديًا لدرجة مرعبة.

كان هاتف محمول. لكنه لم يكن هاتفي ولا هاتف (نهى).

بل هاتف (سمر).

التقطتّ الهاتف ونظرت فيه لأجد ما لا يقل عن أربع عشرة مكالمة. لابد أن هذا كان سبب الضوء والاهتزاز. بالطبع لم يكن معي الكود كي أفتحه لأعرف من كان المتصل ولم يكن هذا ما شغل فكري في الحقيقة. فالسؤال الأهم هنا هو كيف تركت (سمر) هاتفها ولم تعود لتبحث عنه؟

رجعت لأجلس أمام شاشة اللاب وأشارك صديقيَّ ما وجدت.

- أومّال هي فين؟

كان سؤال (علياء). تأملتُ هاتف (سمر) وأنا أقول:

- مشيت من كام ساعة.

t.me/qurssan

- ومسألتش عليه؟

كنت على وشك الرد لكن عندما رفعت الستارة لأنظر من النافذة التي تبعد عني أقل من متر رأيت ما كنت أخشى.

- فيه إيه؟ سأل (رامي) بقلق.

نهضت من مكاني لأتحقق مما رأيته.

- يا نهار أبيض.

- إيه فيه إيه؟؟؟

- عربية (سمر) تحت.

- يعني لسه ما مشيتش؟

لم أرد لأنني انطلقت خارج الشقة.

- استنى يا (كريم) عايزة أقولك حاجة.

لم أسمع بقية كلام (علياء) لأني كنت أنزل السلم عدوًا قدر ما أتاحت لي بنيتي الضخمة. تارةً اصطدم بالحائط وتارة ارتطم بالدرابزين حتى خرجت من العمارة بحمد الله قطعة واحدة. اتجهت على الفور لسيارة (سمر) الألمانية الصنع صغيرة الحجم وتحسست مقدمتها فوجدتها باردة تمامًا. نظرت بداخلها فلم أجد (سمر) ولا أيًا من متعلقاتها.

t.me/qurssan

فردت قامتي وجلت ببصري من الحديقة المظلمة إلى طرفيّ الشارع المضاء بمصباح بائس.

فكرت أن أنادي لكني شعرت إنني قد أوقظ المنطقة بأكملها.

لابد أن سيارتها قد نفذ منها الوقود فاستقلت سيارة أجرة لمنزلها. حسنًا بدت لي نظرية معقولة.

لكن ما أن عدت لظلمة بنايتي وبدأت في صعود السلم حتى صدمني سؤال: ما كل هذه المكالمات التي انهالت على هاتفها إذًا؟

هززت رأسي رافضًا شكّي في نظريتي. لابد أنها ذهبت للمنزل واكتشفت أن هاتفها ليس معها فحاولت الاتصال به لعلها تسمع جرسه.

تحسست طريقي صعودًا مستعينًا بالدرابزين راضيًا بالاستنتاج الذي توصلت إليه. حتى وصلت للطابق الأول. أخرجت هاتفها المحمول وضغطت على الزر الجانبي ليضيء لي المكان. تأملت أبواب الشقق الخاوية ثم نظرت من منور السلم.

لماذا لم تتصل بي أو بـ(نهى)؟

ماذا لو لم تعد إلى منزلها؟ أين يمكن أن تكون؟

هل ما زالت في العمارة؟

- (سمر)؟؟

t.me/qurssan

ناديت على استحياء. ثم أنصتّ. وضعت أذني على باب إحدى الشقق.

لا شيء. السلم والعمارة والمربع بأكمله في سكون مزعج. ببطء استدرت لأصعد لشقتي وذهبت للاب فوجدت رسالة أخيرة من (رامي) و(علياء) قبل أن ينهيا المكالمة الإلكترونية.

(كلمني أول ما تصحي ضروري. (علياء) عايزة تقولك حاجة مهمة جدًا بخصوص نهى).

t.me/qurssan

19

لم أنم إلا سويعات قليلة استيقظت بعدها عازم أن يكون هذا يومًا فاصلًا. هناك مواضيع كثيرة لا تحتمل الانتظار أكثر من هذا كان أولها (نهى)...

التي لم تكن بجواري.

انتفضت تاركًا الفراش وناديت عليها. أتاني صوت خافت توجهت إليه على الفور فوجدته آتٍ من خلف باب الحمام المغلق. تجاهلت الرائحة البشعة التي بدأت اعتاد وجودها وطرقت عليه بخفة:

- (نهى)، أنتِ كويسة؟

t.me/qurssan

أتاني صوتها واهنًا:

- كويسة. بنتك تعباني قوي يا (كريم).

- مش كنّا نسينا التعب الجامد ده بعد شهور الحمل الأولى ما خلصوا؟

- لأ ده حاجة تانية يا (كريم). زي ما يكون...

لم تكمل جملتها لِتَمَكُّن شعور الرغبة في القيء منها. سمعتها تعتصر معدتها الفارغة مما فطر قلبي عليها.

- أعملك حاجة؟ قوليلي أساعد إزاي؟

جاء صوتها لاهثًا ضعيفًا:

- وضبّ الدنيا بره. ساعدني شوية في شغل البيت.

- حاضر.

كان أول شيء فعلته هو إشعال البخور المنتشر في كل ركن وأنا أعتذر له عن الكلام السخيف الذي قلته في حقه آنفًا.

ثم التفتّ للشقة محاولًا معرفة ما يجب أن أفعله بالضبط. نحن الرجال لا نري الفوضى كما تراها النساء والأشياء المغطاة ببعض الأتربة لا تضايقنا في شيء. لذا حاولت فحص محيطي بعين زوجتي التي تستطيع رؤية آثار أقدام ذبابة لم تمسح قدميها جيدًا قبل دخولها.

t.me/qurssan

لكنها كانت الحقيقة. الشقة كانت كما يقولون «على سنجة عشرة». الأثاث يلمع والأرضية نظيفة رغم أني متأكد أني سكبت بعض الشاي بحليب في طريقي إلى الأريكة. هذا نبهني إلى شيء ليس له تفسير. تقدمت إلى الأريكة التي تقبع أمام النافذة العريضة حيث أمضيت ساعات الليلة السابقة. من المعروف عن الرجال أيضًا أنهم يتركون وراءهم آثار واضحة تبين خط سيرهم وماذا تناولوا على العشاء وكم كوب من المشروبات المختلفة احتسوا.

لكني لم أجد أيًا من تلك الآثار. المكان كان نظيف ومرتّب كأن الخدمة الفندقية قد دخلت وقامت بعملها دون أن نشعر.

سمعت صوت باب الحمام يفتح. هرعت لـ(نهى) لأجدها تترنح في طريقها للفراش. أسرعت لأساعدها على البقاء منتصبة لكن ما أن دخلنا الغرفة بُهِتّ مما قالته.

- شكرًا يا حبيبي على المساعدة.

كنت على وشك أن أنكر هذا لكني تسمرت حين رأيت الفراش مرتبًا بعناية. نظرت لـ(نهى) التي رفعت الغطاء وانسلّت تحته ثم هززت رأسي نافيًا الفكرة.

من رتَّبَ الفراش الذي تركته منذ دقائق قليلة؟

حسنًا هذا يكفي. ملعون أبو القعدة هنا. صرخت بداخلي وأنا أهرع لـ(نهى) قبل أن تختفي في غياهب مملكة النوم مرة أخرى.

t.me/qurssan

- (نهى) يلا بينا. هنمشي من هنا.

جاء صوتها من تحت الغطاء مكتومًا:

- نمشي نروح فين؟ مش قادرة أرفع راسي.

- في حاجة بتحصل هنا يا (نهى). لازم نمشي.

- مش عايزة.

صرخت فيها ونزعت الغطاء من فوقها صارخًا:

- بقولك هنمشي.

قفزت للوراء جاحظ العينين حين لمحت ظل ذلك الشيء الذي كان رابضًا تحت الغطاء وقد قفز بسرعة البرق ليحتمي به مرة أخرى بعد أن أصبح على الأرض.

وضعت يدي على قلبي محاولًا تهدئته. ثم بحذر اقتربت من الغطاء متجاهلًا اعتراض (نهى) على البرد الذي هجم عليها فجأة. مددت قدمي لأحرك الغطاء وسحبته ناحيتي بحرص.

هل هذا نتوء ما؟ هل يوجد شيء تحت الغطاء؟

بحثت حولي فلم أجد إلا حزام جلدي، وهو فكرة سيئة إلا لو كانت خطتي أن أُغضب هذا الشيء. لذا فقد قمت بها أعتبره حتى هذه اللحظة من أغبى القرارات التي اتخذتها في حياتي.

t.me/qurssan

خرجت من الغرفة واتجهت للمطبخ. رجعت وفي يدي سكين ضخم ولكني وجدت الغطاء بمستوى الأرض بعد أن ذهب ما كان يختبئ تحته - أيًا ما كان - لحاله.

لقد أضعت الفرصة.

توقفت لحظة كي يعود نبضي إلى معدله الطبيعي ونظرت إلى (نهى) فوجدتها قد دخلت في سبات عميق. بحرص شديد رفعت الغطاء من على الأرض وتأكدت من عدم وجود شيء تحته قبل أن أضعه فوق زوجتي.

ثم نظرت حولي وقد تغيرت نظرتي للشقة التي أمضيت فيها طفولتي. اصطبغت الجدران والأشياء بهالة من الغموض والترقب. كأنها تنظر إليَّ، تراقبني لترى حركتي التالية.

هناك وجود ما هنا.

ثم تذكرت (سمر). أمسكت هاتف (نهى) المحمول وبحثت عن رقم صديقتها.

يا لغبائي، إن هاتفها معي.

أسقط في يدي. كيف أتصرف؟ هل أطلب زوجها؟ ما اسمه؟ إني حتى لا أعرف أين تسكن.

شعرت أني مسجون مسلوب الإرادة ومكلّب الأيدي. أغلقت باب الغرفة

t.me/qurssan

وذهبت لأجلس على الفراش بجوار (نهى). انكمشت تحت الغطاء وأمسكت محمولي لأتصل بالشخص الوحيد الذي أثق فيه في تلك اللحظة.

- إبن حلال كنت لسه هكلمك.

- إزيك يا (أمير)؟

- إيه ده، مالك؟

- مش عارف أسيب البيت يا (أمير).

- يعني إيه؟

- (نهى) تعبانة ومش هقدر أجبرها. خصوصًا إنها دلوقتي، وبقدرة قادر، بقت مش عايزة تمشي. بعد ما كانت مش طايقة المنطقة والبلد كلها.

- غريبة. عمومًا أنا جايلك خبر كويس. رفعت لرئيسي تقرير بشكوكي حوالين وفاة والدتك وقدرت أجيب موافقة مبدأية على فتح القبر بس لازم تمضي عليه. أنا جايلك في السكة. أوصادي عشر دقايق بالكتير.

- أمضي على أمه، قلتها وأنا أهب واقفًا وقد دبّ فيّا الحماس. مستنيك.

هعمل إيه فيكي يا (نهى)؟ (سمر) ومش لاقينها ومش هقدر أدوَّر عليها دلوقتي.

أمري لله... أكلم طنط (سوسن).

***

t.me/qurssan

في تمام الحادية عشر صباحًا كنت أقف أمام باب العمارة حائرًا في المشهد الذي أراه أمامي. على رصيف الحديقة يقف كل سكان المنطقة، منهم من أعرف ومنهم من أراه للمرة الأولى، يستظلون بشجرة البلوط ويتناقشون في أمر ما.

ما أن رأوني حتى توقفوا عن الحديث وابتعدوا عن سيارة (سمر).

يا ولاد ال... قلتها في قرارة نفسي بحنق، أقطع دراعي لو مكنتوش عارفين كل اللي بيحصلّ وساكتين. ده لو مش أنتوا اللي خطفتوا (سمر) أصلًا.

من بينهم رأيت طنط (سوسن) فاقتربت من التجمهر بثقة مصطنعة وناديت بصوت مبحوح:

- طنط، ممكن كلمة بعد إذنك؟

التفتت (سوسن) للدكتور (عادل) الذي أومأ برأسه موافقًا.

ده أنت الزعيم بقى يا دوك. وأنا كنت فاكره (محروس). ألا هو فين (محروس)؟

- خير يا (كريم) يا بني؟

قالتها المرأة السمراء البدينة وذراعيها معقودان أمام صدرها في تحفز. على شفتيها الغليظتين ابتسامة أقرب للامتعاض.

t.me/qurssan

- ممكن حضرتك تقعدي ساعتين مع (نهى). عندي مشوار سريع.

سمعت صوت مكابح سيارة خلفي فاستدرت لأجد النقيب (أمير) يدخل ساحة المربع السكني. نظرت إليها مجددًا لأجد الابتسامة قد ذابت فجأة ثم قالت:

- (كريم)، لو تعرف فين الصينين اللي هربوا امبارح قولهم يرجعوا. الحاجات دي مافيش هروب منها، ولو رجعوا الصين تاني حتى.

- هم من ماليزيا. أنا قلتكم ميت مرة و... مش مهم. المهم حاجات إيه اللى بتتكلمى عنها؟ ومين قالك إني أعرف هم فين؟

أشارت للنقيب (أمير) الذي أوقف سيارته عند مدخل المربع.

- هو عارف. خليه يقولهم اللي قلتهولك. إحنا عارفين هم بيمروا بإيه دلوقت. لازم يرجعوا. وإلا المصايب مش هتنتهي.

تأملت في ملامحها لوهلة وفكرت أن أسألها عن أية مصائب تقصد، فهي تكاد لا تنتهي، لكني سمعت (أمير) ينادي عليَّ.

- هقوله. بس لو هتخلّي بالك من (نهى) لغاية ما أرجع.

- عيني.

قالتها وقد عادت الإبتسامة الطبيعية إلى وجهها.

- عارفة المفتاح فين طبعًا.

t.me/qurssan

- عارفة.

قالتها واستدارت لتعود للحشد الذي ظل يراقبنا طيلة فترة حديثنا.

لقد وقعت (سوسن) في الفخ. إنها تعلم بموضوع المفتاح الملبوس.

تابعتها وهي تتحدث مع الدكتور (عادل) لكن لفت انتباهي شيئًا آخر. على أطراف الحشد وقف (ياسر). كان يهز رأسه بالنفي.

فيه إيه أنت كمان؟ إيه هو اللي «لأ»؟

***

- يمكن قصده «لأ» على طلب (سوسن). أو يكون مش عايز الصينين يرجعوا. قصدي الماليزيين.

كان تعليق (أمير) وهو يسير بنا في اتجاهنا للفيوم.

- تقصد إنه ممكن يكون ده طلب جماعي وهو مش موافق عليه؟ طب لو هو عايز يساعد كده، ليه رفض يتكلم معايا؟

- ممكن يكون خايف منهم.

مطت شفتي ونظرت من النافذة لأتابع الطريق في صمت. احترم (أمير) صمتي حتى وصلنا إلى الفيوم. شعرت إنني يجب أن أخبره باختفاء (سمر) فقصصت عليه ما حدث.

t.me/qurssan

جاء دوره ليصمت ودوري لا حترم صمته في النهاية قال:

- سيب الموضوع ده شوية. خلينا نخلص حاجة حاجة. إحنا داخلين على المقابر.

كان استقبال العاملين على المقابر مختلفًا تلك المرة فوجود قوة صغيرة من الشرطة قادر على إخضاعهم للأوامر. فالوجوه فجأة أصبحت بشوشة والهِمَم مستعدة لتقديم المساعدة.

لمحت (عبد اللطيف) المحامي يقف بجوار المقبرة وما أن رآني حتى تهللت أساريره وأشرق وجهه الدائري الطفولي.

- شكرًا لسرعة استجابتك يا أستاذ (عبد اللطيف).

كان هذا الترحيب من (أمير) قبل أن يلتفت إلى رجال قوته قائلًا وهو يشير إلى مدفن عائلتي:

- هاتولي مفتاح المدفن ده.

تقدم (عبد اللطيف) ليرد التحية.

- العفو يا (أمير) باشا. أنا نفسي أوصل لآخر الموضوع ده زيي زيك. إزيك يا أستاذ (كريم)؟

كنت محدق في محتوى المقبرة عبر قضبان الباب الحديدي فأجبته بذهن شارد:

t.me/qurssan

- الحمد لله، بس الموضوع بيزيد تعقيد يا (عبد اللطيف). أنا في كابوس.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. معلش يا بني الابتلاءات ساعات لما بتيجي بتبقى مرة واحدة.

تقدم أحد العاملين على خدمة المدافن بصحبة صول وقام بوضع المفتاح في القفل. لكنه لم يستجيب له. ظل يحاول عدة مرات ثم بدأ يتوتر وهو يشعر بعيون رجال الشرطة تخترق ظهره. في النهاية التفت بوجه هرب منه الدم وقال ما توقعته تمامًا:

- هنفوّر القفل.

تقدم إليه (أمير) وقام بمحاولة سريعة انتهت بنفس النتيجة. استدار ليواجه العامل الذي كان يرتعد خوفًا.

- ده القفل مصدي خالص. إزاي الناس دخلت من أسبوع؟

لمحت بقية العاملين ينسحبون بهدوء ثم أطلقوا ساقهم للريح عندها صاح (أمير) وهو يخرج سلاحه:

- محدش يتحرك من مكانه!! اثبت مكانك انت وهو!! ثبّتلي الواد ده.

قالها وهو يشير للعامل الذي حاول فتح الباب آنفًا فانقضّ الصول عليه كدبٍّ قطبيّ.

t.me/qurssan

- اكسروا القفل وهاتهولي .

قاد الصول العامل المسكين إلى بوابة المدفن حيث ينتظره (أمير) بوجه محتقن.

- إيه الحكاية بقى؟

نظر العامل إليَّ ثم إلى محدثه وقال:

- حكاية ايه يا باشا؟

صفعة قوية من الصول على قفاه جعلته يحتضن الأرض ثم يرتد واقفًا قبل أن يقول (أمير).

- مش هسأل تاني.

بدا لي أنه سيبكي لكنها كانت استراتيجية بسيطة وموفقة للغاية فقد انهار أسرع مما كنت أتصور وقال:

- والله ما تستاهل الربعميت ملطوش اللي أخدتهم. هقول لسيادتك.

- أخدتهم من مين؟

- الدكتور.

تدخلت سائلًا:

- اسمه (عادل)؟

t.me/qurssan

- لأ يا بيه معرفش مين (عادل) ده. الدكتور بتاع الصحة. جالي وإدّي كل واحد فينا ربعميت جنيه علشان نكتّم على الموضوع.

تبادلت النظرات مع (أمير) قبل أن يسأله الأخير:

- موضوع المدفن ده؟

- أيوه يا بيه.

سمعنا صوت القفل وهو ينكسر تحت وطأة ضربات رجال الشرطة. تقدمنا لننظر داخل المدفن وأشار أمير لرجاله بفتح القبر ثم التفت للعامل.

- قالك تعمل إيه بالظبط؟

- قالي لمّا حد يجي للمدفن ده أطفّشه.

كان كل انتباهي منصبّ على العسكري وهو يرفع الحجر الذي يسد مدخل القبر. ما أن فعل حتى أزحته من طريقي ونزلت لِلقبر.

كي أختصر عليك المشهد يكفي أن تعرف أني وجدت ما توقعته أنا صحيحًا.

لم تكن هناك جثة لأمي.

لكن أعلم أنك ستفاجأ مثلي لو علمت أن هذه المعلومة الصادمة لم تكن المفاجأة الكبرى.

فلم أكن أتوقع ما رأيته بالأسفل... أبدًا.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

20

إنهم يكذبون عليَّ.

كلهم.

جيراني جميعًا بالإضافة إلى الحارس اللعين.

لكن ما لم أتوقعه هو أن تفعل أمي مثلهم. لقد كانت تكذب عليَّ هي الأخرى.

- إيه اللي بيحصل يا (أمير)؟ أنت متخيّل إني دلوقتي معرفش أمي فين والّا حصلها إيه؟ لأ ودلوقتي ولا أعرف حتى جثة أبويا فين.

لم يكن حال رفيقي أفضل مني بكثير. لقد نزلنا القبر لنجده فارغًا تمامًا. ليس فقط من جثة أمي فهذا توقعته بصورة ما، بل وجدنا أن المكان

t.me/qurssan

المخصص للرجال فارغٌ هو الآخر.

لا وجود لبقايا جثة والدي الذي توفى منذ عشرين عامًا أو يزيد.

والاستنتاج لا يحتاج إلى عبقرية: لم يُدفَن أحد في هذا القبر حتى الآن.

نظر لي (أمير) للحظة ثم التفت ليتابع الطريق قائلًا:

- مش عارف. بس أنا هجيب أراره. أول حاجة هروح أجيب دكتور الصحة اللي طلّع التصاريح ده من أفاه وأعصره لغاية ما يعترف. بس أنت عارف؟

- إيه؟

- حل اللغز ده معروف فين.

- في الجنينة؟ أنا عارف إن ده رأيك. أنا بقى شاكك في الجيران.

- جيرانك كلهم مشتركين في اللي بيحصل، أنا موافقك على ده. بس أنا برضه متأكد إن في حاجة في جنينة (المحروقي) دي من زمان واللي ساكنين حواليها عارفينها.

ترددت للحظة شعر بها فقال:

- في حاجة؟

t.me/qurssan

- إمبارح...

حثني على الاستكمال فقررت أن أجازف وأخبره بموقف (ياسر) وهذا الذي خرج من الحديقة.

استمع لي بإنصات وعينيه لا تغادر الطريق حتى انتهيت فأخذ نفسًا عميقًا وقال:

- لازم نعرف كل حاجة عن جيرانك دول. مينفعش نقعد في الضلمة أكتر من كدة. خصوصًا لو أنت بتتهمهم إنهم عملوا حاجة في والدتك.

- ما هو ده التفسير المنطقي الوحيد. التفسير التاني خيالي يا (أمير).

- يعني والدتك كان عندها حاجة تخلي حد يطمع فيها؟

ضحكت متهكمًا وأجبته:

- دي ما حيليتهاش إلا حتتين صيغة والشقة التعبانة اللي قاعدين فيها دي. حتى دي إيجار قديم.

- يبقى فين الدافع اللي يخليهم يعملوا فيها حاجة؟ ده غير إنهم كلهم سكان جدد تقريبًا ومفيش عداوة بينهم وبين الوالدة.

- (محروس) اللي بيختارهم يا (أمير). أنا متأكد. وكان بيتخانق مع السمسار علشان الموضوع ده.

t.me/qurssan

أمسك (أمير) هاتفه المحمول وقام باتصال.

- هتعمل إيه؟

- العقيد (عصام) لازم يعرف. ولازم أبلغه بحكاية صاحبة مراتك.

- بس أنا خايف الجيران يعملوا حاجة في (نهى).

استمع لرنين الهاتف وقال هامسًا:

- أنت سبتها مع اللي اسمها (سوسن) دي أكتر من مرة. لو عايزين يعملوا فيها حاجة كانوا عملوها. متقلقش.

ثم رفع صوته قائلًا:

- (عصام) باشا. معلش أزعجت سيادتك. أنا راجع من الفيوم وعندي أخبار قنبلة.

روى (أمير) لقائده كل شيء بالتفصيل ثم سأله:

- أنا عايز ضوء أخضر بقى سيادتك.

استمع لمحدثه للحظات ثم قال وقد أشرق وجهه:

- تمام سيادتك. ألف شكر. مع السلامة سيادتك. مع السلامة.

لم أنتظره حتى ينهي المكالمة كي أسأله:

- ما قلتلوش ليه على (سمر)؟

t.me/qurssan

- غيرت رأيي. مش عايزين تشتيت. اختفاء (سمر) دي ممكن يوجه الداخلية لسكة تانية خالص. وأنا حاسس إنه مش هيتحل بتدخل الداخلية ولو فهمنا اللي بيحصل هنعرف (سمر) والطفلة الماليزية فين.

- طيب العقيد (عصام) قالك إيه؟

- كلام جميل جدًا. هيجيبلنا تاريخ الناس اللي ساكنين عندك دول وكمان هيجيب دكتور الصحة ده من بيته ويشدّه على القسم.

ابتهجت من تلك الأخبار ثم تذكرت شيئًا:

- فكرك الدكتور ده موجود من ساعة والدي ما توفى؟

- أكيد لأ. مش بتقول والدك الله يرحمه متوفي من فوق العشرين سنة؟

شردت بذهني للحظة فسألني:

- إيه؟ مش مبسوط من قرارات العقيد (عصام) ولّا إيه؟ متقلقش على مدام (نهى). أنت دلوقتي تروح تلمّ حاجتكوا وتخلع من المنطقة.

- هحاول والله.

- لأ متحاولش، نفّذ.

- مش ده اللي بفكر فيه دلوقتي.

t.me/qurssan

أخرجت محمولي واستمعت لرسالة أمي المسجلة مرة أخرى لكني توقفت عند:

«أوّر الكوسة»

-"فيه إيه؟

سأل (أمير) وهو يهدئ من سرعة السيارة لاقترابنا من مدخل المربع السكني.

– تصدق لسه واخد بالي من حاجة. أنت عارف مين اللي كان بيساعد أمي في تجهيز الكوسة وأنا صغير؟

– مين؟

– والدي.

صمت وحدّق بي قائلًا:

– هو أنت صوتك شبه صوت والدك؟

التفتّ إليه مبتسمًا.

– الله ينور عليك. أنا عرفت مين اللي كان بيزور أمي. ده مش صوتي يا (أمير).

ده صوت والدي.

***

t.me/qurssan

حالة من السكون نزلت علينا ونحن نجلس فى سيارة أمير نتأمل في اكتشافنا العجيب. كنت أعرف أن من كان يأتي لزيارة أمي لم يكن أنا، كذلك تأكد (أمير). والآن توصلنا إلى التفسير الوحيد: بطريقة ما ظل أبي يعود إلى أمي حتى وفاتها.

- وهي كمان، قال (أمير) وهو يتحرك بالسيارة ليدخل المربع، فكرك هي فعلًا اللي كانت على باب شقتك؟

حدقت في وجهه للحظة ثم بدأت أفكّر في ما يقول وتذكرت شيئًا:

- تصدق إن والد (ياسر) ده كان ظابط جيش فعلًا. أنا افتكرته دلوقتي. أمي قالتلي إنه توفى من ستين. يا نهار إسود، يعني هو اللي طلع من الجنينة ووقف جنبي؟

انتبهت إليه حين أشار بيده قائلًا:

- إيه ده بقى إن شاء الله.

نظرت إلى ما يشير إليه فوجدت الممر المؤدي إلى مربع (المحروقي) مسدود بسيارة نقل. نظرنا داخل المربع فوجدنا سيارة كورية فارهة.

- دي عليها نمر دبلوماسية.

- فكرك بتوع ماليزيا رجعوا تاني؟

قالها (أمير) قبل أن يطفئ المحرك وينزل من السيارة. فعلت مثله واتجهنا

t.me/qurssan

سويًا إلى المدخل ليستوقفنا سائق سيارة النقل.

- لا مؤاخذة مافيش دخول.

قالها بلهجة عنيفة بعد أن نزل من الكابينة وفَرَد قامته ليبدو مخيفًا. تقدم (أمير) إليه بثبات قائلًا:

- إنت مين؟ وإيه اللي إنتوا عاملينه ده؟ قافلين الممر ليه؟

- بقولك إتكل على...

رفع (أمير) سلاحه في وجه السائق بنفس البرود وقال:

- وسّع.

رفع السائق الأسمر ذراعيه عاليًا ثم فَرَدَ كفه لنا بحركة مسرحية مشيرًا إلى المربع.

- لا مؤاخذة يا باشا. معلش. اللي مايعرفك يجهلك. اتفضّل.

تبادلت النظرات مع (أمير) الذي أومأ لي برأسه كي أتقدمه. ما أن فعلت حتى رأيت أن الحشد الكبير ما زال مجتمع حول سيارة (سمر).

لم أصدق ما رأيته.

- إيه ده، دي البنت رجعت!!

كان هاتفي وأنا أشير إلى مركز الحشد حيث يقف الرجل الماليزي يتحدث

t.me/qurssan

مع دكتور (عادل). بجواره رأيت زوجته تحتضن ابنتها التي اتخذت من عباءة أمها ستارًا. يقف بالقرب منهم رجل آسيوي ضخم في بذلة سوداء استنتجت إنه من السفارة الماليزية.

تبادلت مع (أمير) نظرات حائرة ثم أشرت إلى سيارة (سمر). هز رأسه متفهمًا ونظر إلى الجيران الملتفين حول (عادل) والرجل الماليزي. ما أن رأونا حتى انقطعت الهمهمة وتوقف الحوار الدائر.

تباطأت خطواتي وهمست (لأمير):

- إيه القلق ده؟

- مش عارف. بس رجوع بتوع ماليزيا ليه مدلول خطير.

- إيه؟

سألته ونحن نقترب من الجمع فجاء رده المقتضب:

- إن الهروب مش هو الحل.

انقبض صدري من تلك العبارة وقد تلاشى الشعور بالخلاص الذي ارتكنت إليه. تمنيت أن أنهي هذا الكابوس بلملمة أشيائنا والفرار من مربع الجحيم هذا، لكن للأسف ما قاله رفيقي بدا لي منطقيًا. قطع تفكيري حين رفع صوته قائلًا:

- سلام عليكو. أنا شايف الناس رجعت أهي. ومعاهم البنت كمان.

t.me/qurssan

- وعليكم السلام. قلت لسيادتك إنها كانت عند جدتها.

كان رد (عادل) لكن (أمير) نظر للرجل ذو البذلة السوداء ثم إلى السيارة ذات اللوحة الدبلوماسية.

- واضح إنها كانت عند جدتها فعلًا. أومال إيه اللي بيحصل؟ السكان كلهم نازلين يرحّبوا بيهم؟

قال (أمير) جملته وجال ببصره في الحشد الصامت. نظر للرجل الماليزي فوجد على وجهه تعبير لم يفهمه، مزيج من الخوف والغضب. ثم التفت للأم ليرى الاستجداء يتجلى واضحًا على ملامحها.

جذب الدكتور (عادل) انتباهه قائلًا:

- حاجة كده.

هنا صاح (أمير) بلهجة عسكرية صارمة:

- حاجة إيه بالظبط يا دكتور؟؟ إنتوا متخيلين إنها هتعدي بالساهل؟ تضحكوا علينا وتخبّوا الحقيقة ونسيبكوا كده؟ فاكرينها لعبة؟؟؟؟

بُهِتَ (عادل) من ثورة أمير المفاجئة وتلعثم قائلًا:

- حقيقة إيه بس سيادتك اللي مخبّينها؟

تقدم (أمير) لمركز الحشد حيث تقف العائلة الماليزية وقال مشيرًا إلى سيارة (سمر):

t.me/qurssan

- فين صاحبة العربية دي؟

لم ينبس أحد ببنت شفة فصاح مكررًا سؤاله:

- بقول ودِّيتوا فين صاحبة العربية دي؟؟؟

جال ببصره فيهم فردًا فردًا وتفادوا هم نظراته. جاءه الرد من (عادل) الذي أحمر وجهه لكنه أبقى ملامحه خالية من أي تعبير:

- منعرفش صاحبتها.

نظر (أمير) مباشرةً في عين الأخير وقال:

- ماشي، هنشوف. لو ثبت إن ليكم دخل في اختفاءها هتروحوا كلكم ورا الشمس.

ثم هدأت نبرته وأشار للفتاة قائلًا:

- تقدر تقولي البنت دي مالها يا دكتور؟

وجه كلامه إلى الأب بالإنجليزية وهو يمد يده للفتاة.

"What is the wrong with your girl?"

هنا تدخل رجل الأمن التابع للسفارة واعترض طريق (أمير).

"Please leave Mr. Dafmer and his family alone"

توقف (أمير) وتسمَّرت يده على بعد سنتيمترات من الفتاة، ليس بسبب

t.me/qurssan

رجل الأمن الماليزي بل بسبب الصوت الذي خرج من تحت العباءة التي تغطى الفتاة.

صوت يشبه زمجرة كلب عصبيّ صغير مسعور.

ثم انتفض (أمير) متراجعًا عندما تحرك رأس الفتاة أسفل العباءة بسرعة خاطفة كأنها تهجم عليه. جفلت أنا أيضًا من الحركة المفاجئة وكذلك فعل كل من رأي هذا المشهد. صاحت الأم بشيء من بين دموعها قبل أن تحتضن ابنتها بشدة.

"Please no"

قال الأب هذه الجملة ثم تقدم إلى زوجته واحتواها مع ابنتها ثم اتجه إلى عمارته.

"I want to help"

هتف (أمير) من فوق كتف رجل الأمن الذي اعترض طريقه فالتفت إليه المرأة وقالت:

"Please help"

***

t.me/qurssan

كانت هاتان الكلمتان كفيلتان بإشعال نار الحميّة والشهامة لدى الضابط الشاب. ظل (أمير) يراقب الحشد وهم يصعدون خلف العائلة الماليزية ثم همس بحزم:

- يا ولاد ال... هم بيعملوا إيه في البنت؟

نظرت لرجل أمن السفارة الذي اتخذ من مدخل العمارة موقعًا ليقف فيه وقلت:

- أنا هطلع لمراتي.

هز (أمير) رأسه موافقًا ثم جال ببصره في المربع قائلًا:

- مش ورا العمارات دي أرض فاضية؟

- أيوة.

- طيب. اطلع أنت لمراتك. أنا بقى هشوف طريقة أعرف بيها اللي بيحصل فوق.

انطلقت صاعدًا ودخلت شقتي لأجد (نهى) مع (سوسن) في المطبخ في حالة من الانسجام غير المريح. أمامهم أطنان من البطاطس المقشرة وعلى نيران البوتاجاز ترقد عدة صواني. رحبت بي (نهى) بروح مرحة أدخلت السرور على قلبي المهموم:

- يا أهلًا. حمد لله على السلامة. رحت زرت طنط؟

t.me/qurssan

دخلت المطبخ لأُقبِّل رأسها وعيني على (سوسن) التي رمقتني في صمت.

- أيوة يا حبيبتي زرتها. بس أخيرًا فوقتي. حمد لله على سلامتك أنتِ. كانوا يومين صعبين.

- حمد لله على السلامة يا (كريم) يا بني.

قالتها (سوسن) وهي ترفع إحدي الصواني من على النيران.

- تعبناكي يا طنط.

قلتها وأنا أمسح على رأس زوجتي التي جاء ردها على تعليقي كما توقعته:

- تصدق مش فاكرة ولا حاجة.

- ما هو أنتِ كنتي نايمة أربعة وعشرين ساعة.

- شفت اللمّة اللي تحت دي؟

تأملت وجهها المريع البشوش الذي صار أكثر نحافة وأحكمت الروب المنزلي عليها بحنان قائلًا:

- أيوة. هي (سمر) كلمتك؟

- لأ ليه؟

- مفيش.

t.me/qurssan

كان ردي وقد قررت عدم ذكر موضوع اختفاء صديقتها فما قاله (أمير) كان صوابًا؛ لو فهمنا ما يحدث سنجد (سمر).

التفتّ إلى (سوسن) التي انتهت لتوها من غسيل يديها وقالت:

- طب أستأذن أنا بقى.

- طنط (سوسن)!

توقفت خارج المطبخ والتفتت إليّ فسألتها:

- إيه اللي بيحصل؟

فكّرت لحظة قبل أن تجيب:

- هو إيه اللي بيحصل؟

- برضه مش عايزة تقولي؟ عمومًا أنا هاغور من هنا وسايبهالكوا.

إمتلأت نظرتها بالشفقة والأمومة فجأة ثم تغيرت نبرتها وهي ترمق (نهى) التي كانت تراقب الموقف بدون فهم:

- مش هتعرف تمشي.

- أهوه شفتي؟ يعني أنتِ فاهمة اللي بيحصل؟ قوليلي. نبّهيني علشان نلحق نفسنا.

تدخلت (نهى) قائلة وقد سيطر عليها القلق:

t.me/qurssan

- فيه إيه يا (كريم)؟

- هستأذن أنا.

قالتها (سوسن) وتوجهت إلى باب الشقة فانقضت عليها وأمسكتها من ذراعها الغليظ بقوة. تأوَّهَت وقالت بنبرة مستكينة:

- حاولنا نحذرك. قلنالك ما تقعدش في البيت ليلة السبت. بس عنادك كان أقوى.

- هو ده السبب؟ يعني لو كنت مشيت الجمعة ورجعت السبت كان ولا حاجة من دي هتحصل؟

حانت منها نظرة خاطفة إلى (نهى) وترددت للحظة قبل أن يصدر من الأخيرة صوت تأوه. التفت لأجد (نهى) تمسك ببطنها وتعض على شفتيها.

- مالك يا (نهى)؟؟

قلتها وأنا أهرع إليها وقد عاد إليَّ كل قلقي عليها دفعة واحدة.

- بطنيييي.

نحرت صرخة (نهى) في صدري كالسكين ثم أن تقول بصعوبة:

- سامحني يا (كريم). سامحني إني ما ساعدتكش ترجع لمامتك.

t.me/qurssan

نظرت إلى (سوسن) فوجدت أن الدموع قد بدأت تسيل على وجنتيها اللحيمتين قبل أن تتجه الباب.

- يا طنط ساعديني!!! دي شكلها بتولد.

- لأ. مش بتولد.

كان رد (سوسن) قبل أن تغلق باب الشقة خلفها.

***

تخيَّل شعوري في هذه اللحظة.

زوجتي الحامل في شهرها التاسع تصرخ من الألم.

المرأة الوحيدة التي يمكنني الاعتماد عليها تخلَّت عننا.

لا أعرف ماذا حدث لأمي.

ولا أعرف ما الذي حدث لأبي قبلها.

المنطقة بأكملها تتآمر علينا وفي تلك اللحظة يفعلون شيئًا لا أفهمه بفتاة صغيرة في البناية المجاورة.

ناهيك عن الأصوات والأحداث غير المفهومة والأشياء التي تظهر كما يحلو لها أينما يحلو لها والأشخاص الذين يختفوا ويتركون سياراتهم.

وليزداد الطين بلة وضعت (نهى) على الفراش واتصلت بالنقيب (أمير) فلم يرد.

t.me/qurssan

عاودت الاتصال مرة أخرى لخطورة الموقف وقد ارتفع نحيب (نهى) فوجدت هاتفه قد أُغلق.

نظرت عبر النافذة وتأملت الحديقة اللعينة التي يهيء لي أن الليل يخرج منها لا يأتي إليها. تتمركز في صمت وبراءة وسط كل هذه الأحداث حتى بدأت أصدق (أمير).

إن تلك الحديقة لها كيان وحضور.

لها إرادة خاصة بها.

أكاد أجزم أن الشجرة تتراقص كي تستفزني. هل يوجد رياح أصلًا بالخارج؟

أعطيت (نهى) مسكن قوي ونهضت من جلستي على الفراش. جلت ببصري في الغرفة وكان قراري حاسمًا. اتصلت بتطبيق للتوصيل على هاتفي المحمول وطلبت منه الحضور في خلال ساعة.

ساعة واحدة سأكون خلالها قد لملمت ما خف وزنه وغلى ثمنه وأخرج من حفرة الجحيم هذه.

بدأت في جمع أشيائنا من أنحاء الشقة وتكديسها في غرفة النوم. ثم حين توجهت للدولاب العملاق لأفتحه سمعت الصوت الذي جعل يدي تتجمّد على المقبض.

t.me/qurssan

زيسي.

كان هذا صوت باب الشقة.

حاولت النظر إلى يميني، في مرآة التسريحة التي تربض أمام باب الغرفة تمامًا، لكن الظلام كان يكتنف الشقة. لم أذكر أني أغلقت كل تلك المصابيح، بالعكس، لقد أنرت الشقة بأكملها وأنا أجمع أشيائنا.

لكني رأيت باب الشقة اللعين يتحرك حتى صار مفتوحًا على مصراعيه.

يا لظلمة السلم.

بحثت حولي عن أي شيء أدافع به عن نفسي لكن في نفس اللحظة انغلق باب الشقة بغتة لينتفض جسدي بكل قوة.

تسمرت مكاني بأنفاس مبهورة.

- مين هنا؟

قلت بصوت مرتعد.

تؤتؤتؤ.

يا ليتني لم أسأل.

لم التفت.

لم أجرؤ.

t.me/qurssan

لم يكن هذا صوت (نهى) فقد ذهبت في سبات عميق منذ أكثر من ربع ساعة. لقد أتى صوت التأتأة هذا من خلفي. بالتحديد من الممر الصغير الذي يصل الغرفة بالصالة.

يا لهذه الرائحة اللعينة، لقد عادت من جديد.

ثم خطر ببالي أن تلك الرائحة ربما كانت تأتي بصحبة شيء ما.

وهذا الشيء معي الآن. في الشقة.

لمحت بطرف عيني في المرآة ظل ضخم. كيف يظهر ظل أمام خلفية سوداء من الظلام؟ أقول لك. عندما يكون أكثر سوادًا.

لن أستدير. وسنغادر. وأيًا ما كان يقف خلفي فلن يستطيع إيذائنا.

ما الذي أوحى لي تلك النظرية الحمقاء؟

لقد تمكنت مني تلك الفكرة حتى أني فتحت الدولاب بكل قوتي لأجد ضلفته تُسحَب من يدي وتُغْلَق بعنف.

هل قلت لك من قبل أن لدي ثبات انفعالي عالي وعزيمة قوية إلى آخر هذا الكلام الفارغ؟ حسنًا لقد كان هذا قبل هذه اللحظة، قبل أن يغلق باب الدولاب ضلفته أمامي من تلقاء نفسه ويدى القوية ممسكة بالمقبض.

تراجعت للخلف محدّقًا في الدولاب ودقات قلبي تكاد تصيبني بالصمم. هناك شيء لا يريدنا أن نرحل.

t.me/qurssan

استدرت ببطء لأواجه باب الغرفة والممر المظلم.

وصلت عند باب الشقة ومددت يدي لزر الإنارة.

الرائحة كانت قاتلة وشعور رهيب يجتاحني بأني سأجد مخلوق خرافي مرعب أمامي مباشرة عندما يُضاء الممر لكن رغم ذلك ضغطت الزر.

ثم صدى جرس البيت.

حدث ذلك في نفس اللحظة التي أغلق فيها باب غرفة النوم الصغيرة على يميني ليقف شعر جسدي كله.

ابتلعت ريقي وترجّيت مثانتي ألا تنفجر وتُغرق البيت. بأرجل مرتعشة ذهبت لباب الشقة داعيًا ربي أن يكون (أمير). توقفت عند خروجي للصالة ونظرت إلى يميني لأجد شجرة البلوط تحتل سماء المربع السكني كله وتنكبّ على نافذة الصالة بكل فروعها كأنها تهجم علينا.

هذا ليس تأثير الرياح. إن هذه الشجرة تريد شيئًا.

ما هذه الأشواك التي تغطيها؟

هكذا، دون مقدمات ظهرت عليها؟

تأملتها مذعورًا، إنها ليست أغصان.

إنها أذرع كائن أسطوري وليد أقوى كوابيسي.

تشجّعت وعاودت السير باتجاه الباب وفتحته بثبات من يريد الخلاص.

t.me/qurssan

من هذا الرجل؟

سألت نفسي وأنا أنظر للرجل القصير - مقارنة بى - والممتلىء. وقف يرمقني في قلق والعرق يتصبب منه رغم برودة الجو.

- أيوة. مين حضرتك؟

- (سمر) هنا؟ أنا جوزها.

أخيرًا ظهر حد من طرفك يا (سمر). بس... بس ده معناه إنك مروّحتيش.

ومعناه أيضًا أن ما ظنناه قد حدث لها صحيح.

جال هذا الخاطر ببالي وتلعثمت قائلًا:

- أهلًا وسهلًا. الحقيقة هي مجتش النهاردة.

- حضرتك دي هنا من إمبارح.

قالها بنبرة عالية توقعت أنها سترتفع إلى صياح في اللحظات التالية إن لم أعطه إجابة وافية. أضاف قائلًا:

- وعربيتها تحت.

لم أدر بما أجيبه وحانت مني التفاتة إلى النافذة الكبيرة. إن هذه الشجرة لمخيفة حقًا. كأنها تزداد حجمًا.

يبدو أن نظرتي تلك لم ترق للزوج القَلِق فدفع الباب وحاول الدخول

t.me/qurssan

ليرى ما أنظر إليه. لم أمنعه كي لا أثير شكوكه أكثر من ذلك.

- المدام نايمة على فكرة.

قلتها بصبر وتفهّم تاركًا إياه يجول ببصره في الشقة. التفت لي ووجهه يتلوى كي لا ينفجر في البكاء.

- لو سمحت ممكن تصحي المدام وتسألها؟ (سمر) ما رجعتش من إمبارح. أنا وصلت لعنوانكوا بالعافية.

- (سمر) نزلت إمبارح من عندنا على عشرة كده وصدقني معرفش غير كده.

نظر إليّ وأخذ يهز رأسه غير مصدق ما يحدث له. تركته يجترع حيرته وألمه ولم أعرض أية مساعدة فحالي لم يكن أفضل من حاله.

استمر على وضعه لثواني طويلة قبل أن يخرج من باب الشقة قائلًا:

- أنا آسف اعذرني. أنا آسف.

- ولا يهمك. لو عرفت حاجة أبقوا طمّنونا.

استدار لي ليقول شيئًا أخيرًا لكنه تسمَّر مكانه وعينه على شيء ما خلفي، شيء سمعت حركته قبل أن يسأل ضيفي:

- إيه ده؟

t.me/qurssan

استدرت ببطء لأرى ما ينظر إليه، إلى هذا الذي يتحرك خلفي. لكن ما رأيته كان رهيبًا.

لم ألمح تلك الآثار العريضة من قبل لكنها خرجت من غرفة النوم الرئيسيّة. تركت الرجل عند الباب وهرعت لزوجتي. كادت قدمي تنزلق تحتي لكني أمسكت بأفريز الباب وانحنيت لأتحسس هذا اللون الداكن.

لقد كان لزجًا.

وأحمر.

لقد كان دمًا.

ليس بمقدوري وصف الفزع الذي انتابني وأنا أنظر إلى خط الدماء العريض الذي يخرج من غرفتي. نهضت لأتتبع الدماء غير عابئ بضيفي الذي قرر الدخول ومتابعة ما يحدث عن قرب.

الدماء كانت تصل إلى الفراش، إلى تحت الغطاء بالتحديد. مددت يدي المرتعشة لأرفعه وقلبي يكاد يقف.

و... هل تخيلت المنظر؟

نعم هو كما تخيلته. دماء غزيرة تغطي الفراش والأرضية و(نهى) نفسها. ومصدر الدماء هو كما توقعته أنت.

- يا إبن الـ...

t.me/qurssan

التفت لقائل هذه الكلمة فوجدت زوج (سمر) خلفي وفي يده شيء خشبي لم أحدده قبل أن يهوي به على رأسي.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

21

أعلم أنه خطئي. توهمت أني لو علمت ما حدث لأمي لربما حظيت بالغفران. لكن لا شيء يغفر لي تقصيري. لا شيء يمكنه أن يداوي شعوري بالندم على كل لحظة قضتها بمفردها.

لقد تأخرت كثيرًا في فهم ما يحدث وفات وقت الهروب. لم أر العلامات أو أسمع الناقوس. لكني أسمعه الآن.

أسمعه يدق...

مهلًا، أعرف هذا الصوت.

هذا ليس صوت ناقوس. إنه رنين هاتفي.

t.me/qurssan

جالت هذه الأفكار بذهني قبل أن يتكرر الرنين ليعيدني إلى رشدي.

فتحت عيني بصعوبة وأمسكت بمقدمة رأسي من شدة الألم. بالكاد استطعت رؤية التمثال الخشبي المكسور المُلقى على الأرض وهو غارق في دمائي - أم هي دماء (نهى)؟ كلا إنها دمائي بعد أن ضربني به زوج (سمر).

توقف هاتفي المحمول عن الصراخ وتدريجيًا بدأت أتذكر ما حدث لي. مددت يدي للهاتف المُلقى بجواري ونهضت بصعوبة لأجلس على الفراش.

إنه رقم لا أعرفه. لابد إنه السائق الذي طلبت أن يأتي ليقلّنا. حاولت أن أعاود الاتصال به لكن الرطوبة التي جلست عليها ذكّرتني بشيء أهم.

انتفضت من جلستي لأنظر لجسد (نهى) المُلقي أمامي على الفراش وجحظت عيني حين رأيت الدماء. لم يكن هذا كابوسًا إذًا. لابد أن زوج (سمر) في طريقه الآن عائدًا إلى هنا ومعه الشرطة بعد أن تأكد أني اذيت زوجتي. ولن ألومه لو ظن أني آذيت زوجته هي الأخرى.

لم أحمل هَمّ الشرطة كثيرًا لأني واثق من سلامة موقفي وهناك أيضًا شهادة (أمير) بل إني تمنيت أن يأتوا في أسرع وقت. نظرت في ساعة المحمول فوجدت أني استغرقت ما يقرب من أربعين دقيقة فاقد الوعي.

أُسقِط في يدي تمامًا ولولا إحساس الغثيان والوهن الذي كنت أشعر

t.me/qurssan

به لكنت دخلت في نوبة من الهلع الهيستيري خوفًا على (نهى). انحنيت لأفحصها ووجدت نبضها ضعيف لكنه مستمر. حمدت ربي، إذًا هو تزيف قوي لكنه ليس مميت.

ماذا أفعل الآن؟ لا أستطيع حملها وأنا بحالتي تلك وحتى إن استطعت فليس لدينا سيارة تقلنا للمستشفى. اتصلت بالإسعاف وأعطيتهم العنوان بدقة. ثم التفتّ إلى زوجتي.

- (نهى).

هززتها برفق محاولًا إيقاظها. تأوّهت بوهن وأمْسَكَت بطنها لكن ما أن فَعَلَت حتى إتضحت لي حقيقة مريعة.

إن.. إن بطنها لم تعد منتفخة.

نهضت ببطء وعيني على بطنها محاولًا استيعاب الموقف. حدقت في الدماء التي أغرقت الفراش وتابعت خط سيرها وسؤال خطير يجول بخاطري:

وضع (نهى) لا يسمح لها بترك الفراش، حتى وإن فعلت فليس هذه خطوات أقدام. إذًا... ما الذي غادر الفراش وترك هذه الآثار؟

إنها تقود إلى خارج الغرفة.

ما هذا الصوت؟ سألت نفسي وأنا أنصت لصوت شيء يزحف في الممر القصير.

t.me/qurssan

حاولت بشتى الطرق الوصول إلى ماهية هذا الشيء لكنني لم أصل إلى استنتاج منطقي.

ثم سمعت صوت آخر.

ثمة باب يُفتح ببطء. بالقليل من التركيز الذي استطعت شحذه في تلك اللحظة استنتجت إنه باب الغرفة الصغيرة المقابلة للحمام. يليه هذا الصوت الذي دمر البقية الباقية من أعصابي.

لا ليس مواء قطة. أنت تعلم هذه الصوت الذي هو مزيج من مواء القطط وبكاء طفل رضيع، أليس كذلك؟ لكنه في تلك اللحظة كان أقرب لصوت الرضيع.

أتي الصوت الضعيف المرتعش مرة أخرى من الغرفة الصغيرة التي تقود إليها الدماء، كنت أعلم أنه يجب علي أن أذهب لمعرفة مصدر الصوت ورؤية أين ينتهي خط الدماء العريض، لكن أعصابي كادت أن تنفلت.

وقفت أمام الغرفة الصغيرة التي لم يكن بابها مغلقًا كما كان طيلة هذا الوقت بل مواربًا. مددت يدي لأدفعه بحذر وعيني على الدماء التي تقود لمحتواه المظلم. ما أن تسلل بصيص نور الحمّام للغرفة ووقع على الأثاث المكدس الرابض تحت الأغطية البيضاء حتى انتابني شعور مخيف.

- مين هنا؟

ليتني لم أسأل. الرد الذي أتاني جمّد الدم في عروقي فآخر ما تتمناه

t.me/qurssan

في موقف كهذا هو أن يجيبك صوت بكاء طفل رضيع مرتعش. خاصة لو كنت تعلم أن زوجتك الحامل في الأسابيع الأخيرة قد فقدت طفلها لتوها. ليس فقدان بمعني إنه تُوُفِّي في رحمها بل فقدته بمعنى إنها أضاعته وبمعجزة ما لم يعد بداخلها.

تقدمت خطوة أخرى فشعرت بشيء لزج تحت قدمي. رفعتها ونظرت تحتها لأنتفض مذعورًا للوراء عندما رأيت ثعبان نافق غارق في الدماء.

ثعبان؟

سألت مستنكرًا وأنا أتأمل الشيء الرفيع المُلقي على الأرض وسط خط الدماء. أعطيت الباب دفعة أخرى ليدخل ضوء الحمام بشكل أفضل فرأيت أن هذا الشيء يختفي طرفه خلف مكتب قديم.

لا تسألني من أين أتت تلك الشجاعة كي أنحني وأمد يدي لألتقطه. ابتلعت ريقي وأنا أمسكه بأطراف أصابعي وقد تضاعف شعوري بالغثيان. لكني استنتجت ماهيته وحينها شعرت بالأدرينالين يندفع في عروقي ودقات قلبي تتسارع.

هذا حبل سُرِّيّ.

أفلتُّه حين تلوي وانقبض في مكانه ثم تراجعت مصعوقًا وأنا أراقبه يتحرك في الظلام باتجاه المكتب.

هناك من يسحبه إلى هناك.

t.me/qurssan

والاحتمال الآخر الأكثر رعبًا أن الطفل الذى يخرج هذا الحبل من سُرَّته يتحرك خلف المكتب. وبترتيب بسيط للأحداث نستنتج أن هذا الطفل هو ابنتي أو ابني.

صدقني لم يكن بي رغبة في البقاء أكثر من هذا. لو لم تكن زوجتي ملقاة على الفراش في الغرفة المجاورة والحبل السُّرِّي الواصل بوليدي يرتعش أمامي لكنت في المطار أنتظر أول طائرة مغادرة.

لكني كنت مضطر.

كنت مضطر للاقتراب من المكتب، وأُنير كشاف الهاتف المحمول لأرى هذه القدم الدقيقة الدامية.

كنت مضطر أن أري الجسد الذي لا يتعدى حجم كفي يدي رابض دون حراك في ركن ممتلئ بالأوراق القديمة والكتب المتربة.

كنت مضطر أن أحدق في هذا الوجه.

يا إلهي.

صرخت في صمت وعيني ملتصقة بتلك الملامح الملائكية الساكنة. الدماء تغطي شعرها الأسود الخفيف وعينيها المغلقتين.

كيف أصف لك شعوري في هذه اللحظة؟

أياد من حديد بارد تتسابق لاعتصار قلبي وأنا أنظر لوليدتي النافقة وكياني

t.me/qurssan

كله يبكي كدمًا عليها وعلى أمها التي حتمًا لن تتعافى من هذا الموقف.

رغم أني كنت أصارع رغبة عارمة لالتقطها وضمها إلى صدري لكني لم أستطع أن أفعل. فقد كان هناك سؤال يجب الإجابة عليه قبل أن أمد يدي إليها:

ما الذي أتى بِكِ هنا يا صغيرتي؟

سألت هذا السؤال بيني وبين نفسي. لكن في النهاية انتصر شعور الأبوة على شعور الخوف والحيرة فوجدت يدي تمتد إلى الجسد الصغير الراقد في استكانة بين الكراكيب الغارقة في الدماء. لمست بأطراف أصابعي قدمها الصغيرة وأنا أرتجف ولا إراديًا خاطبت طفلتي بصوت مسموع:

- وصلتي هنا إزّاي يا (دينا)؟

تؤتؤتؤ.

هذه المرة كادت مثانتي أن تنفلت. سحبت يدي كأنها كانت فوق نيران ملتهبة وخرجت مسرعًا من الغرفة لأرى مصدر هذا الصوت. لا أدري إن كنت قد تخيلت معي هذا الصوت فهو الذي يصدره شخص مستاء من فعل ما.

وبالطبع من يصدر هذا الصوت هو آخر شخص أتمنى إغضابه.

نظرت إلى باب الشقة فوجدته مغلق. من أين أتى هذا الصوت إذًا؟

t.me/qurssan

تكتكتك.

هذا صوت آخر أعرفه جيدًا.

التفت لنافذة الصالة الكبيرة وجفلت حين رأيت أفرع شجرة البلوط ممتدة إلى نافذتي حتى تلامست مع زجاجها. ثم رأيت شيئًا عجيبًا.

تجمدت مكاني وأنا أرى الأفرع المخيفة، ذات الأشواك التي بدت لي أقرب للمخالب، تنسل من بين ضلفتي النافذة و... تفتحها.

وقفت مشدوهًا أمام مشهد الشجرة التي تفتح النافذة بهدوء.

لو كنت تظن أن هذا كفيل بإصابتي بالشلل رعبًا انتظر حتى أقول لك عن ذلك الذي رأيته يزحف بجواري.

كان هذا المشهد أصعب ما رأيت في حياتي، مشهد ابنتي التي لم تر نور الدنيا تُجرّ من الحبل السُّرّي المتصل ببطنها.

أم كانت تحبو؟

لم أعد أفهم شيئًا ولم تعطني الظلمة أي فرصة للرؤية. تخشبت مكاني وأنا أشاهد الجنين الذي أنجب نفسه يزحف بجواري في اتجاه النافذة... في اتجاه الشجرة.

حاولت إقناع قدمي بالتحرك لكني لم أستطع هذه المرة. حتى حين شاهدت أفرع الشجرة الغليظة وهي تتسلل داخل منزلي وتلتقط ابنتي.

t.me/qurssan

حتى وأنا أشاهد الشجرة تأخذ فلذة كبدي وتخرج من النافذة ثم بنفس الهدوء القاتل تغلقها خلفها.

انهرت جاثيًا على ركبتي وشهقت كأن جبلًا كان جاثمًا على صدري. استندت على كرسي الصالة ونهضت بصعوبة ثم اتجهت ناحية باب الشقة. قطعت السلم نزولًا متجاهلًا الصدمات التي تكبدتها بسبب الظلام حتى خرجت من باب العمارة. ركعت محاولًا التقاط أنفاسي وأنا أبحث بعيني عن الأفرع التي سرقت ابنتي. لمحت الفرع الذي كان يحملها فانطلقت عابرًا الشارع إلى رصيف الحديقة.

الفرع كان عاليًا فبحثت حولي على شيء أضربه به فلم أجد. صعدت فوق إحدى السيارات لكنه كان أسرع مني وعبر فوق سور الحديقة ليختفي بابنتي في غياهبها.

أخذت أكثر من خمس دقائق أحملق في ظلمة الحديقة التي لم يستطع ضوء عمود الإنارة اليتيم أن يخترقها لأكثر من نصف المتر. ثم تأججت نيران الغضب بداخلي حتى أحرقت كل المشاعر الأخرى. لم يعد لدي حزن على ابنتي ولا قلق على زوجتي ولا خوف من هذا الكيان الشيطاني الذي يحتل مربع (المحروقي).

فقط هناك الغضب.

نهضت واقفًا ودرت حول سور الحديقة محاولًا العثور على ثغرة أستطيع

t.me/qurssan

التسلل منها أو مكان في السور لا تعلوه الأفرع الشائكة. صرخت بأعلى صوتي:

- أخدت بتي؟؟؟ فكرك هسيبك؟؟؟ لو كنت إبليس نفسه مش هسيبك.

وصلت للبوابة التي تترأس الحديقة. هززتها بقوة ثم قررت أن أقفز من فوقها.

تؤتؤتؤ.

تركت البوابة وأخذت خطوة للوراء وصحت:

- عايز إيه؟؟؟؟ والله لوَلّع في الجنينة دي!!!

ثم هجمت على البوابة الصدئة وضربتها بقدمي. كنت على وشك القفز فوق البوابة لكن شيئًا ما لفت انتباهي. فى شرفة العائلة الماليزية وقف سكان المربع ينظرون إليّ.

- عايزين إيه؟؟؟

صرخت وأنا أتقدم إليهم بعدوانية.

- كلكم مشتركين في اللي بيحصل!!! مبسوطين؟؟؟ انتوا إيه؟؟؟ مجرمين!!! كلكم مجرمين!!!

سمعت صراخ هستيري صادرًا من عمارتي وقبل أن أفهم ما يحدث

t.me/qurssan

رأيت (نهى) تخرج حافية القدمين بينما تسيل الدماء من بين ساقيها وهي تركض باتجاهي. قبل أن أتحرك لاستقبالها لمحت الدكتور (عادل) والعجوز (سوسن) يخرجان من العمارة المجاورة ويركضان في اتجاه (نهى). أمسكت (سوسن) بزوجتي وهتف بها (عادل):

- ارجعي يا بنتي!!

انحنيت لالتقط حجرًا من الأرض وتقدمت لاستقبال زوجتي عاقدًا العزم على تهشيم رأس (عادل) وخنق (سوسن) بيدي العاريتين.

- سيبيهاااا!!!!

صرخت بكل قوتي وغضبي في (سوسن) التي أمسكت (نهى) مانعة إياها أن تصل إليّ. رفعت يدي بالحجر وهجمت على (عادل) الذي حال بيني وبين زوجتي.

- (كريم)!!! استنّى!!

التفتّ لأرى (أمير) يخرج خلفهم من بناية الماليزيين ويشير إليّ بكفه.

- استنّى؟ استنّى إيه؟ أنت مش شايف؟ دول...

قطعت كلامي وأنا أشاهد (نهى) تحاول الافلات من (سوسن) وعلى وجهها تعبير حيواني متوحش. ترعد وتزبد وتزمجر كأنها حيوان برّي وعيناها على الحديقة، كما كانت الطفلة الماليزية تفعل تمامًا.

t.me/qurssan

التفتّ للحديقة ولهولي رأيت الشجرة العملاقة وقد تضاعف حجمها بشكل مخيف وامتدت فروعها الشيطانية إلينا كأنها وحش أسطوري. الأغصان تحولت إلى أنصال حادة لا تعرف الرحمة بينما يخرج من الحديقة صوت كأن مئات الأشخاص يتنهَّدون في نفس الوقت.

صوت يشيب له الولدان.

- ادخلوا بيوتكم بسرعة!! صاح دكتور (عادل).

أطاعه السكان جميعًا وأخذت أنا (نهى) بين ذراعيّ ودخلت العمارة. وقفنا في منور السلم نراقب الأفرع التي جنّ جنونها وهى تحاول الوصول إلى (نهى). يكاد الصوت المفزع الذي يخرج من الحديقة أن يصيبنا بالصمم. سمعنا صراخ من البناية المجاورة ورأينا الأفرع الجهنمية تكسر نافذة الماليزيين في عنف.

صرخت (سوسن) وانكفأت على ظهرها وعيونها الجاحظة عالقة على الشجرة الشيطانية. تراجعت بسرعة و(نهى) بين ذراعيّ تصر على الإفلات. حاولت أنا بكل ما أوتيت من قوة الابتعاد عن الفرع الداكن السميك الذي اقتحم مدخل العمارة كأنه ثعبان عملاق ذو قرون قاسية. هرع (عادل) أعلى السلم وأخرج (أمير) مسدسه ليطلق على الفرع بضع رصاصات لم يكن لها تأثير.

- (كريم).

t.me/qurssan

جاء صوت (نهى) ضعيفًا فنظرت إليها لأجدها محدّقة في عيني بسكينة. لم أجد ما أقوله فتركت دموعي تسيل دون أدنى مقاومة.

- مش غلطتك يا (كريم).

ثم فجأة وقبل أن يصل الفرع إلى (سوسن) انسحب بسرعة البرق خارج العمارة. كذلك فعلت جميع الأفرع لتعود الشجرة إلى حجمها وشكلها الطبيعي في ثوان. في نفس اللحظة دخل الساحة زوج (سمر) ومعه قوة من الشرطة وسيارة الإسعاف.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

22

كم كنت ساذجًا.

كيف تخيلت أن تكون نهاية ما يحدث سعيدة؟

لكن مهما علا سقف توقعاتي لم يكن ليصل إلى أن أرى شجرة تتحول بهذا الشكل. لابد أن ما ينمو في الجحيم لا يقل عنها بشاعة.

ليلتها عرفت ما كانت أمي تحميني منه، لكن بعد فوات الأوان. فقد كان ما رأيته هو كابوس مخيف سوف يؤرقني بقية حياتي.

التي لم يعد لها معنى.

جال كل هذا بخاطري وأنا أنقل بصري من العسكري ضئيل البنية

t.me/qurssan

الذي وقف كالتمثال بجواري إلى القيود الحديدية التي تربطني بماسورة المياه في منور عمارتي. اعتدلت في جلستي باحثًا عن وضع أكثر راحة ثم هززت رأسي غير مصدق الوضع الذي أصبحت فيه.

رغم أن جفوني كانت تغلق من تلقاء نفسها لكني استعنت بإضاءة السلم الضعيفة لأتابع حركة الممرضين والأطباء داخل وخارج شقتي. لمحت (سرسن) وهي تتهادى في طريقها إلى المطبخ وبيدها آنية بها شيئًا ما تخشى وقوعه على الأرض. ثم تناهى إلى مسامعي أصوات طاقم الإسعاف في محاولاتهم المضنية لإنعاش (نهى) والسيطرة على النزيف الذي تسبب فيه خروج الجنين بهذه الطريقة الوحشية.

صرفت نظري للنافذة الضيقة التي تفتح على السلم وأخذت نفسًا عميقًا وأنا أنهل من ضوء النهار نهلًا. فها هو صباح يوم الاثنين قد جاء أخيرًا لكن بعد أن انقلبت حياتي إلى فوضى عارمة.

- حاولنا نحذرك.

رفعت جفوني بصعوبة لأنظر للدكتور (عادل) بوجهه الضخم المتورِّد. كان مستندًا على باب الشقة في منامته وفوقها الروب المنزلي.

- دول هم كانوا أسبوعين بس وكنت متخيل إنهم هيعدوا بسرعة. وبعدين أنا عمري ما كنت هتخيل اللي بيحصل ده. أنتوا اللي كان المفروض تيجوا دوغري من الأول وتقولولي على كل حاجة بشكل مباشر.

t.me/qurssan

– ما هي حكاية الأسبوعين دي كانت هي المشكلة. لا هم يومين نستحملهم ويمروا بسلام من غير ما تحس بحاجة ولا هي إقامة دايمة وساعتها نقولك كل حاجة وتبقى واحد مننا. علشان كده حاولنا نقنعك تمشي قبل يوم الجمعة بس أنت رفضت. رغم إني متأكد إنك كنت حاسس إن فيه حاجة هتحصل ليلة السبت لكن أنت مصدقتش إحساسك.

– مين ممكن يصدق اللي بيحصل ده من غير ما يشوفه أوصاد عينه يا دكتور (عادل)؟ مستحيل كنت أصدق إن (المحروقي) ده لسه عايش في الجنينة وبيقتل الناس. ده أنا طول عمري شايفه راجل عجوز غلبان في حاله.

– ده لسه مفهمش.

قالها (عادل) مبتسمًا فرفعت حاجبًا واحدًا:

– نعم؟؟؟ هو مش هو ده اللي بيحصل ولّا إيه؟ أنت هتجنّني؟

ظلت ابتسامته تضيء وجهه الأحمر وعقد ذراعيه أمام صدره قائلًا:

– أنت فاهم بس بتِعْنِد.

لثوانٍ طويلة استمريت في التحديق في محدثي الذي عدّل من وقفته قليلًا ليبدل ساق أمام الأخرى ثم سألته بغباء:

– يعني مش هو اللي بيعمل كده؟

t.me/qurssan

تابعت الدكتور (عادل) الذي استدار ليواجه السلم ويرحب بـ(ياسر) ومدام (ماتيلدا) ومن خلفهم أستاذ (سامي). نظر لي الأخير بعينيه الناعستين وفمه المضموم ثم أومأ برأسه الطويلة في وقار. حرَّكت الأصفاد التي تكبِّل يدي اليسري قليلًا كي تخفف الضغط على رسغي وبادلته التحية. ثم التفتّ إلى (عادل) الذي اعتدل في وقفته وقال:

- هو. بس (المحروقي) مش عايش ومش هو اللي بيقتل الناس.

- نعم؟؟

خرج أستاذ (سامي) من شقتي بمشيته الآلية وفي يده أحد كراسي السفرة. جلس على يميني وقال:

- المحروقي مات على إيد رجالة (ناصر عبد الغفار). ودي حكاية الناس كلها عارفاها بعد ما لاقوه مرمي في آخر أرض (الغفافرة). لو مش عارفه مين (ناصر عبد الغفار) يبقى مش لازم تسمع بقيت الحكاية.

- لأ عارفه، ما تتنرفزش عليًّا.

أتي الدكتور (عادل) بكرسي آخر من كراسي السفرة لتجلس عليه (ماتيلدا) التي وضعت حقيبتها على ساقيها وأكملت ما بدأه زوجها:

- بعد المغربية العيال لقيت نسر واقف عليه وخافوا يقربوا منه.

التفتّ إلى (ياسر) الذي جلس على السلم وصحح ما قالته (ماتيلدا):

t.me/qurssan

- عُقاب يا مدام (ماتيلدا) مش نسر.

رفعت الأخيرة عيناها وحاجبيها وفتحت فمها على آخره محاولة التذكر لكن (ياسر) استطرد موجهًا حديثه إليَّ:

- وعلى أساس إن الغفر اللي شافوا المنظر ده قعدوا يحلفوا إن العُقاب ماكنش بياكل فيه.

ظهر المهندس (أكمل) على السلم والتقط طرف الحديث من هذه النقطة:

- قالوا إن العُقاب كان حاطط منقاره في ودنه. زي ما يكون بيوشوشله. و(المحروقي) عينه كانت مفتوحة وفكُّه بيتحرك كأنه بيقول حاجة.

كنت أتابع القصة بمزيج من الرهبة والتشكك لكني لم أعلق. سمعت صوت (شريف) الطيار فحولت نظري لأجده يقف في زيه المعتاد أعلى السلم:

- طبعًا علشان كمية الطلقات والطعنات اللي كانت في جسمه ما سبتش حتة سليمة حطوه في عربية نقل وطلعوا على المشرحة طوالي.

ثم التفتَ إلى (أكمل) الذي أنهى هذا الجزء من القصة بقوله:

- لكن لمّا وصلوا هناك ملاقوش جثته.

مرت دقيقة من الصمت قضيتها في تأمل وجوههم الواحد تلو الآخر. قطعها مرور ممرضة بدينة نظرت إلينا بتوجس وهي تحمل زجاجات طبية.

t.me/qurssan

انتظرت حتى عبرت بيننا ونزلت السلم لأقول:

- ممكن يكونوا غلطوا في تقييم حالته ومكنش ميت فعلًا. مع إني شاكك في الحكاية دي بس ماشي. وبعدين؟ ظهر هنا إزاي؟

بدأ الدكتور (عادل) السرد قائلًا بابتسامته العريضة وهو يستند على الحائط بجوار (سامي):

- محدّش يعرف (المحروقي) وصل للقاهرة إزّاي وامتى بالظبط. بيقولوا فيه حدّ قريبه جابله شغلانة الغفارة دي. وكانت فرصة لا تعوض إنه يختفي وسط الزحمة ويقضي أيامه اللي فاضلة.

ثم أعطى الدفة لـ(ياسر) الذي استطرد:

- خلي بالك إن (المحروقي) لما جه القاهرة كان معدّي الميت سنة. ما نعرفش كان فين في المدة اللي بين واقعة حريق بيت (ناصر عبد الغفار) واللحظة اللي ظهر فيها واستقر في القاهرة.

أردف (أكمل) الذي أراح جسده البدين بجوار (ياسر) على السلم الصاعد للطوابق العليا:

- بعد ما أنت سافرت بخمس سنين، في نفس السنة اللي أنا جيت فيها هنا، كان باين عليه المرض الشديد.

أكمل (سامي) الإتمّ من هذه النقطة:

t.me/qurssan

- زي ما يكون كان بيخلّص خلاص فعلًا المرة دي. بعدها بطّل يظهر.

تأكدت (ماتيلدا) من وضع الباروكة الصفراء الصارخة على رأسها ثم قالت برقتها المصطنعة:

- والنقيب (أمير) هو اللي صمم يحقق في الموضوع. كان لسه صغير حبيبي. بس ما لقاش أثر ليه في الجنينة. ولا حتى دليل على وجوده غير الكشك المِكَسَّر وبقايا النار اللي أنت شفتها.

هنا قال (ياسر):

- بس محدش أخد باله من كذا حاجة مهمة جدًا. أولًا بقايا النار دي كانت بتجدد كل يوم والنور بتاعها كان بيظهر لثواني وبعدين يختفي.

قال (سامي) وقد التوت ملامحه للإيحاء بالقرف رغم أني لم أرى داعي لكل هذا المجهود فملامحه تعطي دائمًا هذا الإيحاء:

- ثانيًا الريحة البشعة اللي ملهاش مصدر، ريحة حد أو حاجة ميتة ودائمًا موجودة جوه الجنينة بس.

نظرت إلى (عادل) قائلًا:

- وده سبب البخور اللي بتستخدموه؟

فأومأ برأسه الكبيرة مؤكدًا وأردف:

- والحاجة التالتة إن ساعات كان بيرنّ في المربع صوت بكاء خافت

t.me/qurssan

مُقبِض. معظم الأحيان كان بيبقى قبل الفجر وبيستمر لأقل من دقيقة.

سألتهم:

- يعني محدش شاف جثته أو شافه وهو بيمشي من المكان؟ ولا حتى عرف مصدر الصوت والريحة؟

أجاب (عادل):

- لأ. محدش يعرف الحقيقة. غير (محروس) طبعًا.

ترك الجمع (عادل) يدير دفة الحديث فأضاف:

- هو الوحيد اللي عارف سر (المحروقي). طبيعة شغلانته خلّته يلاحظ ويراقب كويس وهو أول واحد يشوف مصدر الصوت.

- شاف إيه؟

سألت بمنتهى الفضول فأجابني (عادل):

- شاف طيف (المحروقي) في الجنينة بعد ما بطَّل يظهر بكذا شهر. ما خفش منه، بالعكس، (محروس) صعيدي وشاف كتير. ده غير إنه كان عارف قصة (المحروقي) وهو أول واحد يشكيله.

سألته: يشكيله إيه؟

فأجاب: وفاة ابنه.

t.me/qurssan

- نعم؟؟ ليه؟

قطع سيل الأسئلة خروج طبيب رفيع البنية من غرفة النوم واتجه لباب الشقة. تسمّرنا جميعًا وعيوننا عليه فأخذ نفسًا عميقًا وثبّت نظره عليَّ قائلًا:

- المدام للأسف... حالتها مش مستقرة.

انتفضت من جلستي متجهًا إليه لكن قيودي منعتني. هتفت بالعسكري الذي كان يراقب الحوار بعيون جاحظة كي يفكّ أسري لكنه نظر إليَّ وهزّ رأسه قائلًا:

- مش هينفع.

- عايز أدخل لمراتي بس.

نظر أمامه متجاهلًا توسلاتي فحولت عيني للطبيب وهتفت:

- مراتي مالها يا دكتور؟

- الطفلة اللي ماتت في بطنها قعدت فترة وسببت أضرار جسيمة في الأم. شكلها كانت متوفية قبل ما توصل مصر. إزاي الدكاترة هناك ماخدوش بالهم؟

لم يكن هذا صحيحًا فقد ظهرت نتيجة التحاليل الأخيرة التي قامت بها (نهى) بعد وصولنا مصر ببضعة أيام لكننا تجاهلناها. وقد طلب الأطباء حضور

t.me/qurssan

(نهى) لاجراء المزيد من الفحوصات لأنهم -كما أخبروا (علياء) وأخبرتني هي بدورها منذ ساعتين فقط- كانـوا يشُكُّون في صحة الجنين.

صرخت في (عادل) وأنا أحرك الكلبش الذي كان يقيدني في الماسورة بعنف:

- دكتور!!! قوله يفكّني لو سمحت.

نظر إليَّ وعلى وجهه تعبير ثابت كأنه يحاول السيطرة على مشاعره.

استسلمت لوضعي وارتميت على الكرسي. ثم نظرت للطبيب الذي استدار ليعود للداخل.

- يعني (نهى) هتبقي كويسة ولّا إيه؟

هز رأسه وقال:

- مش هيبان دلوقتي. عندها تسمم قوي و... هنشوف.

قالها ثم اتجه للغرفة حيث ينتظره طاقم المسعفين. نظرت للعسكري مستعطفًا فتركني ودخل الشقة.

أغمضت عيني بقوة وتركت الندم يفعل بي ما يشاء. استغرقت ما يزيد عن الدقائق الخمس قبل أن استجمع شتات نفسي وأفتح عيني.

التفتّ للجمع فوجدتهم يحدقون بي وعلى وجوههم نفس التعبير المريب، كأنهم ينتظرون مني شيئًا. صحت فيهم وقد بدأت أتوتر:

t.me/qurssan

- مبسوطين؟؟

لم يأتني رد.

- مالكوا؟ فيه إيه؟؟ بتبصّولي كده ليه؟ ما تردوا!!

للمرة الثانية لم يأتني رد.

سكَنَت ثورتي وأنا أراقب جيراني الذين بدأوا يتحولوا لصورة زيتية ثابتة.

حاولت النهوض لكن قيودي منعتني ولم تستجب لمحاولاتي العنيفة. نقلت بصري من وجه لآخر لكني كنت أري نفس التعبير الزجاجي المخيف: لقد أصبحوا تماثيل تنظر إليَّ.

ثم هبّت الرائحة.

هذه المرة جاءت الرائحة اللعينة تحملها نسمة هواء. رأيتها تتراقص على السلم في شكل دوامة ترابية متجهة إلينا صعودًا. حاولت الصراخ في من حولي لكن كنت في حالة نفسية أضعف من أن أفعل أي شيء غير التحديق فيهم.

مددت يدي لأستاذ (سامي) الذي كان يجلس على يميني لكني سحبتها بسرعة حين تحركت عيناه.

لم تتجه إليَّ ولكن لأسفل السلم.

نظرت هناك فلم أرى شيئًا وهذا سبب بسيط: لقد كان مظلمًا تمامًا.

t.me/qurssan

أين ذهب ضوء النهار؟

حاولت اختراق الظلام بالأسفل لكن لم أستطع. حتى شقتي بدأت أنوارها تخفت.

- فيه إيه يا أستاذ (سامي)؟ فيه إيه تحت في السلم؟

ثم سمعت خطوات الأقدام.

حدقت في السلم المظلم حيث يصدى الصوت الرتيب. بدأت أجراس الخطر كلها تدق في رأسي خاصةً وأن جيراني قد وضعوا أيديهم على صدورهم وبدأوا يتنهدون بإيقاع مضطرب وهم يرتجفون.

انتبهت مرة أخرى للخطوات التي بدأ صداها يرتفع ويرنّ في منور السلم كأنه يبث من ميكروفون. ارتفع معدل نبضات قلبي بنفس إيقاع الخطوات وأنا أحاول تخيل مصدر الصوت المثير للأعصاب. لم يحتاج الأمر إلى عبقرية فذة كي أستنتج «إنه» يصعد إلينا.

وفي وضح النهار.

وجّهت انتباهي للأصفاد اللعينة وحاولت التملص منها بإصرار وقوة وعقلي يصرخ: إيه اللي بيحصل؟ الله يخربّ بيوتكوا.

تجمدت مكاني وانتصب شعر جسدي كله حين سمعت الصوت الذي أتى من السلم المظلم:

تؤتؤتؤ.

t.me/qurssan

23

- كان لازم أعرف إيه اللي بيحصل سيادتك.

قال (أمير) لضابط أسمر ضخم يضاهيني حجمًا برتبة عقيد. رجع الأخير ليريح ظهره على كرسي المكتب وعقد يديه أمام صدره قائلًا:

- أنا قلتلك تستنى لغاية ما نفهم حكاية سكان جنينة (المحروقي) بس أنت برضه عملت اللي في دماغك.

- إزاي سيادتك؟

- مش قعدت سنين تِلِحّ عليّا علشان نراقب المنطقة دي والسكان بتوعها؟ وأنا طاوعتك كذا مرة والتقارير ما أظهرتش حاجة؟ برضه اتحركت من نفسك في الآخر.

t.me/qurssan

– أنا كنت متأكد إن سيادتك هتقول كده. أوكدلك إن نِيِّتي مكانتش مُبيّتة. كان لازم أتصرف بسرعة علشان أعرف هيعملوا ايه في البنت سيادتك.

– والنتيجة؟ عجباك؟

تململ (أمير) في وقفته وقال:

– أنا عارف إن محدش من القوة اللي دخلت المربع شاف اللي حكيته لسعادتك والتحول اللي حصل للشجرة بس أؤكد لك مرة تانية إن ده اللي حصل. يعني كل ده وسيادتك مش مقتنع إن فيه حاجة غريبة في جنينة (المحروقي)؟ وبعدين سيادتك الموضوع ابتدي ببلاغ من حد من سكان الجنينة. حد لاحظ اللي بيحصل للبنت الماليزية دي وماقدرش يسكت. دلوقتي في واحدة تانية اختفت وجوزها قالب الدنيا.

– طب على الأقل عرفت مين اللي عمل البلاغ الأولاني؟

– ما ظهرتش هويته لغاية دلوقتي. شكله خايف من بقية السكان، بس أنا مستنتج هو مين.

– مين؟

– شاب اسمه (ياسر). الشاب ده بيتصرف برة القطيع وحاول كذا مرة يساعد ويِوَجّه (كريم السيوفي).

– وهل كل ده كافي إنك تتخطى كل الاجراءات المظبوطة؟

t.me/qurssan

- يا (عصام) باشا، دا سيادتك اللي معلّمني. تقدر سيادتك تنكر إن كان فيه حاجة مريبة في تقارير المراقبة؟ إزّاي السكان كلهم متفقين على إجابة واحدة. محستش سيادتك إنهم مخبّيين حاجة؟ ده غير الزيارات شبه المعدومة ليهم من برة المربع.

سيادتك الجنينة دي عالم بذاته.

واللي عملها بالشكل ده هو (المحروقي) نفسه.

- اللي كان عايش من ميت سنة؟

قالها (عصام) هازئًا. أغلق (أمير) عينيه وأطلق زفيرًا قويًا وهو يهز رأسه دون أن يجيب. يعلم جيدًا أن ما يقوله صعب التصديق.

تبادل العقيد (عصام) نظرة طويلة مع رجل أسمر في بذلة رمادية يجلس أمامه على أحد الكرسيين. أنهاها الرجل الغامض فارع الطول بإيماءة من رأسه التفت بعدها (عصام) إلى (أمير) قائلًا:

- خلاص. قولّي، عملت إيه وشفت إيه بالظبط؟

- حوالين مربع (المحروقي) سيادتك فيه أرض فاضية وطريق سريع. رجل أمن السفارة كان واقف عند باب العمارة وبالتالي دي كانت الطريقة الوحيدة إني أدخلها. لفّيت من الأرض الفاضية ونطّيت من فوق السور لجنينة العمارة بتاعة الماليزيين. دخلت من شباك السلم وطلعت بسرعة

t.me/qurssan

للدور اللي فوق دورهم. لمّا عدّيت من جنب شقتهم سمعت زعيق وعياط وحاجات كتير معرفتش أطلع منها بحاجة. كان لازم أشوف مكان أسمع منه اللي بيحصل أفضل من كده.

مد العقيد (عصام) يده للمنفضة والتقط السيجارة المشتعلة ليأخذ نفسًا ويضعها مكانها برزانة. رفع عينيه لينظر لعينيّ (أمير) الواسعتين المرهقتين مباشرةً وقال بوجه صارم:

- أنت قلت إن سكان المربع كله تقريبًا طلعوا معاهم، صح؟

- معظمهم سيادتك.

- و(كريم السيوفي)؟

- هقول لسيادتك.

- طيب كمّل.

- وصلت الشقة اللي فوقهم ورفعت الممسحة. وزي ما توقعت، لقيت مفتاح الشقة تحتيها. لما رحت للشقة اللي أوصادها لقيت مفتاح تحت الممسحة بتاعتها برضه ولما جربته فعلًا فتح الباب. ودي حاجة تانية غريبة جدًا سيادتك، حاجة هتعرف تفسيرها حالًا.

التفت (عصام) للرجل الطويل الذي أبدل وضع ساقيه.

- أكمّل سيادتك؟

t.me/qurssan

- اتفضّل.

قالها (عصام) وهو يأخذ نفسًا آخر من السيجارة فاستطرد (أمير):

- المهم رجعت تاني للشقة اللي فوقهم ودخلتها. نور الشارع كان جايّ من العمود الوحيد اللي شغال فى المربع ومكانش كافي طبعًا. بس أنا كنت عارف اتجاه البلكونة. كان عندي شعور عجيب. الشقة المهجورة بقالها سنين من غير سبب مقنع مع قصة الجنينة وتطورات الكام يوم اللي فاتوا امتزجوا مع بعض علشان يدّوا للموقف طابع كابوسي ماريّحنيش.

حدّق (عصام) في وجه (أمير) للحظات ثم قال:

- كمّل. سمعت إيه لّما طلعت البلكونة؟

- الشقة اللي كنت فيها كانت من الشقق القليلة اللي بلكونتها مش متقفّلة أوضة. فتحت الشيش بهدوء ونزلت أمشي على إيدي ورجلي لغاية السور.

الناس كانت متجمّعة في الصالة في الشقة اللي تحت فكنت سامع كويس. النقاش كان على أشدّه وغالبًا الأم كانت بتعيّط لأني سمعت واحدة ست بتهدّيها بإنجليزي ضعيف. ومرة واحدة سكتوا كلهم وسمعت بعدها حوار طويل جدًا. حوار فهمت منه كل حاجة.

- أقعد وقول الخلاصة.

t.me/qurssan

جلس (أمير) أمام الضيف وتردد للحظة.

- ما تنطق يا بني. قالها (عصام).

تنحنح (أمير) ورفع عينيه ليرى ابتسامة الضيف الغامض ثم التفت لـ(عصام) قائلًا الخلاصة.

- الخلاصة سيادتك إن البنت الماليزية دي ماتت من يومين.

- نعم؟؟؟ أنت بتهزر يا سيادة النقيب!!!

- سيبه يكمل يا (عصام).

قالها الضيف بصوت رزين فالتقط (عصام) سيجارته من المنفضة وأخذ نفسًا آخر ثم وضعها مرة أخرى بعصبية. رسم ابتسامة مصطنعة وقال (لأمير):

- كَمِّل يا سيدي.

حدق (أمير) في وجه الضيف الأسمر المثلث واستطرد موجهًا الحديث إليه:

- (محروس) البواب مشغل سمسار لحسابه بيصطاد الناس من المستشفيات، الناس اللي عندهم فرد مريض مرض مميت. يأجروا شقة جنب الجنينة لغاية لما ربنا يتوفاه أو يتوفاها. وأظن التحريات اثبتت كدة.

t.me/qurssan

- الجنينة تاني؟ ممكن تقولي إيه المميز في الجنينة دي؟ غير المهابيل اللي ساكنين حواليها.

كان سؤال (عصام) فالتفت إليه (أمير) قائلًا:

- المميز فيها هو (المحروقي) سيادتك. (المحروقي) بيحبس الروح عنده وبيسمحلها تطلع يوم واحد في الأسبوع تزور أهلها. وبقول «يحبس» لأن فهمت من (كريم السيوفي) إن أمه ليلة ما طلعت قالتله إنها عايزة (المحروقي) يطلق سراحها.

حوَّل (أمير) نظره إلى الضيف مستطردًا:

- في اليوم ده سيادتك أهل البيت بينزلوا ومعاهم الأكل اللي بيحبه الميت بتاعهم. بيحطوه في الجنينة ويستنوه بالليل لما يطلع. البيت نفسه لازم يكون جاهز لاستقباله، يعني المفتاح يفضل في مكانه تحت الممسحة وسكّان البيت على سنجة عشرة.

- والكلام ده شغال من إمتى؟

سأل (عصام) فأجابه (أمير):

- زي ما قلت لسيادتك (محروس) هو أول واحد شاف (المحروقي) بعد ما مات وسكنت روحه الجنينة. وهو اللي استغل قدرة الروح دي على حبس أرواح الموتى لصالحه.

t.me/qurssan

- يعني (المحروقي) ده هو اللي حكيتلي عنه؟ هو اللي خَلَّص على عيلة (الغفافرة) عندكم في الصعيد؟

كان سؤال (عصام) لضيفه الذي ابتسم لكن (أمير) كان أسرع منه بالإجابة:

- مظبوط سعادتك. (المحروقي) بقى روح ملعونة بينهش فيها الندم على قتله ولاد (ناصر عبد الغفار). أنا عارف إن ده صعب تصديقه بس دي الحقيقة اللي تجاهلناها السنين دي كلها. علشان كدة محدش وصل لنتيجة في قضايا الاختفاء بتاعة جنينة (المحروقي) سيادتك.

رمى العقيد (عصام) ضيفه الغامض بنظرة خاطفة قبل أن يسأل (أمير):

- و(المحروقي) ده عايز إيه؟ بيعمل كدة ليه؟

- هو بيسعى ورا حاجة مستحيل إنها تحصل سيادتك.

- هي إيه؟

هنا تدخل الضيف الغامض في الحوار ليجيب على سؤال (عصام):

- الغفران.

التفت كلاهما للضيف قبل أن يسأله (عصام):

- أنت مصدق الكلام ده؟

t.me/qurssan

أجابه الضيف بكل ثقة وهدوء:

- تمامًا. أنا قلتلك الكلام ده زمان. مصدقتنيش.

التفت (عصام) إلى (أمير) قائلًا:

- ماشي يا (أمير). اتفضل سيبنا أنت.

تنحنح (أمير) وقال:

- طيب سيادتك مش هتقولي التحريات عن سكان الجنينة وصلت لإيه؟ وهنعمل إيه الخطوة اللي جاية؟

ثم تعمد أن يلقي نظرة خاطفة على الملفات الملقاة على مكتب قائده فأخذ الأخير نفسًا عميقًا وأجابه:

- كل اللي قلته مظبوط. كل سكان جنينة (المحروقي) سكنوا قبل ما يموت حد قريب ليهم بالكتير بأسبوع. وكل حالات الوفاة طلعها دكتور صحة واحد. بس ده مش معناه إني مصدق الكلام ده.

(أمير):

- طب ودكتور الصحة نفسه؟

- متقلقش إحنا هنخليه يعترف بكل حاجة. عمومًا اتفضل أنت روح شوف شغلك بقى. ولّا أنت ماعندكش حاجة تعملها غير القضية دي؟

t.me/qurssan

قال (عصام) جملته الأخيرة فنقل (أمير) بصره بين رئيسه وضيفه وتردد قبل أن يقول بحلق جاف:

- بس موضوع جنينة (المحروقي) لسه ما خلصش سيادتك. (كريم السيوفي) اللي سيادتك أمرت إنه يتحبس في بيته، الراجل ده حياته انتهت ولازم نساعده سيادتك.

ارتفعت نبرة العقيد (عصام):

- خِلِصنا بقى من موضوع الجنينة والعفاريت ده. نفّذ الأوامر يا سيادة النقيب!!

أحمرّ وجه (أمير) وقال:

- بس سيادتك (كريم) ده هو اللي أرشدنا لموضوع تصاريح الدفن ووجوده أساسي في القضية. دي لو كانت قضية (سمر) هي القضية الوحيدة.

حدّق فيه (عصام) لوهلة وجزّ على أسنانه قائلًا:

- أنت عايز إيه بالظبط؟

أخرج (أمير) ورقة من جيبه ووضعها أمام رئيسه وأجاب بإصرار:

- عايز أفتح كل قضايا الاختفاء بتاعة جنينة (المحروقي) وأنهي موضوعها نهائيًا. الجنينة دي قنبلة موقوتة سيادتك وأنا عارف إنك دلوقتي بتقول عليًا مجنون بس أنا متأكد إن (المحروقي) لسه محبوس جوه، وبالصورة

t.me/qurssan

اللي شرحتها لسيادتك. ممكن يكون كل اللي عايزه إنه يعوض الناس اللي توفى ليها حد - يمكن ده يغفرله اللي عمله - بس هيفضل خطر على المنطقة كلها.

- هيفضل خطر ليه؟ سأله (عصام).

- لأنه بيطلع من الجنينة سعادتك. لو أهل المتوفي لعبوا بديلهم زي بتوع ماليزيا دول وهربوا بالميِّت بتاعهم بتحصل كوارث. و(المحروقي) لو طلع يدَوَّر عليه وشافك أو حس بيك، هياخدك، وبدون أدنى مشاعر. ومفيش حاجة هتقدر تمنعه.

فكر العقيد (عصام) للحظات وقال:

- زي اللي حصل مع اللي اسمها (سمر)؟

أجاب (أمير):

- بالظبط سيادتك.

نظر (عصام) لضيفه وهو يهز رأسه رافضًا ما يسمعه. فما كان من الرجل الغامض إلا أن أومأ برأسه ليؤكد ما يُقَال بابتسامة واثقة.

- طيب إيه هو مقترحك علشان تنهي القصة دي زي ما بتقول؟

قالها (عصام) لـ(أمير) الذي أشار للورقة التي وضعها على المكتب وقال بحماس:

t.me/qurssan

- أنا عارف سيادتك إن الداخلية مش ممكن تتدخّل والموضوع ده أساسًا حَلُّه مش بالقوة. حَلُّه في الورقة دي. وخلي بالك سيادتك، إحنا معندناش وقت، لأني أعتقد إن (المحروقي) هيطلع من الجنينة النهاردة. إن مكنش طلع خلاص.

- إشمعنى؟

- لأن في حد ميعاده قرَّب سيادتك.

رمقه (عصام) لوهلة قبل أن يمد يده ليلتقط الورقة. ما أن قرأها حتى أراها لضيفه الذي قال بصوته الرزين:

- طلبك ده عندي أنا يا سيادة النقيب.

t.me/qurssan

24

كنت ما زلت مكبل بالأصفاد في ماسورة المياه في منور السلم أنتظر ما هو حتمي.

المكان كله يكاد أن يغرق في بحر من الظلام التام بينها سكان جنينة (المحروقي) يجلسون حولي في حالة من الثبات الغريب. كأنهم أيقاظ ويشعرون بها يحدث حولهم لكنهم متخشبين كالتهاثيل بكامل إرادتهم.

تحين من أحدهم لفتة ومن الأخرى تنهيده ومن هذا اختلاج بسيط في أصابعه، هذا كل شيء. إنهم ملمّين بها يحدث حولهم تمامًا لكنهم يخشون القيام بأية حركة.

أما صوت الخطوات الرتيب فكان مستمر في الصعود.

ولا أسمع شيئًا غيرها.

t.me/qurssan

لا يخرج صوت من شقتي المزدحمة بطاقم التمريض ولا أسمع حسًا لـ(سوسن) الثرثارة. حتى محيط العمارة والمربع بأكمله شعرت كأنه تحول إلى مدينة أشباح صامتة.

التفتّ لجيراني وحدقت في عيونهم المثبتة على أماكن متفرقة شاعرًا إنهم يترقبون شيئًا.

وكنت أعلم أن ما يرتعدون منه هو هذا الذي توقفت خطواته عند البسطة بين الطابق الأول والطابق الذي أجلس فيه.

لمحت جيراني يختلسون النظر لنهاية السلم المظلم لجزء من الثانية ثم تعود عيونهم لوضعها الزجاجيّ من جديد.

اختلاجاتهم وارتعاشاتهم تشي برعب لا يوصف. دققت النظر إلى السلم متوقعًا رؤية لوحة سوداء من الظلام لكني رأيت ما ينتظرونه.

هناك من يقف في أسفل الدرج على البسطة، بالضبط عند الحد الفاصل بين النور الضعيف حيث أجلس والظلام الدامس حيث يقف. شخص ضخم يناهز المترين في زي داكن لم أتبين تفاصيله ولا ملامح وجهه. رأسه نفسها لا تتناسب مع حجمه بكل تأكيد، فهي صغيرة كرأس طفل.

نظرت إلى الأصفاد مرة أخيرة لأتأكد. الهرب ليس حلًا مطروحًا إذًا.

رغم أنني كنت لا أراه جيدًا لكني شعرت به. كنت أتمنى أن تتعطل حاسة الشم لديّ بالمرة لكنها استمرت في إتحافي برائحة الجيَف الميتة تلك كأنها تغيظني. بل وتزداد.

هل أنت مصدر تلك الرائحة أيها الغريب؟ سألت في قرارة نفسي.

صعد هذا الشخص السلم ببطء وبأسلوب لم أستوعبه. لم أفهم إذا كان

t.me/qurssan

خيال لشخص أبعد منه أم هو شخص له بعدين فقط وليس ثلاثة. لولا درجات السلم التي يصعد عليها لكنت احترت إن كان ينزل أم يصعد.

الشيء الوحيد الذي كنت واثق منه هو أن هذا الشخص هو (المحروقي)، ربيا بسبب حجمه وملابسه، ربيا بسبب إنه كان أحدب ذو رأس صغير كما تقول الروايات أو ربيا أن وجوده نفسه يفصح عن ذاته. لا أعلم بالضبط لكني أعلم أنه جاء لـ...

لماذا جاء؟

لماذا خرج من حديقته الجهنمية؟

التفتّ إلى شقتي التي غرقت في ظلام يشوبه وهج خافت، هذا هو كل ما آل إليه ضوء النهار عند عبوره من حول الستائر. في مرآة غرفة النوم الرئيسيّة لمحت طرف الفراش الذي ترقد عليه (نهى) في سبات.

لكن لا يوجد أطباء ولا ممرضين.

يا إلهي!! صرخت في صمت. أين ذهبوا؟؟

نقلت نظري إلى العملاق الذي كان قد وصل إلى الطابق الذي نجلس فيه. ثم نظرت إلى دكتور (عادل) الذي أغلق عينيه بقوة وبدأ يتمتم بشيء تكهنت أنه آيات قرآنية. بجواره يجلس (سامي) الذي كان ينظر إلى الشقة متعمدًا تجاهل الزائر المخيف.

لكنه كان يرتعد، هذا كان جليًا.

لم يكن حال بقية الجالسين أفضل من هذين الاثنين فالكل كان يرتجف خوفًا من هذا الذي استقر أمامنا. لا يخرج منهم إلا همهمه ونشيج صامت.

t.me/qurssan

وبما أنني لم أجد خيارًا آخر أمامي فقد فعلت مثلهم. طأطأت رأسي محدقًا في الأرضية وتوقفت عن الحركة.

وكذلك توقف العملاق.

كان هذا الموقف يتحدى قدرتي على التحكم في أعصابي. وجدت أطرافي ترتعش فأغلقت عيني عَلّي أتمكن من السيطرة عليها.

يا لهذا الصمت الرهيب، ألا يتنفس هذا الشخص؟

كيف يتنفس يا أبله؟ ألم تسمع حكايته.

هل ينظر إليّ؟ لماذا أشعر أنه ينظر إليّ؟

ارتفع صوت تنفسي وشعرت بطنين قاسي يكاد يحطم جمجمتي.

سمعت صوت حفيف خافت كأن شخصًا يخطو دون أن يرفع قدميه من على الأرض. بدأ معدل نبضي في النزول حين شعرت به يبتعد. لكن لم تدم سعادتي بعد أن سمعته يتجه لشقتي ففتحت عينًا واحدة لأنظر بحذر.

لم يكن يمشي بل كان ينزلق. توقف على بعد خطوتين مني، بالتحديد عند باب الشقة.

ثم التفت إليّ بغتة كأنه شعر بنظراتي. أغلقت عيني بسرعة لكن هذا لم يثنيه عن العودة إليّ.

كادت الرائحة أن تسحق رئتي ولم أجد مفر من وضع يدي على أنفي.

أطلق من كانوا يجلسون حولي شهقة عالية كادت تصيبني بسكتة قلبية.

لماذا لم يتنبه إليهم إذًا؟

t.me/qurssan

فتحت عيني لأجد رأسًا صغيرًا ملثمًا على بعد سنتيمترات من وجهي. عينان رماديتان عميقتان كالجبّ وجبهة مليئة بالندبات، ينظر إلى روحي. جلد جاف كالأرض الجدباء المشققة وذراعان بطول ساقي يمسكان بكتفي.

لم أحاول حتى التملص من قيودي ولم أدر كيف احتفظت بوعيي لكني دخلت في حالة هلع تام بعدها بلحظات. ما أن رفع رأسه لأعلى كأنه سيعوي مثل الذئب حتى جاء دوري لأشهق في ذعر. فقد كان ما سمعته أقوى تأثيرًا ألف مرة من العواء.

كان بكاء طفل.

تخيَّل معي عملاق في زي داكن لا تُرى ملامحه يصدر منه صوت طفل رضيع. كان الصوت قوي لدرجة أن أذني استمر فيها الطنين لدقائق طويلة.

انهرت تمامًا ولم أشعر بدموعي وهي تسيل على وجنتيّ. هذا كثير. حتى من كانوا يجلسون حولي كانوا يرتجفون ويبكون في صمت. تمنيت في تلك اللحظة أن أفقد وعيي لكن شيئًا ما جعلني أتشبث به.

انخفض صوت بكاءه حتى صار كأنه مواء خافت لقط مسعور. واقترب وجهه أكثر.

حتى جاء الخلاص في صورة صراخ. انتفض العملاق تاركًا ذراعيَّ الذي كاد يخلعهما من مكانهما ونظر للشقة.

كان هذا صراخ (نهى).

تحرك في اتجاهها بمشيته التي تشبه الانزلاق ودخل الشقة عابرًا بجوار

t.me/qurssan

دكتور (عادل). أشار لي الأخير كي أهدأ ثم قام بتلميحات وإيماءات لم أفهم منها شيئًا.

ماذا يريد هذا الأحمق؟ أتريدني أن أثبت دون حراك وهذا الكائن الشيطاني يدخل لزوجتي؟

همس (ياسر) بشيء فالتفت إليه لأجده يهز رأسه مؤيدًا لـ(عادل) ويضع سبابته على شفتيه لالتزم الصمت.

راقبت (المحروقي) وهو يدخل الشقة ويقف في الصالة ناظرًا حوله كعملاق في بيت أقزام. رفع رأسه الصغير التى تكاد تلمس السقف مرة أخرى ليطلق صياح الطفل المرعب. بدأ يتحرك متجهًا لغرفة النوم حيث تتلوى (نهى) في الفراش ألمًا.

همس (سامي) الجالس بجواري من بين أسنانه:

- هو مش جيّ علشانك. ماتتحركش ولا تعمل صوت وهو مش هيجيلك.

أومّال جاي لمين؟

سألت نفسي دون أن أجرؤ على نطقها بصوت مسموع. ثم التفتّ إلى مشهد (المحروقي) وهو يتقدم ببطء مثير للأعصاب إلى غرفة النوم.

ما أن حوّل وجهه إلى (نهى) حتى فهمت.

لقد حان موعدها وقد جاء (المحروقي) ليأخذها.

لا أستطيع أن أصف شعوري لكنه بعد الرعب بمراحل. رعب وغضب وذعر و... لا لن أتركك تأخذها. لم يبق أمامي إلا الصراخ. حتى لو لم

t.me/qurssan

يخرج صوتي لكن يكفي أن تخرج أحاسيسي الرهيبة.

فصرخت.

- إياك تلمسها!!!!!!!

توقفت أصابع (المحروقي) قبل أن تمس (نهى).

والتفت إليَّ.

وقع لثامه.

فرأيت وجهه.

لا تسألني كيف أو لماذا، لكن حينها فهمت كل شيء. كأن هناك غشاوة انزاحت عن عيني. لا، ليست تلك الغشاوة التي سببها الظلام، لكن تلك الغشاوة التي تحمي عين البشر عن عالم الغيب.

حينها فهمت ما الذي حدث (للمحروقي).

أعلم أنك ستندهش حين أقول لك أني تفهمت ما يفعل.

لم أعد أكرهه.

لم أعد أخشاه.

فهو أب وأخ وزوج وابن مكلوم.

وهو نادم على ما فعل بـ(الغفافرة)

بل كان انتقامه أشد قسوة.

ثم أصبح وحيدًا.

بعد أن حصل على الثأر الكامل لم يعد لديه ما يسعى إليه.

t.me/qurssan

وسيظل كذلك حتى ينال المغفرة أو تحين الساعة.

سيظل روح ملعونة.

روح يحركها الندم على ما فعل، الندم الذي ليس له خلاص.

لذا لم أعد أكرهه.

حتى بعد أن تقدم إليَّ وأمسك بي كأني طفل صغير بيدٍ خشنة كلحاء شجرة قاسية. نزع أصفادي بيسر كأنها مصنوعة من الصلصال ثم جرجرني من ساقي عبر طوابق البناية وسلالمها بدون أدنى مشاعر. تهتكت عظامي وأُثخِنَ جسدي بالجراح إلى أن خرجنا للشارع.

هذا ليس معناه أني لم أصرخ.

صرخت رعبًا وألمًا ويأسًا.

صرخت حتى بُلِيَت أحبالي الصوتية.

ثم زدت الصراخ حتى شعرت إنه قد أيقظ الموتى.

لكني لم أجد من يسمعني.

حولي لم أجد المدينة بل صحراء مظلمة باردة لا تضيئها نجوم ولا يميزها تل.

لمحت بطرف عيني السليمة بوابة الحديقة الصدئة وهو مفتوح على مصراعيه ثم... رأيتهم.

علمت حينها أني لم أكن أُبالغ في وصف صراخي بأنه قد أيقظ الموتى.

من وسط الأغصان المتشابكة وفي إضاءة نيران الحطب الملتهبة التي سطعت من منتصف الحديقة، رأيت وجوه كالحة لأشخاصٍ في

t.me/qurssan

أعمار متباينة. أشخاص لم يعودوا على قيد الحياة، أهل وأقارب ساكني مربع 10. هؤلاء الذين قطع عليهم (المحروقي) طريق الخروج من هذه الدنيا وأخذهم ليستقروا معه هنا بدلًا من قبورهم. ليقر عين أهلهم بهم لليلة واحدة كل أسبوع يعودون بعدها لسجنهم الأبدي.

وإن لم يفعلوا لخرج لهم «هو».

والويل كل الويل لمن يقف في طريقه.

توقعت حين أرى الموتى إنني سيصيبني هلع هيستيري.

لكن هذا لم يحدث.

فقط هناك... الحزن.

تأملت في وجوههم ولاحظت ذلك التعبير الرمادي البائس، تعبير يغلفه فضول باهت. إنهم ليسوا سعداء، وكيف ذلك وهم قد حُرِموا من الراحة الأبدية.

فما فعله بهم أهلهم هو الأنانية المطلقة.

لكنها لعنة (المحروقي).

فلقد أنهى حياة عائلة كاملة وقطع نسلهم ولهذا فسيظل يعطي الآخرين ما أخذه من (الغفافرة) حتى تحين الساعة.

هذا مكان ملعون ليس به رحمة.

ليس به أمل.

ثم رأيت (ليليان).

t.me/qurssan

الطفلة الماليزية الرقيقة التي لم أرها في حالتها الطبيعية قط. نظرتها لي لم تكن زجاجية ملآنة بالفضول كبقية الموتى لكن بها جزع وخوف.

بكل الحنان الذي لن أتمكن من إعطائه لابتني ابتسمت لها.

لكن لم تلبث ابتسامتي تلك أن تختفي حين تقدم (المحروقي) وجذبني من ذراعي ليدخل الحديقة.

هنا تملكني الهلع تمامًا. رغم قوتي وحجمي الهائلين لكن كل محاولاتي للإفلات من قبضته الحديدية باءت بالفشل. ثم أطلق ساكني الجنينة من الأرواح تنهيدة عالية كأنهم شخص واحد. تراصوا بعدها عند المدخل ليصنعوا ممرًا من البوابة إلى الشجرة الكابوسية التي تتوسط الحديقة وتظلل الكوخ.

والتي كانت مختلفة تمامًا عما نراها في عالمنا.

فقد صار حجمها أضعافًا. انتشرت أشواك مخيفة في أغصانها العملاقة التي تتحرك بانسيابية كأنها أعشاب بحرية في باطن بحيرة عكرة.

ثم لمحت الجسد البالي الملقى وسط الأفرع. إنها (سمر)، وهي تنظر إليَّ بعيون كاد بريق الحياة أن ينطفئ فيها.

إنها ما زالت على قيد الحياة.

بعكس عشرات الجثث المنتشرة على الأغصان الرهيبة.

حينها علمت أن الشجرة نفسها قد ارتوت من النيران التي كان قلب (المحروقي) يحترق بها، ارتوت حتى شبعت. وبعد سنوات وسنوات قضاها أسفل منها، وحده بعيدًا عن كل الأعين، صارت الشجرة جزء منه.

t.me/qurssan

حوَّلت عيني عن الشجرة إلى الكوخ المتهالك...

عجبًا، إنه ليس متهالك.

إنه سليم تمامًا كأنه أُقيم بالأمس.

عندما أصبحت على بعد خطوات قليلة من الكوخ كان الذعر قد نال تمامًا مني وبدأ وعيي ينسحب ببطء. حينها استسلمت للمصير المريع الذي ينتظرني في الكوخ، في مملكة (المحروقي) المظلمة. نظرت مرة أخيرة حولي قبل أن يفتح (المحروقي) باب الكوخ، وتيقنت حينها.

تيقنت أني وحدي تمامًا.

لم يعد هناك من ينجدني.

أغمضت عيني قانعًا بالنهاية التي اخترتها لنفسي. لقد أخذني (المحروقي) بدلًا من زوجتي. أعلم أنني لم أنقذها من الموت، فلو أن أجلها قد حان فلا مؤجِّل له، لكني على الأقل رحمتها من سجن (المحروقي).

انتظرت اللحظة التي ندخل فيها الكوخ سويًا وما إن جاءت، ما إن وطأت قدميه الهائلتين أرضية المدخل الخشبية...

حتى جذبني شيء.

توقف (المحروقي) مكانه وتسمَّر على نفس الوضع: مائلٌ للأمام، ساقٌ أمام الأخرى، ويده اليسرى ممسكة بذراعي يجرني بها على الأرض كالخرقة البالية.

ببطء استدار لينظر لمن أمسك بساقي وكذلك فعلت أنا.

ورأيتها.

t.me/qurssan

الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يضع حياته الأبدية تحت قدمي لينقذني.

أقوى الأبطال الخارقين في الكون كله.

أمي.

لحظتها نسيت آلامي ومخاوفي.

نسيت كائن الانتقام والندم المتجسد في شكل طيف أسود عملاق يمسك بذراعي ويكاد يسحقها.

نسيت ما يحدث حولي وما حدث في الأسبوع الماضي.

بل ما حدث في عمري كله.

إلا لحظة واحدة.

ابتسامة على وجه دائري بشوش فيها أمان الدنيا وكلمة ستظل الأحب إلى قلبي ما حييت:

«كراملة».

ابتسمت لي بحنان ومدت يدها لتمرر أصابعها في شعري.

قالت شيئًا لم أسمعه لكني رأيت شفتاها تتحرك ففهمت أنني لن أسمع ما تقوله. كنت على وشك أن أبوح لها بندمي على بعدي عنها لولا أن جذبني من كان يمسك بذراعي ناحيته بقوة.

فما كان من أمي إلا أنها تمسّكت بساقي بكلتا يديها.

العجيب في الأمر أنه بالرغم من أن لديه من القوة ما تمكنه من خلع شجرة البلوط من جذورها، لكنه ظل ممسكًا بذراعي فقط دون أن ينتزعني منها.

t.me/qurssan

نظرت لأمي لأجد على وجهها نظرة ملتاعة استنتجت إنها بسبب الألم المتجلي على ملامحي. ابتسمت لها وقلت:

- سامحيني يا أمي.

لم أكن أظن أن الأرواح تستطيع البكاء. لكن الخط اللامع الذي امتد من عيني أمي ليسيل على وجهها الشاحب قد أثبت لي خطأي.

لحظتها ترك (المحروقي) ذراعي. التفتّ إليه فوجدته يتقدم من أمي.

هل يمكن أيضًا للأرواح أن تصاب بالذعر؟

إن كانوا يفعلون فلابد أن اقتراب هذا الكائن الكابوسي لهو كفيل أن يصيب روح «هتلر» نفسه بالهلع.

لكنها لم تهتز.

بطلتي الأغريقية الخارقة لم تتحرك قيد أنملة بل عكس ذلك تمامًا. تقدمت لتضعني بين قدميها ووقفت فوقي كتمثال «جبار رودس» وعلى وجهها نظرة لن أنساها ما حييت. نظرة تقول:

«كلا... لن تأخذ ابني»

هنا توقف (المحروقي) ورمى رأسه الصغيرة للوراء ليطلق أكثر الصيحات هولًا، صيحة لا تخرج إلا من أعماق جهنم. كاد قلبي أن يتوقف حين عاد برأسه لوضعها الطبيعي وبدأ في العويل كالطفل، عويل أقرب إلى عواء ذئب خرافي بين أركان وادٍ عميق.

ثم صدت التنهيدات مرة أخرى.

نظرت حولي لأرى أن الأرواح كلها، والتي كانت تراقب الموقف

t.me/qurssan

في صمت، قد وضعوا أيديهم على أعينهم وهم يتنهدون بإيقاع غنائي مُقْبِض.

كأنهم يخشون ما سيحدث.

ثم تقدم (المحروقي).

هذه المرة رأيت الشجرة العملاقة تتضَخَّم وتنحني فوقه كأنها أذرع وأجنحة لكائن أسطوري.

علت التنهيدات حتى صارت أقرب لصفير رياح عاتية.

ركعت أمي لتحتضني وكم تمنيت أن أشعر بلمستها. لكن كل ما شعرت به هو نيران باردة تغلف جسدي دون أن تحرقه. أغلقت عيني وانتظرت اللحظة التي ينزعني منها (المحروقي) نزعًا.

لكنها لم تأتِ.

هناك صوت بشري.

- (محروقي)!!

فتحت عيني ونظرت لمصدر النداء الصارخ.

ما الذي تفعله يا (أمير)؟

كان الضابط الجسور يقف عند البوابة الحديدية. على وجهه نظرة كلها تصميم وفي يده أوراق مطوية.

رفع (المحروقي) عينيه الدقيقتين عني ونظر هناك. ما إن رأى (أمير) حتى وقع لثامه من على رأسه التي هي أصغر من رقبته. أسفل منه ظهر وجه الطفل رمادي اللون كالطين الجاف.

t.me/qurssan

ثم بدون سابق إنذار هدر كالعاصفة وتقدم إلى (أمير). تحركت معه أفرع الشجرة ليصبح المشهد أكثر سوادًا من أقوى كوابيسي.

عندها سمعت (أمير) يهتف في (المحروقي) بأعلى صوته حتى يصبح مسموعًا وسط هدير التنهيدات:

- (ياسين طاهر نسيم عوف)، حفيد (عوف ناصر عبد الغفار).. حيٌّ يرزق.

صمت (أمير) للحظة أبطأ فيها (المحروقي) من تقدمه باتجاهه لكنه ظل يطفو فوق الأرض بينما تتحرك حوله الأفرع بحركة محمومة.

لم يكن (أمير) بقادر على أن يرى (المحروقي) نفسه لكنه كان يرى الشجرة في شكلها الشيطاني، ويراني ملقى في حالة مزرية أمامها. وحتمًا كان يسمع هدير التنهدات المرعبة. لكنه بالرغم من هذا ظل محتفظًا بشجاعته وهو يحدق في تفاصيل المشهد الذي يشيب له الولدان والمتجسد أمامه. وعندما لم يرى أفضل من الشجرة نفسها كي يوجه كلامه إليها فعل ذلك وهو يقرأ من الأوراق التي كانت بحوزته.

- (عبير نادر نسيم عوف ناصر عبد الغفار) حية ترزق.

أطلق (المحروقي) عويل الطفل مرة أخرى لكن (أمير) استمر في القراءة بصوتٍ عالٍ دون أن يعلم بالمارد الأسود الذي بات على بعد أمتار قليلة منه:

- (شادي يسري نهاد عوف ناصر عبد الغفار) حي يرزق.

ثم تقدم (أمير) ليضع العشرات من شهادات الميلاد على الحشائش ونظر أمامه - (للمحروقي) مباشرةً دون أن يدري - هاتفًا:

t.me/qurssan

- وغيرهم لسه عايش. ولاد (ناصر عبد الغفار) ما ماتوش معاه في الحريق يا (محروقي). وكل دول أحفادهم وأحفاد أحفادهم.

هنا صمت كل شيء.

هدأت حركة الأفرع حتى سكنت تمامًا.

سكتت الأرواح عن التنهيد.

وتوقف (المحروقي) عن الطفو ليهبط ببطء على الأرض أمام (أمير).

تدريجيًا بدأت ملامح وجهه تتغير لتعود كما أتذكرها. ليست أجمل الملامح لكنها بكل تأكيد أفضل من ملامح طفل على جسد رجل.

رغم الموقف المثير عند مدخل الحديقة إلا أن اهتمامي كله كان على أمي، التي لم أجدها حولي. درت حولي مذعورًا باحثًا عن مصدر الأمان الأول والأخير لي فوجدت مشهدًا عجيبًا.

رأيت الأرواح وقد تراصت داخل سور الحديقة بينما وقف ذويهم خارجها.

- رفعت!!

كان هذا نداء (سوسن) لزوجها وهي تمد يدها عبر السور لكي تلمسه لكن الأغصان المتشابكة حالت دون ذلك.

اقترب (ياسر) من روح رجل في زي عسكري. كذلك فعل (عادل) مع زوجته وفعلت (ماتيلدا) مع ابنتها. حتى (محروس) نفسه، ظهر خلف السور واقترب من روح ابنه المحبوسة بالداخل.

التفّ كل سكان المربع خارج سور الحديقة في مشهد مبكي بينما الأرواح تقف مشدوهة داخل السور.

t.me/qurssan

انتبهت (للمحروقي) فوجدته ينزل على ركبتيه ويمد أصابعه ليتحسس شهادات الميلاد ثم رفع عينيه لينظر إلى الأرواح.

- وَدَّعُوهم. دي آخر مرة هتشوفوهم فيها.

كان هذا الهتاف من دكتور (عادل) قبل أن يلتفت إلى زوجته ليودعها ببكاء صامت. كذلك فعل كل من له روح محبوسة في عالم (المحروقي).

هنا شهقت الأرواح وحركوا رؤوسهم ناحية الأخير، كأنهم شخص واحد.

ثم نظروا ورائي.

وكذلك فعلت أنا.

رحماك يا ربي.

كيف لم أتوقع ما أراه الآن؟

وقفت أمي أمام الكوخ وفي يدها لفَّة صغيرة.

تقدمت ناحيتي ونهضت أنا بصعوبة لأستقبلها.

هل اعتصرت يدٌ باردة قلبك من قبل؟

لو كانت فعلت فسوف تفهم شعوري لحظة رؤيتي تلك اليد الدقيقة التي خرجت من اللفة.

رغمًا عني سالت دموعي.

حتى قبل أن أراها.

عرفتها.

t.me/qurssan

إنها...

ابنتي؟

رفعت عيني لأمي فوجدتها تبكي هي الأخرى بكاءًا صامتًا وتبتسم لي بحنان.

فقدت شعوري بالموجودات كلها والمسافة بيني وبين ابنتي تتقلص.

حتى وقفت أمام أمي والتقت عيوننا.

كيف أتفاعل مع هذا الموقف؟

كيف يمكن لأي شخص أن يتصرف لو رأى روح ابنته الرضيعة أمامه؟

ابنته التي حُرِم منها قبل خروجها إلى الدنيا.

مدت أمي ذراعها لي بالطفلة وهمت بكشف وجهها.

خرج مني زفيرٌ حارقٌ وأنا ألمس يدها بأطراف أناملي الغليظة. ارتعشت شفتاي وحاولت النطق بما أشعر به.

لكني لم أستطع.

فقالت عيني ما عجز به لساني.

لا يا أمي.

لا تجعليني أراها.

فلو فعلتي لما استطعت أن أكمل ما تبقى لي في هذه الدنيا، لو كانت لها بقية.

t.me/qurssan

نظرت أمي خلفي فصرفت بصري (للمحروقي) لأجده على نفس وضعه.

لكنه كان ينظر إليّ...

وينتظر.

التفتّ لأمي مرة أخرى ومدت يدي كي أحكم اللفّة حول جسد ابنتي الضئيل.

ثم ودعها قلبي.

الذي انفطر كما لم ينفطر قلب من قبل.

ظللت أراقبها وأمي تتراجع بها حتى دخلت الكوخ.

عندها انهرت على ركبتي باكيًا وصرخت بأعلى ما أمكنني إياه جسدي المكسور.

فقد ودعت لتوي أمي.

وابنتي.

أخرجتني تنهيدة الأرواح من حالتي تلك فوجدتهم ينظرون إليّ بعيونهم الزجاجية.

نزفت دموع لامعة على وجوههم الجامدة قبل أن يلتفتوا إلى الكوخ ويتقدموا ليدخلوه الواحد تلو الآخر.

إلا (ليليان).

من داخل الكوخ رأيت أعين الأرواح تنظر إليها.

وينتظروها.

t.me/qurssan

نظرت الفتاة إلى أبويها خارج السور. لوحا لها مودعان من بين دموعهما وفعلت هي المثل ثم تقدمت إلى (المحروقي).

الذي التفت إلى شهادات الميلاد الملقاة أمامه.

ومرر أصابعه عليهم مرة أخيرة.

ثم رفع عينيه القاسيتين ونظر حوله كأنه يبحث عن شيء.

لا يستطيع التعبير بما يجول بداخله لكنه صبغ المكان كله بهالة من المرارة والأسى.

حتى وقعت عينيه على (ليليان).

التي مدت يدها إليه.

وابتسمت.

نظر إلى كفها الصغير ثم دار بعينيه حوله. نظر في وجوه السكان الذين كانوا يكونون وهم يراقبون المشهد من خارج سور الحديقة في صمت.

توقفت عينيه عند (أمير) الذي كان يقف أمامه مباشرةً.

تخيلت أني رأيت (المحروقي) يهز رأسه كأنه يشكره لكن (أمير) لم يراه.

نظر (المحروقي) مرة أخرى لكفّ الفتاة ومد يده الهائلة ليلتقطه ثم نهض بقامته التي تناهز المترين ونظر إليها وهي التي لا تكاد تصل إلى وسطه. مسح على رأسها في حنان ثم نظر أمامه.

ودخلا الكوخ سويًا.

التفتت هي ولوحّت مرة أخيرة لأبويها ثم أغلقت الباب خلفهما.

استندت على (أمير) عند بوابة الحديقة والتفتنا لنرى الكوخ يتهاوى ويصبح رمادًا.

t.me/qurssan

هنا اختفت رائحة الموت.
وانطفأت جذوة النار، للأبد.

سكنت أطلالاً لم يأتها أملٌ أو ترى شمسَ
فيها يصرخ الليل خلف قضبانٍ تحبس الهمسَ
رمادَ بركانٍ لم يترك خلفه سوى بحرٍ من الندمِ
أنا المنسيّ، أنا المنفيّ، أنا الضاحكُ من الألمِ

تمّت

t.me/qurssan

t.me/qurssan

المؤلف في سطور

- يحيي صفوت مهندس وكاتب مصري من مواليد القاهرة 1975.
- سبَّاح ومدير شركة هندسية.
- متخصص في روايات الرعب والخيال والإثارة باللغتين العربية والإنجليزية. بالإضافة إلى مجموعة مدونات فلسفية على اليوتيوب.
- نشر له ثلاثة أعمال:

1. كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان The Dark Season Saga وهو كتاب خيال ملحمي شبيه برواية Lord of The Rings وكان من أفضل المبيعات على Amazon. والرابط:

https://www.amazon.com/Dark-Season-Saga-Harvest-Enhanced-ebook/dp/B01GXQ7RZK

2. رواية غموض ورعب من جزئين باللغة العربية بعنوان «بر الضيف» وحققت نسبة مبيعات عالية في معرض الكتاب 2019. حيث نفدت الطبعة الأولى كاملة قبل انتهاء المعرض بخمسة أيام.

- حساب الفيس بوك:

https://www.facebook.com/yehya.h.safwat/

- الإيميل:

yehyasafwat@yahoo.com

t.me/qurssan

جنينة المحروقي

بعد غربة دامت خمسة عشر عامًا يعود (كريم) ل يدفن أمه لكنه يجد سؤالًا صادمًا في استقباله:

"كيف كنت في الخليج وفي نفس الوقت في القاهرة؟"

كي يجيب على هذا السؤال يقضي (كريم) أيام زيارته القصيرة في مربع "جنينة المحروقي" الذي نشأ فيه والذي لا يتميز في ظاهره بشيء عن سائر الأحياء.

لكنه يكتشف أنه يسابق الزمن.

فلم يكن هذا هو أخطر الأسرار التي تحيط بـ"جنينة المحروقي"، هناك أيضًا مهلة محددة لحل هذا اللغز.

بعدها ...

ستنفتح أبواب الجحيم.

العين للنشر

t.me/qurssan